

أحمد المديني



جديد بديف®
jadidpdf.com

في بلاد

رواية

المركز الثقافي العربي



أحمد المديني



جديد بديف®
jadidpdf.com

في بلاد نون

رواية



المركز الثقافي العربي

الكتاب

في بلاد نون

تأليف

أحمد المديني

الطبعة

الأولى ، 2018

عدد الصفحات : 320

القياس : 14 × 21

الترقيم الدولي :

ISBN: 978-9953-68-873-2

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب : 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف : 0522 303339 - 0522 307651

فاكس : 212 522 305726 +

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت - لبنان

ص.ب : 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف : 01 750507 - 01 352826

فاكس : 961 1 343701 +

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

﴿تَ وَالْقَلِيلَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾

قرآن كريم

«وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم، وإلا إصلاح فسادكم وإبقاء النعمة عليكم. ولئن أخطأنا سبيلَ إرشادكم فما أخطأنا سبيلَ حُسن النية فيما بيننا وبينكم».

الجاحظ

«كم الحكاية، القصة، يا إلهي؛ كم هي ثانوية جداً. إن الأسلوب هو المهم، فالرسامون تخلصوا من الموضوع: جرّة، قدح، أو تفاحة، أو أي شيء آخر، إذ يبقى المعوّل عليه هو كيفية صياغتها».

Louis-Ferdinand Céline

كل محكيّ هنا واقعيّ؛
كل محكيّ هنا خياليّ،
عليك أن تختار...

الفصل الأول

استيقظت بلدة نون في صباح يومها، هذا، على جلبة لم تحدث فيها من قبل. انبلج نورها على أشغال، وأعمال حفر، وناس يتحركون في كل اتجاه، وهم يحملون عتاداً، ويُسوون أرضاً، ويُرسون أعمدة. من اعتاد وعاش في هذه البلدة الوادعة، المنبسطة، عند سفح جبل، بحميها، وفيء عليها بظلال أشجار سامقة، متنوعة، تكسوه كثافة وخضرة دائمتين، سيطلوه العجب كله مما يرى ويسمع، وسيظل يرى ويسمع طيلة أيام آخر. لا يوجد لدى سكان هذه البلدة ما يدعوهم ليستيقظوا باكراً، وإن هَجَرَ الكرى أعينهم يبقون لا يدين في مضاجعهم، أبواب بيوتهم موصدة، وكواها العالية المشبكة مغلقة، تحسبهم يخافون من هجوم طارئ، بينما سكينه ظاهرة تحوم حولهم، إذ ليس في جوهم، داخل وخارج مراتبهم، ما يوحي بأنه يشوش على حياتهم، فإن ظهر أحد من الغرباء عن محيطهم لا يستطيع أن يختم حقيقة وضعهم لميلهم الشديد إلى التكتّم، ونزوعهم، كأنها طبيعة متأصلة فيهم، إلى الحديث والتعامل بالحركات والإشارات؛ من يجهل هذا الطبع سيحسب أنهم صُم، بكم، أو لا يعقلون!

تجري الأمور في بلدة نونة، كما جرت من دهر وعقود. تختلف عليها الأزمنة، تتناوب الأعمار، وتبدل فيها الأجيال، من

غير أن يطرأ تغير كبير أو عميق، إلّا في بعض أشكال المباني، أو هندام الخلق، وفي بعض طقوس الأعراس وفي أثناء المناسبات الدينية والوطنية، ومع بعض المعاملات الإدارية لتدبير الأحوال، وفق ما يناسبها وحدها، لا سواها، حفاظاً على وحدتها وانسجامها، لأنّ أيّ خلل في خرق هذا التدبير والانصياع لمن وُضِعَ وسخّره، يخاف أهلها أن يجرّ عليهم غضباً، ربما لعنة قد يكون مصدرها عقاب من الله وهم متدينون، أو بتدبيرهم يتظاهرون، أو من الحاكم العام، يرجفون لمجرد سماع اسمه، هو الموجود قصياً في حاضرة كبرى بعيدة جداً عنها، وأنّى لهم بمقامها، وقريباً يُلقى بظله على كلّ نسمة ونأمة فيها. أمّا الجبل، فتنحسر أبصار سكان البلدة دونه هيبة، اللهم تحسبهم يتنكبّون يداً ستحزّ رقابهم بسيف غير مرئي يطوف حول الرقاب. نعم هم هادئون، في الظاهر على الأقل، يهون على الواحد منهم أن يُدير لك خدّه الأيسر إن صفعته على خدّه الأيمن. ذاك ديدنهم، صار الصبر والعفو عند المقدرة عادة عندهم، والعجز بعدهما فطرة، فلا يكفون يستشهدون، بمناسبة ومن دونها بالآية الكريمة: ﴿...﴾ وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٤﴾، مما جرّ عليهم من طرف القبائل والبلدات المجاورة لهم لقب الكاظمين، وكلّ من ينتمي إلى البلدة يلقب بـ«الكاظمي»، وهذا على محمل السخرية، بالطبع، ومن تساهلهم، أو غفلتهم، لم يفتنوا لهذا، بل منهم من اعتبره جزءاً من اختبار الله لصبرهم، وإن وُجد فيهم من ضاق ذرعاً فغلت المشاعر في نفسه، واضطرم الغضب. هؤلاء ترى أدخنة تخرج من أعالي بيوتهم تطلّع من النار التي تحرق صدورهم، تجلب لها الأيام والأعوام حطباً يزيد من أوارها،

وَصِمُّوا بالشاذِّينَ، ومن السَّكانِ نُبذوا، اعتُبروا تقريباً خارج الرعيَّة، ومُنِعَ التَّنَاقُحُ معهم، والبيعُ والشراءُ، كذلك الاختلاطُ بهم وأيُّ شيءٍ ذي صلةٍ بهم، إلَّا للضرورة القصوى، فيوصى كلُّ مَنْ يحلُّ بالبلدة أن يتجنَّبَ عِشْرَتَهُمْ تفادياً لعدواهم، صاروا وباءً، ورغم كلِّ ما حلَّ بهم لم يهاجروا، صبروا على ما يعانون، يتسارَّون بينهم إنهم في انتظار يوم موعود.

استيقظ سكان البلدة صباح يومهم، أخرجَهُمْ من مضاجعهم أبكَّرُ بكثير ممَّا اعتادوا، ضربُ مطارقٍ، وصريرٌ وصفيرٌ، وجلبةٌ، أصواتٌ وصخبٌ لا عهدَ لهم بسماعها، ولا هم يملكون في عُدتهم من أدوات البناء أو الصناعة ما يمكن أن يُحدِثها، خاصَّةً وهم في هذا الرُّبْع في طرف قصيٍّ من البلاد الواسعة يكتفون بالبسيط، وطموحهم دون الكبير، المعقَّد. استكانت نفوسهم أن لا سبيلَ لهم لبلوغ الأدوات والهيكل المعقَّدة، فتلك موجودة في المدن الكبرى، هناك، وفي العاصمية، بالذات، حيث يقيم الحاكم المركزي، وحاشيته، وبطانته، وسواهم من المتنفذين الآخرين، وأمثالهم من قوم السمع والطاعة، ممَّن تحوَّل بينهم الجبال والوديان، فليقنعوا بما هم فيه هو خير لهم من طلب المحال. وإذا ارتفعت الجلبة، وآلات تدور، وعمال بلباس أصفر وقبعات حديدية عيونهم محجوبة بنظارات زرقاء سميكة يذهبون ويجيئون، فإنهم خرجوا كلهم من الجحور التي تسمَّى مساكن فوقفوا أمام أبوابها متعجبين، مندهشين، أفواههم فاغرة من أثر ما يرون ويسمعون.

الرجال، والشباب منهم هم المنبهرون، والأطفال كأنما هو يوم العيد في هرج بينهم، عافوا المدارس، وتحلَّقوا حول هؤلاء

الغرباء يحملقون فيهم ككائنات نزلت من السماء، ومنهم مَنْ يطلب إعارته ولو دقيقة النظارات الزرقاء، فربما سيُبصر بها ما لا يراه الآخرون، وهو ما نجح فيه صبي أعاره عامل نظارتيه، وهو إنما سلبته امرأة فتوقف يتغزل بها لمحها تطل برأسها وتسحبه سريعاً ونصف وجهها يغطيه منديل كمادة النساء هنا. كنّ خائفات، متردات، الأبقار منهن يتلصصن بفضول من كُوى على ما يحدث في الخارج، وجميعهن يتفعلن في صدورهنّ مستعيزات من الشيطان الرجيم، أبصارهنّ مشدودة إلى مشاهد لم يألّفنها، وقوم غير رجالهم، الجدّات العجائز وحدهن بقين منكفئات بالداخل، هنّ المتشحات دائماً بالسواد، لا يُعلم عن جداد حقاً، أم لأنهنّ ظللن يُنذرن الأهل والجيران بقدوم شرّ مستطير، فما تعجبن من الجلبة، وظهرن يتوقّعن أسوأ شيء هو عندهن لا محالة قادم.

كذلك هي عيون الرجال الواقفين بدورهم في مدخل البيوت. يحسّون بسيقانهم تتمرّد على وقفتهم، قد فلتت منهم وقارهم وثباتهم وهم لا يحفلون عادة بالزمن يجري بحوادثه والصور إذا تبدّلت ليست منهم، وقفّتهم المتمللملة لهم وليست منهم، وهم يرتعشون بأقدام مغموسة فوق أرضية طينية، مُتربة، يغطي أجسادهم غبار متناثر تقذف به آلات ضخمة ذات أصابع طويلة تشبه المدراة، تتبعها عيونهم وهي عن بُعد ترتفع يداً واحدة، مضمومة، عالياً، ثم تشرع في النزول تدريجياً واليد تفرد أصابعها فتصبح مفروزة كأسنان المشط، عندئذ تسيخ في التراب فيُسَمع لدخولها فيه صوت كالشرخ وهو يتفسّخ نحسه يتوجّع، معه هي الأرض تتشقق، لا يهاذنها العامل لحظة كي تلمّ نفساً، العامل سائقها شامخ داخل مقصورة القيادة، خلف واجهة زجاجية مغبرة، يعتلي آتة الضخمة يدفع إليها

مباشرة مثل نصل فماً واسعاً بمشابة حاوية حديدية تكسح رمم الأرض المتفسخة، وحين تمتلئ يشيح بوجه آله وحاوته إلى ناحية لا يستطيع الواقفون عند مدخل جحورهم أن يروها حيث هم ولا يقدرون أين يمكن أن تُرمى. ربما يتساءلون، أغلب الظن تناهبتهم الحيرة لِمَ هذا الحفر، وَمَن اشتكى، بكى، نحن هنا نحب هذه الأرض كما هي، وما دخل الغريب يقتحمنا ويدفع هذه الآلات بوحشية، بعناد، يقلق سكينتنا، هكذا على حين غرة، فعل خسيس، كالغدر، بل الغدر عينه، لم يخبرهم أحد، وهذا الصباح غبار، ومدخل بلدتهم أمام أبصارهم أشلاء، في ساعة واحدة كل هذا الخراب والتراب يتطاير، فماذا سيحدث بعد يوم، بعد أسبوع، كم ستمتد هذه الأشغال، وهؤلاء الغرباء كم سيقيمون بينهم، ونساؤهم، بناتهم، يعرض كل واحد على شفتيه، الأغراب يعيشون في الأرض فساداً، هؤلاء قادمون من هناك، ليسوا من هذا الجبل، ولا نحن قادرون على صدّهم، لا شك يعملون بأمر من ذاك الذي.. هناك.. وذاك، هل يخطر له بالبال أن بشراً يوجد في هذا الصقع البعيد عنه، المساكن الخربة.. فالويل لنسلنا وحرثنا من الهلاك!

مجموعة بيوت طينية هي مساكنهم. وطيفة، قائمة وآيلة إلى التداعي، فكأنما صُنعت على عَجَلٍ من قَشٍّ وقصبٍ ولينٍ من وحل. لو أنها رماديٌّ غامق، وتفقد أيّ تنسيق، اللهم اصطفاؤها على جانب الطريق في تنالٍ مستطيل، بحوش صغير في مدخل كل سكن، جانب منه امتد فيه جبل لنشر الغسيل وما تبقى تقفز فيه دجاجة وفرخ يلتقطان حباً وينبشان عن ديدان. تقابلها في الجهة

الأخرى مثلها، وخلف كل مجموعة مساكن توازيها وتفصلها عنها مساحة من ضيقها محجوزة بين مترين. هنا تتبعثر إماء نفايات، أو أسننت برك صغيرة، مُجمَّع بعوض وذباب، ما لا يمنع الأطفال يمرحون فيها ويتقلبون كالضفادع: أنصافُ عُراة. يُرون، نسيتهم أمهاتهم هنا عمداً، غفلة، حتماً لا عين تحرسمهم، مسؤولون عن أنفسهم من المهد، حتماً سيبقون كذلك إلى اللحد، بانسجام مع الطبيعة والبيئة حيث وُلدوا. الأمهات انصرفن لأشغال متفرقة، فهن نساء كادحات لا كأزواجهن متعطلات، لا عجب توصف المرأة في عمل بيتها ويُقال عنها إنها تشقى، من الشقاء، أو لأنهن دُعين يُلبين صاغرات حاجة ملحة لأزواج لا تفر عندهم الرغبات، ليل، نهار، لا يحسبون حساباً متى تفتق شهوة النساء، ويحترقن بالرغبة، كيف لهن تلبيتها حين تشتعل ناراً في أجسادهن بأوكارها الخبيثة، ومكانها الملتهبة. وها النهار، طلع نهار لا يعرف هؤلاء الرجال أجديد هو أم تكرار ليوم آخر، كسالف الأيام التي يدحرجون وتتدحرج بهم في هذا الصقع شبه المهجور.

استيقظ هؤلاء الرجال، أو من يتشبث بينهم بعد بالرجولة بشم هارب، أبكر ممّا اعتاد هؤلاء الرجال. طلع نهار لا يستشيرهم في الطلوع، أو يدعن لهم إذعان زوجاتهم، فأفسد عليهم الاستمرار في حلم يؤويهم لذيداً، بستر عوراتهم، يتستر على فقرهم، هو ليؤسهم قماط. غريهم الذي يفتضح تحت الشمس في الصيف القانظ، ويقشعُ برداً قبل اللحم تحت المطر المردار في شتاء العصف والزمهرير؛ أفسد عليهم البقاء في كنف حلم يحميهم مؤقتاً من الاستيقاظ قسراً ليواجهوا من جديد حياة بائسة لا قبل لهم بارتفاعها، ولا هم يملكون أي إرادة لإزاحتها عن كاهلهم، الليل

وحده يرحمهم فيهبطون في شغافه إلى قيعان نسوتهم، وطوله
 يمشون، يحفرون في الشُّعاب، ويمضون في التجاوير، ويعبرون
 الدهاليز تقبض أنفاسهم شهوةً يطاردونها أمامهم، ولذةً يخافون أن
 تفلت منهم حين يجهد النفس، أو يحسون أنّ الجذوة التي تلهب
 الشهوةً ستنطفئ، فيضطرون للاستيقاظ، وسيبقون عندئذٍ عُراةً أمام
 عجزهم، مفضوحين مع نسوتهم اللواتي لن يُسلسن لهم القياد بعد
 ذلك بسهولة ما دام اللجامُ سيفلت، وها هو فلتَ هذه الليلة بالرغم
 من الجميع، رجالاً ونساءً، جميعاً أيقظتهم الجلبةُ، ويقفون أمام
 أشباه البيوت، ينظرون، شبه ذاهلين ما يحدث أمامهم ولا يفهمون،
 أو..

- 2 -

قبل أسبوع من الهجمة المفاجئة والعاتية التي تعرّضت لها بلدة
 نونة، تبّلغ المعلم لمباركي، من كبار مقاولي الأشغال العامة في
 الإيالة الكبرى للحاكم العام، باتّصال هاتفٍ من المديرية العامة
 للتجهيز، المكلفة بالطرقات، والسير على الطرقات، والجسور،
 والتشوير، ومن المندوبية العامة السامية للسياسة المجالية وإعداد
 التراب الوطني الإيالي، وبإشراف مباشر من الهيئة العليا المكلفة
 بالرعايات الأسمى، تُسبغ نعمها على البلاد والعباد بكرةً وأصيلاً.

تحدّث في الجهة الأخرى مَنْ أخبر بأنه يتحدث باسم مَنْ
 يتحدث بدوره باسم مَنْ قال إنه لا ينبغي أن يذكر اسمه تحت طائلة
 عقاب مهول، فهو إنما يتحدث باسم مَنْ ينوب بدوره عن متحدّث،
 في الأخير، ومن أجل الاختصار فقط والحصر فقط، يصل إلى

الناطق شبه الرسمي باسم مَنْ لا يجوز بأيّ حال النطق باسمه مهما كان السبب، أو ظهر العجب، اللهم أن يأذن الشخص نفسه أن ينطق باسمه علماً أنّ شيئاً من هذا خارج الأعراف والعادات والسنن المحكمة التي تجري بها وعلى منوالها كافة التقاليد؛ قد يتفَضَّل من مقامه الأعلى، فيتهجّد، يوحى بإشارة رمزية غير مرئية إلّا للعارفين، السالكين في درب الدراية الحق بأخبار الأولين والآخرين، الممتحنين في الأسلاك الدقيقة للعبور من الشك إلى اليقين؛ يوحى ساعتها أنه يوحى . وعندئذٍ فقط يُحتمل النظر إلى الأمر باعتباره صادراً عن الإيالة الكبرى المبجلة، منزهاً عن الغلط، بحسب المُقيّد في السجلات المحمية من عبث العابثين، ولا يمكن أن تطولها يدٌ أو نظَرُ الدهماء والعامة والسوقة وأبناء السبيل، وكلّ مَنْ تُسَوَّل له نفسه . . وهذا يكفي تنبيهاً وتحذيراً وزجراً مسبقاً، فإذا ظهر المعنى لا فائدة في التكرار!!

يوحي بأمر منه صُدِّرَ موقعٌ بإحدى يديه الكريمتين، موجّه إلى المعلم لمباركي شخصاً مخصوصاً يتمتع بالرضا الإيالي، قد امتحن، وكبُر على الطاعة والولاء والامتنان للإيالة، أي فيض سعادة سيغمره، ويُرجَّح أن يُغمى عليه ساعة أو يوماً قبل أن يستفيق، ليبقى بعدها ذاهلاً أياماً بين مكذّب ومصّدق أنه هو المعني لا أحد سواه مَنْ نُودِيَ عليه، هو مَنْ إليه الخطاب توجه اسماً، وانتدب لهذا الخطب الجلل انتداباً، والأهم من أيّ لغو أنّ عليه المزاد رسا من غير منافس رُسواً، ويتخيل من لحظته نيران الحسد مشتعلة أوارها سيأكل قلوب غُرمائه في الحرفة، قد خصّته للعناية جلّ أن تسمى وحده دونهم جميعاً، مطلقاً، بهذه المكربة، وتكليفه دون العالمين، تكليفاً وتشريفاً ليقوم بالعمل الذي ينبغي القيام به،

على أحسن وجه، وفي أسرع وقت، وهذا نظراً لما سيعود به على مجموع سكان الإيالة الكبرى قاطبة من نفع عميم، وما من شأنه أن يذيع ذكره في الآفاق، في مشارق الأرض ومغاربها، وخصوصاً منه التعبير عن سابغ الرضا على ساكنة بلدة نون، التي وإن كانت تقع في الطرف الأقصى من امتداد نفوذ الحاكم العام الشاسع، وصيته الذائع، إلا أنها تشغل في نفسه منزلة لا تضاهيها منزلة، وسيبرهن لأهلها، خاصتهم وعامتهم، أنهم له العماد وهم المدد، وهو سيلقاهم، من خلال فرد صمد، كأنه التقاهم جميعاً، أحداً، أحداً، أحد؛ وعوض أن يؤلم للناس وهم يأتونه زرافات، زرافات، كما جرت العادات، تعبيراً عن الابتهاج بالخطوة، وما تقتضيه المقامات من حضور فرق الأندلسي والغرناطي والعيطة بأنواعها، الحريزية في مقدمها، تليها المرساوية والجبالية لا بأس بها في ركبهم واحد أكثر من زعطوط يتعالم بأبجديتها برفقتهم، ولن ينسى فصيلة من بشر تدعى الصحفيين يستأجر منهم أيضاً فرقة تنسج له أردية الفخار، ويضعون فوق رأسه أكاليل الغار، وهم يخلعون عليه عباءات الجُئنار؛ وأخيراً رداً للعين، سيستعيض عن هذا بالدخول في شغاف نفسه، وفي قلب الوردية يسبح بحمد الله أن منّ عليه بنعمته التي أنعم بها من قبل على الحاكمة العظمى لتشمله، و..

وعليه فإنّ من يتحدث في الجهة الأخرى من الهاتف، ويسمع صوته خافتاً، هامساً كالخبرير، أملس كالحرير، مرة، ومُزججراً كالرعد، مُنذراً كالوعد، مرة أخرى، بما فهم منه ومعه السامع أن الأمر جدّ في جدّ، أنك يا المعلم لمباركي، تذهب بِعَدَنِكَ كُلِّهَا، اليوم قبل الغد، وتستنفر مهندسيك وعمالك، وتقصد بلدة نون،

نريد منك أن تقلب عاليها سافلها، هي سافل الآن بلا علو، وتُجليها كأحسن ما يكون فنّ التخطيط والعمران والتنسيق والزّواق والتزيين ثم التزيين جلاءً، حتى لتجعل سكّانها، وكل من يطأ شبراً من ترابها، لا يصدّق أنه في بقعة من الأرض، ويتهياً له ما يراه أو يظنّ يراه حلماً لا حقيقة، وفي الحين، بسرعة البرق، يتجسّد أمامه حقيقة. وبعد أن تحفر الطرقات، وتُنشئ المباني تعلوها ما أمكنك، شريطة أن لا تتفوّق على ما في عاصمتنا، أو ترتفع أعلى من صوامعنا وأضرحتنا، ومفاخر منشآتنا، سواء القائمة منها الآن وجدّدناه، عدا ما نحن بصدد تعميره، وسواء ممّا قرّر عليه عزمنا وسنّيته بفرمان لا رجعة فيه، ويحفر على الصخر والخشب في سائر أطراف إيالتنا، ويمكن أن نوسّمه على الوجوه والجباه فيخلّد ذكرنا، معنا في ركابنا محكومونا الأوفياء. ماذا، خديمتنا الأرضي، وفي هذا المضمّار سيفنا الأمضى، إن أمكنك، لا بل عليك أن ترصّع السماء نهاراً بنجوم تختلط على الرّائي، حتى يحسب نفسه في الليل، ومن في الليل أنه غدا في عزّ الظهيرة، ما أقواك، وأي رضا ستنال لو أنك جعلته يتقلب بين الضوئين، ليختلف عليه كلا الشعاعين؛ وإذن، تدبّر أمرك بالفعل أو السحر تدبيراً. وبعد ذلك، لا قبل، عليك أن تنصّب شاشات كبيرة في مداخل البلدة ومخارجها، بل تحوّل كل جدار وباب إلى شاشة، لنا غرض من وراء هذا، وليبق كلّ هذا سرّاً، ومن الغد اشرع في تنفيذ ما أمرت به، وامثّل، وإلا..

من دقيقته، أصدر لمباركي التعليمات إلى معاونيه الأقربين، نبيهم أنّ الكلمة جاءت من فوق، أي أنهم عند أيّ تقصير معرّضون

لِيُسَحِّقُوا تَحْتَ، تَحْتَ، هُمْ وَسَلَالَتُهُمْ، وَعُرِفُوا هُنَا وَهُنَا وَجَدَتْ،
وَأَيْنَمَا امْتَدَّتْ، وَتَلَا حَقٌّ وَتُجِنَتْ وَلَوْ كَانَتْ فِي بَرُوجٍ مُشِيدَةٍ.

فَإِنَّهُ خَرَجَ مِنْ مَدِينَةِ مَرَاكُشَ، مَقَرَّ شَرِكَتَهُ وَحَيْثُ سَكَنَاهُ، فِي
مَوْكَبٍ عَظِيمٍ، مَدِيدٍ، بِطُولِ شَارِعِ جِيلِيزَ، مَعْلُومٌ أَنَّهُ الْأَطْوَلُ فِي
الْمَدِينَةِ، تَمْشِي فِيهِ آلَاتُ ضَخْمَةٍ، وَشَاحِنَاتٌ لَمْ يُعْرِفْ لَهَا مِثِيلَ،
وَعَرَبَاتٌ تَجْرُهَا شَاحِنَاتٌ مَغْطَاةٌ بِالْكَامِلِ. وَقَفَ الْمَارَةُ اسْتَنْفَرَتْ
فَضُولَهُمْ احْتَشَدُوا عَلَى الرِّصِيفِينَ الْفَسِيحِينَ لَجِيلِيزَ، اسْتَهْوَاهُمْ
الْمَنْظَرُ وَالتَّبَرُّجُ عَلَى الرِّصِيفِ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ وَقْتٍ مَضَى، مَا هُمْ إِذَا
زَادُوا سَاعَةً لَهْوٍ، هُمْ مَنْ يَقْضُونَ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْعَامِ فِي الْهَرَجِ
وَالْمَرْجِ، لَا سِيَّمَا أَنَّهُ أَثَارَ دَهْشَتِهِمْ كَأَنَّهُمْ يَكْتَشِفُونَ الْمَوَاكِبَ لِلْمَرَّةِ
الْأُولَى، وَانْخَرَطُوا مِنْ لِحْظَتِهِمْ يَتَرَاهِنُونَ عَلَى مَا يَحْمِلُ بَدَاخِلَهُ،
وَأَيَّ وَجْهَةٍ يَقْصُدُ، وَأَيَّ عَرَسٍ بِهَذَا الْبَذْخِ، وَمَنْ عُرُوسَتُهُ الَّتِي
تَحْظَى بِكُلِّ هَذِهِ الْهَدَايَا، وَتَبَادَلُوا مُسْتَمْلِحَاتٍ وَنِكَاتًا بِذِيئَةٍ عَلَى
اللِّسَانِ وَتَحْتَ الْجِلْبَابِ كَيْ لَا يَخْدُشُوا، نَبِهُوا بَعْضُهُمْ، إِنَّهُمْ، قَالَ
وَاحِدٌ بِالْحَرْفِ، حَاشَاكُمْ، النِّسَاءُ، كَأَنَّمَا جَاءَ عَلَى ذِكْرِ نَجَاسَةٍ،
وَاسْتَدْرَكَ عَلَيْهِ الثَّانِي وَلَكِنَّهُمْ يَا صَاحِبِي وَرِيدَاتٍ خَارِجَاتٍ مِنْ
الْحِمَامِ مَصْقُولَاتٍ، لِيَزِيدَ ثَالِثٌ مِنْ فَهْلُوبِي الْمَدِينَةِ وَهُوَ يَدُورُ بَيْنَ
رَجْلَيْهِ نَصْفَ دَوْرَةٍ قَافِزاً كَأَيِّ بَهْلَوَانٍ، وَهَلَّا شَ مَا تَقُولُ يَا عَزَّنَا
بِيضَاتٍ مَسْلُوقَاتٍ.

أَمَّا النِّسَاءُ فَكُنَّ فِي وَادٍ آخَرَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْبِلَهَاءِ، زِيَادَةً عَنْ أَنَّهُنَّ
مَأْخُودَاتٍ بِالْمَوْكَبِ يَتَنَافَسْنَ فِي التَّفْسِيرِ يَضْرِبْنَ أَخْمَاساً فِي
أَسْدَاسٍ، ذَهَبْنَ إِلَى أَنَّ الشَّاحِنَاتِ الَّتِي تَمُرُّ الْآنَ مَغْطَاةٌ فِي شَارِعِ
جِيلِيزَ مُحْتَمَلَةٌ بِالْهَدَايَا مُقَدِّمَةٌ مِنْ أَعْيَانِ الْمَدِينَةِ لِلْحَاكِمِ الْعَامِ الَّذِي
كَمَا تَعْلَمُنَ شَرَّفَ مَدِينَةَ الْبَهْجَةِ، فَاخْتَارَ مِنْهَا حَلِيلَةً، وَمَنْ تَوَاضَعَهُ

طلب أسرة متواضعة تسكن في درب ضبابي عائلها إسكافي تقليدي، فنان في صنع نعال البلغة^(*)، وتقول امرأة صاحبة لأم العروس أن زوجها المعلم حَمَّان جاءه في المنام من أسرَّ له يا فلان قريباً جداً ستصبح صهر الحاكم العام، وكلَّ مَنْ في مراكش وحوزها سيحني لك هامته، السادة قبل العوام، فضحك من قوله واستغرق في نومه حتى فاته القيام لصلاة الفجر، ندم ندماً شديداً على ذلك، أقرَّ أنه الشيطان ألهاه بحلم غاوٍ عن الفريضة، فاستغفر ربَّه وتصدَّق برزق يومه طلباً للمغفرة. لكن يا خواتاتي تكررَ معه الحلم في الليلة الموالية، ففَعَلَ مثل سابقتها، وفي الثالثة وقد زاره الطيف في المنام، وبدأ يتزيَّن له في أشكال ويتقلب بأوضاع أستحي أن أصفها وهي على كلِّ حال لا تخفى على بالكن يا العفريتات، فكاد المسكين وهو في غيب نومه أن يهرِّق الماء لولا أن خرج الطيف من حلمه واستوى أمامه رجلاً في هيئة شيخ بجلباب أبيض ولحية رمادية وخلفه على ما ذكرَ صبيةٌ يحملون بين أيديهم لوح القرآن يتلون سورة الضحى: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى *﴾ ويتوقفون لا يكملون الآية ويعيدون: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، الشيخ معهم يتلو بحماس، ثم بخشوع، يشير إليهم أخيراً فيصمتون وهم يمسكون بأطراف جلبابه رافعين إليه أبصارهم معهم عينا الإسكافي أيضاً تعلقتا بالشيخ الذي اقترب منه يُكلِّمه ويعلِّمه أنَّ الرزق وقف ببابه، عليه من صُبحه أن يعكف على صنع بلغة: ضَعَّ فيها منتهى صنعتك،

(*) نعل مغربي.

وفائق مهارة زمنك، ما تعلّمته من سابقك، وتظن أحداً لم يأت به قبلك، وحين تنتهي منها أرسل ابنتك عتيقة لا غيرها، لا تسليني كيف عرفت اسمها، إلى نائب الحاكم في مقره في دار السي سعيد، أرشدها إلى رياض الزيتون، وهو سيحملها هدية إلى الحاكم العام في العاصمة، ولا تقلق على فلذة كبذك ملائكة الرحمن تحرسها، ولا تخف من النائب أن يستولي على صنعتك، سيتكلّف مَنْ يبلغ سيده بقرب وصول هديتك إليه، ويفعل الله بعد ذلك أمراً كان مقدوراً.

وكذلك كان، في أقل من أسبوع أنجز الصانع سي حمان المطلوب، تقول زوجته للآ نفيسة بأنها لم تكن ترى منه المسكين إلا الكسدة، أمّا روحه فتحسّ بها غائبة في المجهول حتى لم يبقَ بخور لم تبخّر به الدار لتطرد الجن والعفاريت، وزادها هلعاً وحيرة امتناعه عن الطعام والشراب، رأسه لا يرفعها عن الجلد والخيط، خيوط مذهبة صنّعتها له بهذه الأصابع، صبّغتها بذهب مذوّب لدملج بعته في الصّاعة، هو كلّ ما أملك، وعدني سيردّ لي عشرة، سترين يا نفيسي، وفي اليوم السابع أكمل صنعه جاءت الغاية في الغاية، سبحان صانع الأكوان، أكملت لي للآ نفيسة تقول جارتها إنّ الحاكم العام كان يترقب وصول الهدية كفأل حسن، ظلّ يسأل عنها في كلّ حين، إلى أن انتعل البلغة أحسّ بها، يقول أفراد من حاشيته، خفيفة كالهواء، ناعمة الملمس كالحرير، لم يروه من قبل على شكل يبدو فيه أنه يطير أو يوشك أن يطير، وأشدّ ما وسوسهم انشراحه هو ذو السحنة الجهمة، يتسم لهذا ويضحك مع تلك، فإنّ نزع البلغة ليتوضّأ أو لشأن آخر غاضّ حبورّه وعاد إليه عبوسه، وويل لمن جاء في طريقه، فشكّوا أنه سحر، ثم ما لبثوا أن أيقنوا

جازمين أنه سحرٌ مُبين لما صار يهذي أمامهم أريدُها، ويُريهم صورتها، أي ما يتخيله مرسوماً على البلغة، لا سواها، أتوني بها في الهند أو السند كانت، وهكذا أرسل إلى أبيها يخطبها، وكما ترون هذا موكب هدايا عتيقة تبرّع به أعيان وصنایعية مراکش غاد إلى العاصمة، صدق الحلم، سبحان الله العاطي.

روعي في هذا ما ينبغي لأيّ موكب أن تتقدّمه أولاً الفرقُ الفولكلورية المحلية، أشهرها فرقة «الدقة المراكشية» يتحرك رجالها يُمنّةً وُسرةً، أكتافهم تتمايل، يتناوبون ضرباً على البندير ونقرأ للطعربجة، منشدين أهازيج ومعارضات وتغليات مستوحاة من عوالم الحرف التقليدية ومُستملحات من كلام ودُعابات العامة؛ لازمات تُستعاد بأصواتٍ تكرر، لتتصاعد كالشخير، ثم كبدايات ونهايات فقهية، وتصعد أخيراً في عصف الأيدي التي تتضامن كلها في حالة دقة واحدة، بإيقاع متناسق، ومصفق، صافق، ومُدوّ، إلى أن ينقطع وحدّه في نهاية نوبة تنحني معها الأجساد التي ذابت وقتاً في الدقة، وتحولت كاملةً إلى صوتٍ ذي فرقةٍ متتالية، وخلافاً للباساط الذي يترنح فوقه «معلمين» الدقة المراكشية، وقد تجمعوا حلقاتٍ في بستان بظاهر المدينة، حيث النخيلُ والماء من أجل ما يسمى عندهم طقس «النزاهة»، تصحيفاً لكلمة النزاهة.

خلافًا لما تجري به العادة، انقلب شارع جيليز كله بساطاً، إذ اقتحم الجمهورُ أطرافَ الموكب ورافقه، أولاً، من حواشيه، ثم منخرطين فيه فرادى وجماعاتٍ قد اندمجوا في نوبات الدقة ذائبين، مصفقين، سواء يرتدون جلابيب تقليدية أو لباساً إفرنجياً. النساء في دُورهن ما قصّرن، جئن يحملن أعلاماً خضراء وقصباتٍ تعلوها باقاتُ النعناع وتندلّي منها أشرطةٌ حمراء وصفراء وخضراء، كما

يفعلن وهم يُخضن الطريق، ذاهبات في خشوع وتبتل واستسلام
لزيارة وليّ صالح. وعند أحد مخارج مراكش، من جهة باب
الخميس، اصطفت فقهاء جامعة مولاي يوسف، وشيوخ مسجد
الكتيبة، وطلبة أضرحة «سبعة رجال»، قد دفعوا أمامهم صبية
يحملون ألواحاً مسطورة، متعرشة بباقات من الذكر الحكيم،
جميعهم، وقد بلغ صوبهم الموكب لمباركي العامر، رفعوا
عقيرتهم، كأنما نفذ إلى نفوسهم أمرٌ من السماء، بالدعاء للمعلم
لمباركي بالتوفيق وبلوغ غاية المرام، وتحقيق النصر المؤزر الذي
سينصر مولاه وهو مولاهم على الظالمين، ويرفع به راية الإسلام
والمسلمين.

منهم مَنْ ظنَّ أنَّ هذا الموكب قاصد مرة أخرى طريق الصحراء
كما حدث سنة 1975 عندما دعا ملك بلاد المغرب الحسن الثاني
رعاياه الأوفياء، وعبّأهم في خطة أسبغ عليها اسم: «المسيرة
الخضراء»، سار فيها بحسب تقديرات ما كان يسمى ذلك الزمان
«أم الوزرات» (المكلّفة بتقييد السكان، بدءاً من سجلات الحالة
المدينة، إلى سجلات مختلف أنواع وسُبل الرحيل إلى العلي
القدير) 350 ألف مرعي، والهدف استرداد إقليميّ الساقية الحمراء
ووادي الذهب الموجودين في الجنوب الصحراوي من حكم
الاحتلال الإسباني. وقد فرح المعلم لمباركي أيّما فرح لما أشعر
بهذا الظن، فقرّر أن يزيد من جرایة الطلبة المساكين، واستحضر في
الحين كيف كان من بين كبار مُموّني حملة المسيرة، جلبت له ريعاً
كبيراً من الحاكمية العامة، رغم ادّعائه بأنه إنما ضحّى من أجل
الوطن والمواطنين، وفرغت خزينته، وبسببها هو اليوم من كبار
المديونين. رغم هذا وذاك، وما لا يجوز أن يستعيده في الخاطر

والبال، مخافة أن يقرأه حاسد أو مترصد بالمرصاد، وبعد أن امتلأت البلاد بشركات وحوانيت التمويل للمآدب، الأعراس والمآتم سواء بسواء، تترحل في البلاد طولاً وعرضاً، هو من فتح لها الطريق، وبلغت ذرى الجبال بعد أن اكتسحت السهول، حتى أمكنها أن تغطي على مناظر جحافل الجياع والملتولين، ولا تحسب حساب عشرات آلاف العاطلين، هم أغلب الظن من التنازل، الخاملين، وإلا لصاروا بدورهم من رهط المومنين. هي الحاكمة، إذن، وقد اختبرت قدرته، وعرفت قدره، تلجأ إليه اليوم مرة أخرى، لأمر لا شك جَلَل، يتعدى -خمن بتفكير- رصف الطرقات وترميم البنايات وغيره مما طُلب منه علناً، وقرأه مستجلاً وعليه أن يجيب عنه شكلاً فقط في ما يسمى دفتر التحملات، وجد طيّ الطلب ورقة صغيرة مطوية كُتب عليها بالصمغ وبحروف دقيقة بخط الكتاب القرآني: «لا تحسب معنا أيّ حساب، ولا تهتمّ بمن في الخارج، الصيد خلف الباب، والرعية تحتاج إلى من يليها، وأنت مكلف منا الآن بألهمية الجواب. نفّذ ما نطلب منك، تظاهّر بين الذهاب والإياب، سنصلك بعد هذا كالعادة، ونسبغ عليك رضانا، ومن المولى تنال أعظم الثواب».

كاد يستسلم لترضية ودغدة هذا الكلام، لولا أن رأى أعداداً وأنواع القوات تُحيط بالموكب، توظره ميمنة وميسرة، ومن المقدمة والساقة، لا ينقص إلا القلب الذي يكون فيه السلطان، عادة، كما في الكتب وقواعد الحروب. تلقّت حوله بحذر قبل أن يقول لنفسه إنه موجود فيه، رأى هذا فقلق بعض الشيء، ثم اصّاعد قلقه، ونفرت عروقه، وجحظت عيناه، وسمع صفيراً يصدر من أذنيه، ومثل ريح صرصر تهب من كلّ اتجاه، ولا ريح في شارع جيليز،

والأشجار تتطاير منها الأغصان، والمراكشيون يرتفعون منتفخين داخل جلايبهم وقفاطينهم في السماء، تتعدّد أحجامهم، وتبدّل سحناتهم مختلطةً بتلوّن طواقيهم المزوّقة في شقليات بهلوانية لا يُجيدا غيرهم على وجه البسيطة الموغرابية وربما أبعد منها، فبقي لا يذكر كم مرّ عليه، عيناه مخطوفتان، ولبّه مسلوب. ثم ساورته ظنونٌ لعنَ معها الشيطانَ، والوسواسَ الختّاس، وبعد «باب الخميس»، وَهَنَ التصفيقُ، وخفتت ثم توقفت الدقّة، وخُتم ترتيلُ الفقهاء، وعاد المراكشيون إلى تفلّياتهم، بينما أخذ الموكب طريقه إلى بلدة نون، وهم لا يعلمون، والأصحّ أنه لا يعنيه في شيء علموا أو لم يعلموا، هم في نمط عيشهم سادرون.

- 3 -

بين الواقفين أمام الأبواب، ممّن استنفرتهم الجلبة المبكرة، غير المعتادة، في البلدة الساكنة، برز كَبُور، بالأحرى انكفاً متوجساً، يتراجع إلى الخلف، بينا عيناه إلى الطريق، طريق تموج أمامه بحركة انتفضت من مطلع النهار، من أين؟ ولِمَه؟ هو، والواقفين مثله، وحوله، لا يفهمون من أمر الحركة الطارئة شيئاً. في يوم شبيه بهذا، الثلاثاء، وفصل الشتاء يلقي بُدْف ثلجه الأخيرة على المرتفعات، معها أنفاسٌ أولى للربيع لا تزال تنسّم محتشمة، معها تينُع في تلوّن وتفتح أولى زنابق تنزلق من منخفض التلال إلى السفوح. كيف لكَبُور بين خلق الله وسكان بلده الغُفل أن يتوقع أنه سيصبح في قلب حدث خطير، أن يحدث له شيء بحجم ما حدث في حياته الصغيرة، أبداً، أن يجد نفسه في قلب بطولة، ومَن هو؟

ليس إلا نَسَاجاً في قرية بزو، مخبوءة في أكناف وبين مرتفعات جبال الأطلس، تحديداً من قبيلة (آيت واغن) بنواحي أزيلال، تشتهر بصُنع جلاباب رفيع يُنسجُ من أجود الصوف. في تلك السنة المشؤومة خطر له بعد أن قدر جودة منتوجه أن ينقل بضاعته إلى قرية مولاي بوعزة بمناسبة الموسم السنوي للولي الصالح، ولم لا، هي حَجة وزيارة، سيذهب للتبرّك بضريح أبي يعزي، ويصل الرحم مع فرد من أبناء عمومته الأقربين، يُقيم بالمنطقة. العمر ذاهب يا كبور. وإذ حمل بضاعته، ركب الحافلة، أقلته من بزو، ومنها إلى فم الجمعة، ثم أزيلال، هنا غيّر المركوب نحو مدينة وادي زم التي تقع قرية مولاي بوعزة على بعد 67 كلم منها فقط.

مما حدث رسبت في بئر ذاكرته نُتِفَتْ لَمَّا تزل طافية فوق ماء عمره الراكد، عالقة بها علوق قسوة التعذيب الذي لاقاه على جسده، وجراءه، كاد يطمّسها. مثل سحابة كلّما أمسكت بها قبضة العين فلتت أو تبدّدت تمرق الذكرى، في غدو ورواح، بين ما مضى من عمره، وما لا يصدّق أنه باقٍ فيه ومنه. هو في السوق جالس أمام بضاعته ساوم ليسمحوا له بحظّة ينزلها فيه. أول ما بدأ يفاوض لبيع جلاباب، ليستفتح كما يقول التجار وقد قال بسم الله، سُمِعَ طلقٌ غامض، هنا يسمون صوت الانفجار بومبا، كما سمعوا العسكر الفرنسي الذي كان هنا في السابق ينطقها، كانوا يطاردون المقاومين من رجال الأطلس الأشاوس في الجبال ويقذفونهم باليوميات، فإذا تمزّق منهم واحد ظهر لهم عشرات، يخرجون لهم كالعفاريات من بين الأشجار وأفواه المغارات، فيقتلون مَنْ كانوا يسمونهم «العديان، النصاري الكفار». لا، هذه ماشي بومبا، هذا قرطاس، والقرطاس يعرفه أهالي هذه المنطقة من الطلقات التي

كان النصارى، من غير العسكر، يطلقونها حين يصعدون إلى الجبل ويتوغلون في الغابة في موسم صيد الخنزير البري، يعودون به فرحين، يقيمون به ولائم ويتفاسمون بينهم، وحدهم، كغنيمة حرب، أما نحن المسلمين فحرام علينا أن نقرب ما حَرَّمَ الله، الحُلُوف هم وما يأكلون ويشربون، كان جنودهم أحياناً لما يسكرون يهجمون على خيامنا فيغتصبون نساءنا وبناتنا، وكم قُتِلَ منهم شبابنا دفاعاً عن عرضهم وهربوا إلى الجبال، كنت مرة مع فرقة حملت إليهم الزاد ووجدنا عندهم بنادق حقيقية غنموها من الأعداء، أمسك شاب بندقية وضغط على الزناد مفتخراً فسمعنا دويّاً تردّد صدهاء في فضاء الجبل وكاد يفضحنا .

هي طلقة رصاص كهاته التي سمع الآن في السوق، أو قريباً منه بلا تحديد . وإذن ليس بارود المكحلة التقليدية، فلا موسم زواج ولا لولي صالح كي تنتظم حركة الخيل وتنطلق سربة سربة، يمتطي صهوة كلّ فرس فارس، على رأسه الشدّ وقد تمنطق بالكُمّية، ما أن يسمع نفير الشيخ: «والمكاحل، آالخيل!» إلا ويضغط على الزناد، رفع المكحلة صوب العنان يدوي إثرها البارود في الأرجاء، ويشور خلف الخيل نَفْعُ غبارٍ، وصدى تكبير وزغاريد . .

هي طلقات رصاص لا واحدة، تشتّت شمل الحاضرين في السوق إثرها، تجاراً ومشتريين . رآهم وهو فيهم يهرولون بهلع وفوضى في كلّ ناحية ولا أي اتجاه، تصطدم الرؤوس والقامات بالخيام، تسقط على الأوتاد، وتقع على الدواب وبين حوافرها، الأصوات تستغيث وتحذّر وتلّول، الحمير تنهق، أما الكلاب يا له من نباح . يهرول ولا يكفّ ينلفت إلى الوراء، بقيت خلفه جلابيبه

الثمينة، جهدَ شهور من كدح نسوة الجبل في النسيج، فضلاً عن جمع قطع الصوف وتمشيطه وفرز الخيوط في المرقّات التي توضع في جدار الدّراز، لتشرع الأصابع في النسيج والحبك على منوال فريد، وبصْنع مُحكّم بلا نظير، مخصوص بمنطقته، يعبرُ الممرات الخطرة على بغليه، مرة راكباً، مرة ماشياً، مرة مسلوباً، أو حتى مفتتناً بامرأة كالجنية تسلب لبّه، وتسُلُّ من بضاعته أجودَ ما فيها، وقبل أن يرتدّ إليه طرفه، أو يستردّ قلبه بعد قابض سويعة أو أقل، تكون قد اختفت وتركت مفعماً بروائح الخزامي والقرنفل وأعشاب أخرى تقيم طويلاً في ثيابه وفي شغافه أيضاً. هل يعقل، ذهب هذا الجهد كلّ هباء، وبطلقات طائشة مجهولة هكذا في الهواء؟!!

في خضم الجلبة الطارئة، الغامضة، هانَ عليه ما فقد مقارنةً بطريق العودة إلى ابن عمه، تاه عنها. تخبّط بين الأرجل، ولم يجد سبيلاً للعبور إلى الزقاق الوحيد الذي يقوده إلى العنوان، المنافذ إليه يغلقها الجنود، متى حضر هؤلاء، لا أحد يعلم، إنهم طوّقوا السوق والسلام. كان قد استيقظ في الليلة الفائتة عند ابن العم، من يؤويه كلّما حضر إلى السوق، على دويّ انفجار حسباه يأتي من بعيد، هناك في الغابات الجبلية بضاحية المنطقة.

يذكرها ليلة 3 مارس، تلك، تاريخُها يوافق غده يومَ مناسبة وطنية كبرى، ومدخل البلدة كان مزيّناً بأقواس النخيل والرايات، والسوق جاء مناسباً جداً للبيع والاحتفال، أمسكت به دورية يرتدي رجالها جلابيبَ خشنة، بُنية داكنة. طرحوه مباشرة أرضاً وبدأ الرّفس، فصرخ أخويا، فزادوا يرفسون. سمع رئيس الدورية يؤكّد يحثّهم على المزيد: خذوا الكلب، راه من جماعة آيت خويا! حشروه ككيس خيش مع جماعة قرويين داخل غرفة، قضوا بها

يوميّن في ظلام دامس، إلى أن تمكّنوا بالحيلة من الهرب ليلاً، استغلّوا الفرصة لما غاب حراسُهم كي يطاردوا، كما علم في ما بعد، مجرمين خطيرين، حسبما أخبره ابن عمه، أنهم جاؤوا متسلّلين من الدزاير، لا شك فقدوا صوابهم، غرضهم، كما حاولوا إقناع بعض السكان، الثورة على المحكومية، وما هي الثورة؟! ما معناها في هذه الدواوير والمداشر الخربة والفقيرة؟! وماذا يوجد هنا؟ قيادة إدارية بها بعضُ العسس، وبنادقٌ قديمة، في الشتاء البرد يهري العظام، وفي الصيف الذباب يسرح في وجوه الأطفال ويتغذى من عمش عيونهم.

أنزله ابن عمه إلى عمق مطمورة اختبأ فيها بعد أن خلع العسس الباب بحثاً عنه. لا شك أنّ المتمردين رؤوسهم مثقوبة كأيّ غربال، وإلا لفهموا أنّ الحاكم والمحكومية هنا قوة مطلقة كالله، موجودة في كلّ مكان، ولا يمكن أن تمسك بها أيضاً في أي وقت ولا مكان، كلّ مَنْ هو حي أو يمشي أو في فراشه يحسّ أنّ المحكومية ترافقه، الرضيع في بطن أمه، النملة وهي تدبّ، الطير وعلى أي ارتفاع يحلق، بأمرها ياتمر وحمدّها يغرد، وفي أيّ خلاف ينشب بين هذا وذاك، قبيلة وأخرى لا تسمع إلّا نمشيو عندها، والكلمة كلمتها؛ لذا هو موقنٌ أنّ هؤلاء المتسلّلين من الدزاير، بلاد الواسطيين، مكانهم الطبيعي هو زاوية بويّا عمر، مشهورة، يُحمل إليها مَنْ طار لهم الفرخ، يُنقل إليها كثير من أهل بلاد الموغريب مَنْ فقدوا الأمل في التفاهم معه، فيحملونه إلى هذه الزاوية، يرون عندئذ أنها أفضل إقامة لقريبهم، وخلاص لهم، يذهبون ويتركون حمقاهم تُقيّد أيديهم من الرّسغ وأرجلهم من الكاحل إلى أوتاد، ثم يتركون يغوصون في بولهم وتغوّطهم، لعلهم يفظنون!

قضى في قاع المظمورة أياماً، ولم ينجُ إلا بعد أن أخرجه ابن عمه بحيلة بسيطة انطلت على الحراس، وإلا لبقى جسمه يهترئ في انتظار الحساب الذي توّعه به القايد، ها هو الآن عاجز من صدمة ما مرّ به أن يميّز العيان من الحلم، من هوله يستحلي أن يكون حليماً. لما دخل عليهم القايد وأخرج من سلة بيده جرذاناً معلقة من آذانها، وهذد الموقوفين، هو بينهم، إمّا أن تقرّوا بمن أرسلكم وسلّحكم وإمّا، وهو يشير إلى القضيب جاحظة منه عيون الجرذان، متحفزة، لا شك هي معتقلة مثلهم، ومجوعة، ومتأهبة للانقضاض على أول وليمة، أمسك بذراعه يتحسّسها، بقليل اللحم الرطب يحفّ بالعظم، ضمرت بعد أيام جوع في هذا المعزل. إمّا ما سينالكم إن بقي منكم واحد سالماً، يتوعد، يُشير من جديد إلى القضيب، فسُصلب وتأتي الطير لتأكل من رأسه، ورأسه أيضاً، لن يكون حليماً أبداً عندئذ. أخرجه ابن العم من المظمورة محمولاً، حين رشا حارساً ليسمح بزيارته، وجعله يتماوت، فنقله إلى الخارج وسار به في جنازة ملفقة، ادّعى أنه قريب زاره ومات في بيته، وتدبّر مشيعين رافقوه إلى المقبرة، واصطنعوا دفنه. من هنا لاذّ بالفرار، لم يعد إلى قريته في بزو فيقبض عليه، وقصد هذه البلدة، نونة، نون، وصلها للتو بعد أن ترددت في المنطقة أصداء حوادث تمرّد مولاى بوعزة الفاشلة وثوارها المغامرين، بها استوطن وتزوج وغير سحتته ومهنته.

عادت إلى كبور صور أحداث انصرمت عليها الآن أعوام. كم تلاعباً معاً وهو يحاول أن يمسحها من ذاكرته، وبسببها بات يتجنّب أيّ جمّع يمكن أن يتعرف فيه عليه قريب أو بعيد. انقطع كلياً عن أقاربه، بلغه أنّ كثيرين منهم نُقلوا إلى معتقلات مجهولة بعد

الأحداث، اتَّهموا بالثورة على سلطة المحكومية وهم فلاحون فقراء أو رعاة لا أكثر. منهم مَنْ تشوَّهت خلقته، من اختلَّ في عقله، وأقلَّهم قضى أشهراً بين سجون وتنكيل. ماذا جرى لابن عمه بعد أن نجح في تهريبه؟ لم يتعرَّف عليه حارس المظمورة في البداية لأنه جاء إليها متنكراً، ثم وشى به جارٌ وثَّق به، والحقيقة أرادَ أن يُبعده عن التحرَّش بزوجته التي انجذبت إليه، فداهم القايد بيته ونكَّل به أَعوانُه أمام الأهل والجيران وجاؤوا ببغلة تجرُّه مسحولاً إلى مركز القيادة، عبرت أزقة البلدة لينظر السكان أيَّ مصير ينتظرهم ويجعل منه عبرة إنْ هُم فَعَلُوا. بعدها نُقِلَ إلى معتقل سرِّي بمدينة مكناس، قيل، والله أعلم، في حي اسمه لهديم خلف الأسوار. وبأيِّ تهمة؟ هكذا سأله من التقى بهم من سجناء، وازعهم السخرية والتضاحك، لا أكثر، اعتادوا على ذلك كلِّ ما أُلقي في الحبِّ بقادم جديد، فلم تكن هناك حاجة لأيِّ سبب أو تبرير، ما أحسَّ به يضايق المحبوسين السابقين هو زيادة واحد جديد سيزاحمهم في المساحة التي يختنقون فيها، والفئات الذي يصيبون بعد يوم كامل من جوع وانتظار مذلّ.

اتهموه أنه ينتمي إلى جماعة أجلموس التي خطَّطت وحرَّكت لانتفاضة خنيفرة. روت عنه زوجته أنه، بعد أن سجلوه شريكاً مع أخطر أعضائها، انقطع عن الطعام وصارَ يقضي جُلَّ وقته يردِّد ويُعيد أسماء فرضوا عليه أن يعترف برفقته لها. حين كان صمته يطول أو يُمعن في الإنكار، ينتصب بينهم من يقوم بحركات فاحشة وهو ينطق اسمي، سنفعِل ذلك الشيء أمام عينيك إنْ لم تسمِّهم واحداً، واحداً، يضيفون إليَّ اسم أمه، يفرعونه كذباً أنهم أحضروها من دَوَّارها الحقيير بعد أن أشعلوا النار فيه وأتلفوا

المحصول، هل تريد أن نقول المزيد، ثم يعيدون الكلمات الفاحشة، فيخفض عينيه منكسراً، يتحاشى أن تلتقي به عيناى، بينما واحد مثن يهذّونه بما تسمعون همّ بي، يقبض من الخلف على ضفیرتي، ويهزّني هزّاً، وهو يتوعّده: إيوا، تهدر ولا، تهدر ولا.. حين أيقن أنّ الوحش الذي أمامه سينفذ وعيده فعلاً، ولسانه لا يتوقف عن فحشٍ لم نسمع به من قبل، خرج زوجي أخيراً عن صمته وأخذ يعدّد وهو يكلم معذبيه بالأمازيغية، فينهرونه: «اهدر لدين أمك بالعربية»، فيعيد، نعم هم: آيت لحسن، نعم، بوسعكوك محمد، نعم أسيدي، موحا نايت بري، نعم أسيدي، وفريكس، حتى هوا! ولم يتركوه إلّا بعد أن أغمي عليه وقبلها سمعتُ اسمي، نعم، حتى هي معنا، حتى هي..

... وإذ لمح شخصاً بجلباب بُنيٍّ مخطّط خشن، يخزر ناحيته، تخيل الطوق الذي هرب منه سيُحكّم عليه، أنه سيقع، وقع في قبضة مطارديه، خطوات، دقائق وها هو في قبضتهم. يداه إلى قدميه مُحكَمَتا القبض بحبل من مَسَد. سيطوفون به بين الأزقة والأسواق، كذلك كان حكام فاس يفعلون عندما يوقعون بالمجرمين، قبل أن يرموا بهم إلى الهلاك. سيضعونه في قفص مثل فرد ويتركون العوام يرمونه بالأزبال والفضلات. ربما ينتظره مصير الروكي بوحمارة، تمثّلت له الصورة التي سمع عنها عن أكثر من جهة ومصدر، وفي كلّ مرة استبشعها ووجد فيها طريقة لا مثيل لها في التنكيل والإذلال: الروكي الجبلاي الزرهوني، من تمرّد على السلطان العلوي مولاي عبد العزيز، وأشعل الفتن ضدّ حكمه في شرق المملكة وشمالها واستمال قبائل جبال الريف والمغرب

الشرقي، وتحالف مع الإسبان والفرنسيين في آن، بادلوه السلاح بالمصالح العسكرية والتجارية؛ الجيلالي الزرهوني الملقب بوحماره الذي يلحق الهزائم والعار بالجيش الرسمي، ويؤلب الأعيان والرعايا على السلطان الشرعي ينتزع الحكم الفعلي مزاحماً بالقوة والحيلة والدهاء، بعد هذا كله، وقد ظنّ الأمر سيستتب له في فاس، وسيطرد منها السلطان عبد الحفيظ بعد أن أوغل الصدور قبله على أخيه عبد العزيز لم ير فيه أهلاً للحكم لصغر سنه وطيشه؛ ها هو الفتان الروكي بعد صولات وجولات يقع شرّ وقعة في قبضة عبد الحفيظ الذي أعدمه بالرصاص يوم الخميس 9 سبتمبر من سنة 1909 الموافق 23 من شهر شعبان 1327، بعد أن عرضه على الملأ طيلة أيام داخل قفص مشى به حاملوه في أزقة فاس وحواريها. . لا، لم ولا تفارقه هذه الصورة البشعة، لأمر ما أحسّ بميل إلى بوحماره المتمرد، الخارج عن طاعة السلطان، ولكن شتان ما بينهما، شتان. . . رأى رجل الجلباب مقبلاً جهة موقفه، خلف ظهره كلاتته، حذاؤه من مطاط بحزام من خيوط. قال له الشخص الذي أصبح ضعفه، انتبه، هذا مخزني من القيادة، وها هو على خطوتين منك، سيصل ويُلقي عليك القبض لا محالة، ها هم أخيراً يعثرون عليّ، ما نسوني قط، لا مزاح مع المحكومية، وقتها وصبره طويل، هذا ما سمعه يوماً من مقدم الحي وكأنه يعنيه هو بالذات من غير أن يعنيه بتاتاً، وإنما ليُفهم السامعين حوله أنهم جميعاً، اليوم وغداً تحت رحمته. وإذن، أنجُ بنفسك قبل. .

وتبدّد ضباب الوسواس، مؤقتاً، ليستعيد وجوده الحي في بلدة نون، أو نونة، لم يتأكد من الاسم، سمعه يُنطق على صوتين،

نبرتين، وبلغتين، العربية والأمازيغية هنا تتعايشان. أخضعه المقدم، أول المكلفين بمن يطرق حياً من الأحياء، وأعوأه الذين يرفعون تقاريرهم إلى الخليفة، ومنه إلى القائد، للمراقبة طويلاً أول ما بلغهم علم بوصول غريب، ثم استدعاه للتحقيق، جلبه من حيث أصبح يقيم مخزني حارس باللباس البني الغامق، الخشن، سار أمامه وبقي المكلف خلفه في وضعٍ مَنْ يقود متهماً لينفذ فيه حكماً. سار أمامه مننّس الرأس، ليخفي وجهه ما استطاع عن فضوليين يتصفّحون في الطريق وجه العابرين فكيف به. زيادة على غربته، أيقن أنه سيصبح مشكوكاً فيه، لا تُستحبّ معاشرته، وعين السلطة باتت عليه.

أفرد القائد أمامه سجلاً بحجم الطاولة التي وضعه عليها تقريباً، ونادى على ناسخ، وسأل الوافد هل تحبّ أن تتكلم دفعة واحدة، أم على دفعتين، أم يتكلم شخص مكانك، وفي النهاية سواء تكلمت أم أصيبت بالخرس ستوقّع على هذا المحضر، يشير إلى السّجل المفتوح، فأحنى المخاطب رأسه على صدره، هي علامة الموافقة، هكذا فهمها القائد الذي احتفظ في السجل بملخص ما سمع، بينما أرسل المحضر الكامل إلى رؤسائه في مقرّهم بالعاصمة. لمّا سجل أقواله كاملة وبصم عليها بأصابعه العشر، أقسم على المصحف لم يكذب، أخبره أنه حرّ في البقاء بهذه البلدة الوادعة، وأن العيون ستبقى عليه، وهو يغمز بإحدى عينيه.

وبالمجمل ادّعى أنه قادمٌ إليهم من قرية لقليلة الواقعة بعيداً، شمالاً، أعلى حاضرة فاس، في قبيلة بني زروال، شمال بلدة غفساي. وزعم مُعوّلاً على شُقرة بشرته الخفيفة لتساعده أنه من

شرفائها، هم مشهورون ومُقدّرون بين قبائل جباله باعتبارهم من أسباط الرسول، ممّا خفف من شكوك المقدم، ويسّر قبوله لدى السكان، حتى إنّ بينهم مَنْ أخذوا يلتصقون منه البركات، وينادونه بلقب مولاي، وسيدي الشريف، وولد الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام. ولَمّا كان قد مرّ بالمسيد، ويحفظ قصار السُّور وسبق أن تدرّب على تخطيط بعض التعازيم، كان قد لقنها على يد أحد فقهاء زاوية أحنصال، أرسله إليها والدّه ليطلب العلم، كما قال، ولما ادّعى أنه يحمل القرآن في صدره، ويستطيع أن يكمل السَّلَكة، التي هي قراءة ستين حزباً تبدأ من صلاة العصر حتى طلوع الفجر، صار يشارك الطلبة في تلاوة القرآن في مناسبات الأعراس ودفن الموتى، وأرسل لحيته، فبرز بسمت الوقار، وأخذت النساء تُقبل عليه ليكتب لهنّ حروزاً لأغراض شتى، خاصة للإنجاب وجلب السعد مع بُعولهنّ، وأن لا تسرقهم غجريات موشومات يسكنن مغارات في الجبل القريب، ويُسَمَّع لهن في عمق الليل أهازيج تسحر الأزواج فيغادرون، على ما هو شائع في البلدة، مضاجعهم، يُرون وهم يمشون مُسرّنين، تجذبهم قوة خفية، ويختفون أحياناً أياماً بلياليها فإنّ عادوا فكالأشباح، خارت قواهم، وفترت همّتهم، وهذا أصعب ما أصاب نساءهم، يلبسن ثياب الحداد كالأرامل، ويقعدن بينهنّ منتحبات، يلطمن الخدود، بعد أن يتسارّزن بهول ما فقدن، بعد أن كان رجالهم سادة الرجال، ولما عصرتهم الشیخات صاروا خرقاً ومِرْقاً بالية!

وجد هذا الحال هبةً نزلت عليه من السماء لئیسر أمره. هكذا تسرّ في إهاب الفقيه ولا يزال. كم تظاهر بالزهد والعفة، وحيثما يمشي يُهمهم زعماً بأحاديث صحيحة ومنحولة، وأقوال يؤلفها من

وحي مَنْ وما يلقاه في سبيله يبدو كالتائه وإنما لِيَتَّيَه عن فِطْنة مَنْ يحدسهم يقتفون أثره. من ذلك إكثاره التنبيه إلى أن لا مهرب لبني آدم من الموت، والتفكير فيه أبداً علامة التقوى، فكان يستوقف المارة ويخاطب أحدهم: «قال ابن عبد ربه لمكحول: أتحب الجنة؟ قال: وَمَنْ لا يحب الجنة؟! قال: فأحبّ الموت، فإنك لن ترى الجنة حتى تموت». يُسَمَّع وهو يكثر من مثل هذه الأقوال ليُذهَب عنه أيّ شك مُريب، وصار في الطرقات يردد: «أكثرُوا ذكر هادم اللذات»؛ و: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وهو فعلاً غريب ولكن بمعنى غير الذي جاء في الحديث، يتخفّى داخل عباءة هذا الكلام، لذا يردّد ويكرّر ويطيل: غريب، عابر سبيل أنا؛ غريب، أنا عابر سبيل، بينما نظره إلى الحارس المخزني لا يريم، الكلاطة تهتز فوق كتفه، ويخالها مُصَوَّبَةً إلى صدره قد أصبح بينهما مقدار خطوات، وخطوة أخيرة توقّف بعدها القادم ليطلب من الواقفين أمام بيوتهم البقاء فيها بعض الوقت ريثما يتمّ طرح الزفت-القار على الطريق، ليغطي هذا التراب الذي تمشون عليه منذ سنوات، ويشير زواجع الغبار، خاصة في مطلع الصيف حين تهب ريح الشرقي والعياذ بالله، وربما يأخذ هذا العمل اليوم بطوله، والحمد لله فإنّ أصحاب الكلمة في العاصمة، لبّوا لسيدنا القايد طلبه، وهو يسعى كما ترون وتعرفون ليلَ نهار لخدمتكم، فاستبشر الواقفون خيراً وطلبوا منه أن يبلغ سيادة القايد شكرهم، ومنهم إلى أصحاب الكلمة، هناك، آياتٍ ولاتهم.

لم يكن كبور لبزيوي مقتنعاً بهذه الأقوال، أو يحفل بها، فهو شَمّ في الجوّ خدعة ما فزاد قلقه وقرّر بغتة أن يختفي من مسكنه

المؤقت، بل ألح عليه وسواس أن يغادر المنطقة كلها، توّجّس شراً وسكنه جنٌّ، يجره من أذنيه، وينتف شعر لحيته، بأن حيلة تُدبّر ليسهل الإيقاع به، وإلا لِمَ يظهر مخزني ثانٍ، وثالث، جماعةٌ نبئت في كلّ زاوية من الطريق، يطلّون برؤوسهم ويختفون كالشياطين، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وهذا في واضحة النهار، فماذا حين يرخي الليل سدوله، كيف سيّراهم وهم يرصدونه ويتعقبون خطاه، ولا أعمدة كهربائية في هذه البلدة، أمّا خارجها فإنّ لم تجد بضوئها النجوم والليالي المقمرة بهميم.

يزيد الشيطان لعقله تشويشاً ويرتع في صدره وسواساً إضافياً يمسح عن عينيه النوم وهو يتقلّب في فراشه إلى صلاة الفجر لا تفوته مع الجماعة يداري بها صورته وزيف ما حمله إليها: هل إصلاحُ طريق يحتاج إلى كلّ هذه القوة العمومية؟! كلا، لم ينسوا هروبه، وأغلب الظنّ أنهم ألّقوا القبض على ابن عمّه الذي لم يتأخر في الاعتراف بأنّ الجنازة التي خرجت من بيته خدعة، واللحد الذي شُيّع بداخله هو، ومَن سار في الجنازة اكتراهم بدراهم، كم سهل أن تكتريّ البشرَ العاقل، ليشهد بالزور، ليهتف على طول الشوارع التي يمرّ منها موكب الأمير الحاكمي، ليعطي صوته لفائدة هذا أو ذلك، لاختيار مجلس الجماعة في القرية أو المجلس البلدي في المدينة، سواء بالترغيب أو التهيب، أما البرلمان الذي سمع أنه يوجد في بلدان الشمال الأوروبية الكافرة، فهو لا يفكر فيه، لأنه سمع مرة خطيب الجمعة في بزو يقول إنه حرام، فضلاً عن أنه يتعجّب كيف يمكن لعشرات من الناس أن يقولوا إنهم يمثلون الشعب، ونحن في بزو كلها لا نتعدى مئات، قل آلافاً، وهكذا ما معنى الشعب، ها، ها؟! لا شكّ علّقوه على

مسمار غليظ وسلخوه سلخ الماعز ليقرّ، وهم يسخرون منه، ها،
أنت أيضاً من حزب الشعب، ثم يفعلون به الأفاعيل. مسكين أنت
يا ابن عمي كيف ورّطتك، وأنا أين أرحل إن صمّمت على
الرحيل، أي أرض ستخفيني وأنا في حيص بيص؟!

- 4 -

كلما تقدّم موكبه، اتّسعت حدقتا المعلم لمباركي، يرى ما لا
يُتوقع، ويعجب أكثر ممّا يرى. لم يحدث شيء من هذا في ركاب
المسيرة الخضراء نفسها، خيّر أيامها، حافلاته وشاحناته حملت
آلاف المتطوعين، وأطنان البضائع، فوجدت الطرقات ممهدة،
وحراستها اتصلت مستمرة، مُيسّرة، خلافاً لما هو فيه أثناء هذه
المهمة العاجلة. نعم، غير أن هذه الطريق ليست معبّدة كما يجب،
مُعَوّجة، ملتوية تارة، منبسطة أخرى، من مراکش باتجاه الأطلس
الوعر. علاوة على المرتفعات، والشاحنات تزفر والمحركات
تحمي، هاهم رجال الدرك ينتشرون على امتداد الطرقات الصاعدة
والفروع الحلزونية، إمّا متربّصون عن بُعد أو في مَكْمَن، أو
مواقعهم ناتئة من رؤوس الجبال، محدّوبة فوق طبقات التلال، في
أهبة ووضع من يتربّص كالصقور والجوارح بصيد ثمين، مجرمين أو
مهربين، وإلا ماذا يكون هذا الشيء الآخر الذي يضعهم في حالة
استنفار؟ استبدّ به السؤال، وتاه قلقاً، يبحث عن الجواب بلا
طائل.

ليس خوفاً على أحماله الثمينة ورجاله المرافقين، من مهندسين
وعمّلة، وإنما لقلقي إضافي خرج من عمق ذاكرته ووَسَّسَ له بأمور

حدثت في الماضي، ماذا لو أنها تتجدد في الحاضر، رغم أن زمناً طال بين ما عاشته منطقة الأطلس سنة 1973، وما هم فيه الآن، تقول الأخبار والتقارير، محلية ودولية، إنه عهدُ أمن وازدهار في عموم الإيالة، حفظها الله من حسد الحساد وكَيْد الكائدين، تنعم بالرفاه مع أهلها من دون باقي خلق رب العالمين. فتح الراديو على محطة العاصمة ليطمئن، فهجمت عليه أغنية ركيكة عن الغرام ويُعد الأحباب، بينما مزاجُه إلى فن الملحون أو لعبوط المرساوية، هذه خاصة يحسّ لدى سماعها بدم الشباب الغارب يعود يفور في شرايينه، ويتخيّل أنه في جلسة واحدة تجمعهم بالشيخوخة الحمراء أو صوت فاطنة بنت الحسين مدّ وجزر في بحر آسفي، وحقول السنابل ثامرة من عبدة إلى سهول الشاوية. لا ملحون اليوم ولا مرساوي، في هذا المرتفع الجبلي والذكرى البعيدة، تلك، تسقط على الرأس لا فكاك منها بهذه الأغنية الشعبية الركيكة، يتحمّلها على مضض وينتظر النشرة الإخبارية الموجزة، ستأتي لتتحدث كالعادة عن استقبالات حاشدة يخصّصها السكان للحاكم العام، وهو يواصل تدشين مشاريع الخير والتّماء في أقاليم الجنوب والشمال والشرق والغرب.

أدرث زرّ الراديو فانفجرت منه مثل قذيفة الموسيقى الإشهارية الصاخبة لنشرة الأخبار، ومباشرة جاء صوت المذيع ليعلن بصوت بطيء، مُتصاّد، خارج من عمق مغارة، أم تحسبه يتردّد قادماً من قِمَم الجبال، عابراً بين الشّعاب، نبرته مديدة، متمدّة، مثل قطعة جلد يتناوب اثنان على الإمساك بها وتمطيّطها بين طرفين، صوت يمكنك أن ترى جسد صاحبه فيه قد استرخى فيه لا أنت تسمع صوته فقط، ومن حيث لا تتوقع يصعد الصوت عالياً، ضاجّاً، تلقى

صاحبه تنبيهاً إنك خملت، تناعست، أفق، فاستفاق، وها هو يزأر هائجاً، يجأر؛

استنفرت حواسي، وتشنجت عضلاتي، وانتفخت أوداجي، صعد إليّ تنفسي من خياشيمي، ارتقى وحده على سلالم شعيرات متمرّدة من أنفي، تحمل شهيقاً أسمع مع زفيري مثل منفاخ يزفر، مع نبضات قلبي ترتفع ستثقب الصديرية تحت قميصي، وأصابني تنمّل هي وجلدي، سرى فيه ديببٌ نمل، يقترب من الجلد أن يقشعرّ وأنا لا أجد تفسيراً لما حلّ بي، حقاً أعرف وأحسّ مثل محكومي بلادي بالرهبة التي يوحى بها الحاكم العاصمي قبيل وحين يشرع في إلقاء خطبه، دعك إن أيّ أحد في حضرته أنعجب كيف لا يفعلها في سراويله، بلغني من كبار زبنائي أمّونهم وأزودهم، قبل أن نصبح جميعنا من زبناؤه، أن بعض حجابيه وولاته يضعون في طيات سراويلهم إسفنجةً مخافة أن يتبولوا هلعاً، لا سيما إن تمّ استدعاؤهم بلا سابق إنذار، وهو الغالب، ليبقوا في استنفار ورعب دائمين، لا يشفع لهم حتى في الحالة التي.. أهم منها بطبيعة كلّ الأحوال ما ينبغي أن يتقرّر إصداره والمُصادقة عليه من فرمانات للتسيير العام لشؤون الحاكمية. ويختم من ينقل لي الرواية أنّ من رأى ليس كمّن سمع، وحين لا يصدر مني أيّ تعليق على كلامه، ينهرني بالانتباه، عليك أن تردّ في الحين: السمع والطاعة يا مولاي!

وجدت التفسير في المهمة التي كلفتُ بها. حدثت حدساً مع رأسي فقط أنّ ما سيرد في الخطاب لا بد أن يأتي فيه مباشرة، والأغلب مداورة، حديث عابر أو إشارة لمهمتنا، لأنها من حيث الظاهر على الأقل مرتبطة بمشاريع النماء العزيزة عليه، ووضّع لها

مَجْمَعاً مكوّناً من جميع الاختصاصات والتفّقات، مع ألمع ذويها، اللغوية، والفقهية، والعلمية، والأدبية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والأنثربولوجية، والفولكلورية، من حيث تعدّد الثقافات وتنوع الهوية، وهو عيّن لها آذناً عاماً، وأحدث لها مَفْوضيّات في مجموع التراب الحاكمي، وصار السكان ينتسبون إليها أكثر ممّا إلى ذويهم وأجدادهم، ورقة الانتساب إليها، وتسمى الالتحام، أهمّ من الإدلاء ببطاقة التعريف الحاكمي، ومَن ترقى في العلاقة بها يأخذ درجة ترتيب في سلك الالتحام، 1 و 2 و 3 إلى أن يبلغ حدّاً يحسن به أن يخفّف من طموحه أو يهبط أسفل سافلين، لا عجب أحياناً يجدفون، والعياذ باللله، بلا وعي، فيصدرون القسم بينودها وفضائلها أكثر ممّا يقسمون بالمقدّسات التي تربّوا عليها، ويقول الراديو بصوت مذيع صريح نقلاً عن ميثاقها إنها من الثوابت التي لا جدال فيها ولا يزيغ عنها إلّا هالك...

سيداتي، سادتي، سيدنا ومولانا المحفوف بالعناية الربانية، والمحبات كافة، الحاكم بالله العاصمي، يخاطبكم:

أيتها الأقوام الداخلة في طاعتنا، المنضوية أباً عن جدّ تحت لواء آبائنا وأجدادنا، المشمولة بعطفنا، المنذورة لخدمتنا، الممنون عليها برضانا يليه دافق محبتنا. يغمرنا اليوم فرح عظيم وشعور بالفخر لما بعده من خير عميم، أن نرّف إليكم خبر إطلاق أوراش كبرى لم تعد كما في السابق في عداد الآمال والتمني، بل صارت في قبضة اليد، سيتمّ تنفيذها بكامل التبصّر والتأني، وقد قرّرنا أن نخضعها لقاعدة جديدة بمقتضى النهج الحداثي الملائم لعصرنا، المنسجم مع مبادئنا، تفتّقت عنها عقول مجمع المسكونين الذي أسّسنا، وتمخّض عن فلسفة ارتأينا تبعاً للمشورة

والنصح اللذين نلتزم بهما خطة لتسيير شؤون حاكميتنا، نعني «فلسفة المقاربة التشريكية»، ومقتضاها ببساطة، أن نقرب منكم أكثر ما يمكن، ونشارك معكم في همومكم ومشاغلكم وتربية أبنائكم ووضع مشاريع لمستقبل أبنائكم وأسرهم، ومشاركتم خاصة في كل صغيرة وكبيرة مشاركةً وطيدةً وقريبةً وحميمة إن اقتضى الأمر. وهذا لا يتأتى إلا بفتح ورش المفوضيات بأشكال وعبئات، قديمة ومتقدمة، وحديثة ومُحدثة، مستوحاة من تجارب جميع الأمم، ونشارك فيها كل الطاقات، وهذا ما يستوجب اليوم تجديد النُخب، لتحسين الآليات وتفعيل الأدوات التعاقدية بين مختلف القطاعات، وهذا من شأنه أن يوصلنا لتطبيق برنامج تنموي عمادُه اللّامركز، بتشجيع الوكالات الصغرى والمتوسطة في إطار البرنامج الأزرق الشمولي للنهوض بالحاكمة العظمى على أساس تفكيك المركزيات، بخلق مزيد من الجبهات والصفات.

وقد تضايق المعلم لمباركي ممّا سمع، فهو أولاً، لا يميل إلى مسألة تجديد النخب، هاته، يرى فيها تطاولاً للصغار على الكبار، يأتي هؤلاء متعجلون ليلهفوا ما زرعتنا، وأفنيينا العمر في تخزينه بعد جهد وكدّ، وحتى نُضَب ونهَّب، ممّا يحتاج إلى حيل وذكاء. ثم ما معنى هذه النخب؟! إنهم جماعة، وهو بنى نفسه وثروته وأسطول شاحناته فرداً واحداً، ويحبّ أن يبقى متفرداً في السوق، أم هل يقبل الحاكم العام يا ترى أن يُشرك معه في حكمه بالعاصمة أحداً، لو أعطى المثال، قال في نفسه، سأتبعه، ولكن... الحقيقة، لا، أنا لا تعجبني المقاربة التشريكية، فهي قد تبدأ بمالي، وسكني، وربما تمتدّ إلى... ما لا يُحمد عقباه. ومع هذا كان مستعداً أن ييلع

هذه الغصّة، إلّا مشروع تشجيع الوكالات الصغرى والمتوسطة، هكذا فإنّ أي بقال، ومن يضع أمام دكانه ثلاث صناديق من البصل والبطاطا والطماطم في الطريق العام سيعد وكيلاً صغيراً، ويستفيد من الدعم، ويصبح له صوت في النقابة وسهم في البورصة، وحتى مقعد في البرلمان، الذي جال بخاطر الحاكم العام التبرّع به على خدامه الأوفياء لإقرار حاكمية الحق والمؤسسات؛ وإذن، أنا المعلم لمباركي الذي سلخت عمراً أجمع ثروتي، وأنفذ المشاريع طولاً وعرضاً، لا يوجد طريق أو جسر رُفِع أو بناية مركزية أو غير مركزية أو لا متمركزة، إلّا ومقاولاتي هي التي بنتها، أصبح، هكذا، سواء بسواء مع آخر بقال في بزو أو أيّ ثلث خال!! كادت سيارة لمباركي الفخمة تسقط في منحدر فاجأه على الطريق، قد اشتدّ فزعاً ممّا سمع، يدها تضربان المقود، ولم يسترجع ثباته إلّا لَمّا سمع كلاماً في الخطبة حَسِبَ، بل عدّ أنه موجه إليه مباشرة:

«أيتها الأقوام الوفية، حقيقيّة وافتراضية وطيفية، بعاصمتنا وبالأداني والأقاصي المقصيّة. لقد قرّرنا قراراً تاريخياً لا رجعة فيه، محاربة الهشاشة، وكذا في المناطق الهشيشة الأشدّ هشاشة. وفي هذا الصدد وانسجماً مع مطامح مجتمع المحدثات، سيتمّ إطلاق برنامج استثنائي، غير مسبوق، لا نظير له في بلاد العربان، ولا السودان، ولا كلّ أراضي الفرنجة جمعاء، بالرغم ممّا لها من همّة وحازته من ثروة وشان. برنامج لإنتاج الطاقات المتعدّدة، مكوّنة من مصادر الرياح والعواصف والصواعق وزمجرة الرعود، ولظى الشمس، الشمس الذهبية التي أنعمَ بها علينا المولى عزّ وجل، تُشرق طوال العام في سماء حاكميتنا، ويأتي الفرنجة الشُّقر ليأخذوا لأجسادهم ووجوههم

الشاحبة نصيباً منها، بها سنخفّض واردات الطاقة التقليدية التي يزرع تحت كاهلها شعب الهشاشة. . .

وانقطع البث. يخّ المذياع صار يصدر تشويشاً. مرّت دقيقة. دقيقتان. البث لا يعود. هل بسبب المنحدر الذي يعبره الموكب وسط الشعاب؟ هل بسبب الغابة؟ الطقس ليس عاصفاً. أي علاقة؟ نبتت حبات عرق فوق جبينه، تبلّرت على جبينه الأسمر. تحسّسها بأصبعه ابتلّ. معها وجهه تثلّج. عجباً، كيف والدفع داخل السيارة بفضل جهاز التكييف. مقاعدها أيضاً مبطنةً بقطيفة فخمة. عجباً. من أين هذه القشعريرة؟ كأنها تضرب جسداً لغيره. يريد أن يهرب من السبب. ممّا يجعل الرّجفات تتوالى عليه كصعق كهربائي. يعود السّلك الدفين منذ سنوات ليصعقه، هو من حسبه ارتخى وتلفّت طاقته. كلّاً، ما زال السلك مشحوناً، ومصدر طاقته يتجدّد. ما رآه في السنوات الأخيرة ولم يعجبه يُغذّي آلاف الأسلاك، يُغذّي الغضب، والحقّد، وينفخ في جمرات لم تنطفئ منذ تلك النار التي اشتعلت. . . خرجت له من المذياع، رغم أنه رأى شعلتها الأولى بأمّ العين. الآن كأمس، رغم تباعد الأيام، وإلا فهي ذاتها الأسباب، وحاكم بلد يشبه العاصمة أبوابه موصدة كسمعه، ودون الوصول إليه ألف حجاب، أو هو أمس كالיום، عجباً، سيّان.

في تلك السنة التي يريد أن يطمرها طمراً في ذاكرته، وها هي تطفر من جديد، انقطع البث. كان يقود سيارته في الطريق الوطني ذي الاتجاهين، مغادراً بلدة الخميسات إلى مدينة مكناس، بسرعة عادية، خاصة وعربته نصف متلاشية، تناسب أيام تجارته الأولى، يتنقل بين الأسواق، يبيع ويشترى في كلّ وأي شيء. قبيل الصعود

في التلّ الجبلي الذي يقع على يمينه المنتزه الغابوي الجميل، اسمه الشّعبة السعيدة، كان الفرنسيون من زرعوها وأحسنوا تنسيقها وأطلقوا عليها اسم La vallée heureuse قبل أن يلحقها الخراب تدريجياً بعد استقلال بلد الشعبة. الحاصل، وأنا أتطّلع من مقعدي بمتعة إلى الأشجار الخضراء الكثيفة سمعت صفارات ترنّ في أذني بالبحاح التذير، والطريق أمامي حركة السير فيها تضيق إلى أن اختنقت، لم يبقَ ممرٌ لسيارة واحدة، وانقطع المرور. وقفتُ اضطراراً ككلّ من سبقني. انحسرتنا في حاشية الطريق المترب، على شفا الهاوية هي سفح الجبل المنحدر من حيث كنّا نقف، على حافة السقوط. في الاتجاه القادم من الطريق، بعد انتظار ظننناه لا ينتهي، أطلّت أخيراً قافلةً لشاحنات عسكرية، جميعها مغطاة من الخلف، كما هي شاحناتي القاصدة الآن بلدة نون، محجوبة بالكامل عن الأنظار. في البداية برزت سيارة جيب اشراّبت إليها الأعناق تتوقع المفاجأة، فثانية، كلنا سيارتي جيب تحمّلان في المقدمة أسلاكاً طويلة كالرايات، لا يُرى سائقها. تلاهما رتل شاحنات، هل عدّدتها؟ ستة. ثمانية. عشرة. هوب، وانزلت في الطريق المنحدر بسرعة السيل، ثم تبّين بعدها لا أحد، لا شيء، إلّا الفراغ.

نحن الذين كنا في الاتجاه المختلف مسّرين في وقوفنا، بقينا لا نجرؤ على الالتفات ولا نأمة منا، مثل جنود ينتظرون أمر ضابطهم، وهو ما صدر لنا مع إطلاق صفارة أخرى لم نهتم من أين جاء ولا من أطلقها. قفزنا إلى سيارتنا، واستأنفنا المسير، رويداً، رويداً أحسستُ روعي يهدأ. هدأ روعنا جميعاً. لعلّه ما خمنت عندما عاد السير ينتظم كالسابق في الطريق الغادي إلى مكناس،

الشعبة السعيدة ارتدت خلفي، ولأمر ما تشوش ذهني. نعم، هي قافلة عسكرية، ولها الأسبقية في قانون السير، وهذا كل ما في الأمر. ثم إن العسكر في هذا البلد هم كل شيء، لا، هم يقعون في الترتيب دون حاكمها الكبير، خذ مثلاً يأمرون بأمره ويصدعون بمشيئته، والأرض بين يديه، رأيت هذا بأَم عيني، طبيعي أن يغلقوا الطريق كما تغلق بإرادة سامية، لا عادية، نعم، وما العجب؟ أذكر مرة رأيت ثلاثة أرباع شارع جيليز مغلقة ادعى شخص أنه سراق عزاء أقيم باسمه، فبلغ جميع السكان والعابرين ألسنتهم، بل إنني سمعت من يحمد هذا الصنيع، وآخر يستشهد جزافاً بالقرآن: «كذلك يفعل الله ما يشاء».

لذلك واصلتُ طريقي، ومن حسن الحظ زالت وساوسي وقد وصلت إلى باب منصور للعلاج في رحاب الساحة الكبيرة لمكناس، فيها سأنشر من سيارتي خباء وأبدأ الإشهار لتجارتي. ولما لم يُكتب لي رزق في العاصمة الإسماعيلية قلت أعرج شرقاً إلى بلدة زرهون لعلّ الله يفتح فيها عليّ بركة الشرفاء الأدارسة. وبيننا أسواق السيارة لمست زرّ الراديو بحثاً عن رفقة فأرسل أغنية عاطفية لمحمد المزكلدي (شمعة شاعلة عندي في البيت)، ثم سمعت مثل موسيقى عسكرية، ثم، انقطع البث، ثم خش خش خش، ثم.

(شمعة شاعلة عندي في البيت/ هي حياتي هي اللي حبيت)، ثم عسكرية، ثم
(هي غاييتي أُملي ورجايا/ الساعة السعيد اللي تكون حدايا)، ، ،

خش، خش، ماذا أسمع؟ مَنْ خنق حنجرة المزكلدي؟
أوقفني قطيع ماعز جبراً يعبر الطريق. تفاديت الاصطدام به،

فوقفتُ عند الحاشية وأنصتُ جيداً لا أبالي بصراخ الراعي، لم يبقَ
إلا أن يحتجّ في وجهي راع يجرّ الماعز ينظمه كلب أجرب، وهو
يصرخ: وواه، اشكون إنت؟! واش انت هو القايد ولا السلطان؟!
واه، اشكون بغيتي تكون في ملك الله، الحاكم ديال لبلاد، كاين
غير واحد؟! وشُدّ سمعي كله إلى مغناطيس. ماذا أسمع يا سيدي
ربيعلا أعرف أيّنا يرتجّ، أنا أم الأرض تحتي أم أنا؛

بلاغ: «الجيش قام بثورة؛ الجيش قام بثورة!». نعم، أنا
متأكد ممّا أسمع، الجيش هو مَنْ قام بثورة، لا المزكلدي مظلوم،
المسكين يغني على شمعته. دارت بي الأرض داخل السيارة،
ودارت السيارة وأنا داخلها وما انفكت الأرض تدور، وأنا أسترجع
كلّمع البرق مرور قافلة الشاحنات العسكرية، وحين علمت في ما
بعد أنها انطلقت من قاعدة عسكرية في بلدة أهرمومو شرقي مدينة
تازة، إذذاك فهمت، ووجدتني أحمد الله، مَنْ يدري فإنّ هؤلاء
الضباط كان بوسعهم أن يطوّقونا نحن الواقفين على جانب الطريق
ليمحوا أثر أي شاهد..

ذاك ما حدث في ذلك العام، وها هي الأيام، مشات وجات،
وها أنا، همهم المعلم لمباركي، أسوق سيارة فارهة في مرتفعات
الأطلس المتوسط، وأحمل في شاحناتي ما لا ينبغي أن يطلع عليه
أي ابن امرأة ولا حتى الجن، سرّ محبوس في قمقم رأسي، لا
أحد قادر أن ينفذَ إلى ما بعد هذا القمقم، هناك مَنْ طمأنني، نحن
نحميك والسرّ معك، وسأنفذ المشروع الذي رسا عليّ مزادّه بأمر
من الحاكم العام وحده، هو بعد الله لا شريك له في الحكم
والأمر، وواجب الطاعة، وهو نفسه تحدّث عني في خطبته
المباركة، التي سمعتها قبل قليل في الراديو مع نشرة الأخبار،

ونشرة العاصمية لا تكذب، بأمانة أنه تحدّث عن المقاربة التشريكية، وألح على أمور تخصني، لا ينبغي أن أقلق منها ما دمت أنا المكلف بها، أنا..

انتقل إلى إذاعة ميدي 1 ليطمئن أكثر، فقدّمت له وجبة من أخبار القتل في العراق وسوريا واليمن، وكيف العصابة الإرهابية المسماة «داعش» تحرق الأخضر واليابس في الشرق الأوسط، وهي انتقلت إلى الشمال الإفريقي في ليبيا لترسي قواعد دولتها الإسلامية، ومنها ستصل إلى تونس، وتطمح إلى الامتداد إلى...
رُبط الاتصال بمعلّق غربي شهير، سماه المذيع بالخير الاستراتيجي الدولي، أفنى ببعد نظر بأن: «الإيالة الشريفة وحدها من المحيط إلى الخليج، ذهاباً وإياباً، بمعزل عن هذه الفتن، لا يمكن لعصابات داعش بأيّ حال أن تطولها، لا عجب إن شبّهتها - يتحدث عربية مكسرةً ولكنة إنجليزية- بجزيرة وادعة، لا أبالغ إن قلت إنها جنة يحلو فيها العيش، وتنعم بالأمن والنماء، في خضمّ بحر الظلمات الأهوج. ثم ختم، هنيئاً لكم يا سكان هذه الجزيرة، وحين سيحلّ ميقات تقاعدي لن أختار إلّا بلدكم، هنيئاً ما أسعدكم، والعالم يغبطكم، بل يحسدكم على ما حباكم الله من نعم، ومتّعكم به من استقرار في ظلّ الحاكمية العظمى وظلالها الكبرى والمتوسطة والصغرى...».

لم يمنع هذا التصريح الاستراتيجي المطمئن جداً، المسمار الذي يدقّ في رأس المعلم لمباركي ينفذ فيه عميقاً، فإذا كان كلّ شيء على ما يُرام، والأمن مُستتبّ في مختلف الربوع، بإجماع الداخل والخارج، فلم هذه القوة تُزئّر الطرقات وتُطلّ برؤوسها من الأعالي، فكيف بالسفوح، كم عدّ وتكاثرت في سيره المرات التي

أوقف فيها موكبهُ، ويهتّ الجندرمة، ورجالٌ لا علم له لأيّ قوة ينتسبون، يرتدون هنداماً أخضرَ مخططاً، لدى كلّ وقوف، هل هم مظلّيون؟ حتماً ليسوا قطاع طرق وإلاّ لكانوا نهبونا. يتفرّسون بداية بتجهّم في وجوه السّواق والراكبين، وثانياً يُزيحون الأغطية عن العربات المنقولة، ينبشون حملها، من حسن الحظ لم تطل أيديهم ثلاثاً أو أربعاً منها هو نفسه لا يعلم محتواها، سُلمت إليه مغلّفة، وطلب منه نقلُها كما هي إلى عين المكان إلى أن يحين أو أنّ استلامها من لدنّ جهة هي من ستأتي إليك وتعلن عن هويتها، وسيتمّ إشعاركُ بها في الوقت المناسب، وهو ما ظلّ يطرق دماغه طول الطريق بمسامير حادة.

ليخفّف من ألم الطرق قال لم لا أفحص ما تحمل العربات الغامضة، بعد أن غابت عن انتباه الجندرمة، ولأخرق المنع، هذا المنع الغامض أيضاً؟! ومع هذا الخاطر تساءل هل هؤلاء الرجال الأخضر جنود حقيقيون، قوة رسمية تابعة للمحكومة، ربما استولوا على الزيّ والبنادق من إحدى الثكنات، وها هم بعدها يستولون على المنطقة بأكملها، لا، لا، الذاكرة تصرّ أن تلعب به وتطوح به إلى الماضي كلما استقرّت نفسه واطمأن إلى السلامة وقرب الوصول. لا سبيل للخلاص من وطأتها، نعم حدث هذا سنة 1973، وقبل ذلك، أولم تعرف البلاد التي يعرف جيداً انقلابين عسكريين عامي 1971 و1972؟! مسمار يُدقّ فوق مسمار لتتغرس المسامير في رأس لمباركي قلقاً ووساوس ستتغرس في جسده حراباً، كيف له أن يتحقّق من هوية هؤلاء، جرّب أرقاماً في هاتفه المحمول لا شبكةً تصله بها، ولا بغيرها، مدينة خنيفرة محطّته القادمة، لا تزال بعيدة، ومنها انطلق مدبرو أحداث 1973، كيف

يتفادى هذا الموقع المشؤوم؟ إنما، لماذا يبالي ويتشام أن أمس
 يمكن أن يتكرّر، وتصدع أشباح الماضي كوايس في حاضره، ليكن
 كابوسهم، هم، أما هو فتاجر، يستطيع أن يبيع ويشترى مع مَنْ
 يأتي، هذا شغل التاجر، ما زال يطالب خزينة الحاكمية بنفقات
 باهظة منذ المسيرة وبعدها، ونصحه بعض النافذين من معارفه في
 العاصمة أن ينفذ يده من أيّ متابعة، ويعتبر نفقاته مساهمة
 في «القضية ال...»، وكاد يطلق ضحكة عارمة عند هذه العبارة، فهل
 هذه (القضية) عملة يمكن تداولها، شراء بضائع مستوردة بها،
 إيداعها في البنوك الأجنبية، أو تهريبها في نقاط الحدود، عُمالي
 أجمعهم وأوزع عليهم عبارات منمّقة، أقول لهم يا خوني/
 خواتاتي، بارك الله فيكم، أنا والعزيزة الشيفة للآ القضية نشكركم،
 ادفعوا بها إيجار بيوتكم، وسلفاتكم، ودخانكم، وقناني البيرة،
 وأكياس المعجون، فإنّ رَفَضَ أحد قبول هذه العملة ادفعوا بالتي
 هي أحسن، فإنّ عانَدَ واستكَبَرَ عليكم بالسلاح الفتاك، اتهموه
 بالخيانة وعدم طاعة حاكمنا الهمام، والشجرة العاصمة الفيحاء.
 تسلسلت هذه العبارات والهللوس في رأسه، وكادت تندلق من
 لسانه، لولا أن أجفل، إذ احتكّت سيارته بالإسفلت بقوة، قد ضغط
 على الفرامل فجأة، رأى أو ظنّ أو تخيل، سيتجنّب المرور فوق
 جسد بشري، وما هي إلّا علامة Stop، نزل على إثرها هو
 ورجاله.

حاصرهم رجال ملثمون أمروا بإفراغ كلّ الشاحنات
 والمُعَدّات، أصابعهم على زناد بنادق ورشاشات، صبوا عليهم
 أقذع السّباب، اعتبر المعلم أنّ المرء يستحي فيها مع نفسه، فكيف
 بالسامعين. بطحوهم بعد ذلك أرضاً، وتقدّم واحدٌ منهم فارغُ القامة

ونادى على لمباركي مخصوصاً فبَلَّل هذا سرواله، قَدَّر أَنْ ساعته حانت، وَتَدَرَّوْشْ، خَذُوا ما تشاؤون، وَأَنْ معه دفتر شيكات يمكن أَنْ يملأه لهم بالملايين ويقيّد لهم إرث ما يملك كله، فسمع الفارع يصليه جواباً نارياً يقذف طلاقات حول قدميه وفوق رأسه يروّعه. دَعاه بعد ذلك: أبلغ سادتكَ أَنَّ ثوار مولاي بوعزة ما زالوا أحياء، وما يتردّد عن اعتقالهم أو فنائهم، أو فرارهم إلى الجزائر إنما هي افتراءات. أخبر سادتكَ أَنَّ هذه منطقتنا، وكلّ مَنْ يمرّ بها يدفع إتاوات على المرور، وما نحن نوفر حياتك ورفقتك، لكي توصل الرسالة، ما لن يتكرّر في المرة القادمة، أما البلدة التي تقصد فهي تحت إمرتنا، وأهلها موالون لنا، وما انتقل من رسائل منها تطلب النجدة من العاصمة إنما تلفيقٌ ودسٌّ على سُمعة سكانها.

لم يكن المعلم لمباركي يدرك أنه يسمع، أم أصابته لوثة بما سمع، ماذا لو أَنَّ ثمة مَنْ يتكلم في داخله، هو مَنْ يتدافع مِنْ فيه سيلٌ عَرِمٌ من تهديدات. لذا اختلط عليه الأمر، شعر أنه يُذعن لصوتين وأمرين لَمَّا انتهى رجال الدرك في نقطة المراقبة عند الدخول إلى شِعْبٍ يقود إلى أعالي الأطلس، هزّوا جسده هزّاً يعيدونه إلى رُشدِهِ، وليواصل الطريق بموكبه نحو البلدة.

- 5 -

ولَمَّا كانت يطوّ لا تنام إلّا بنصف عين، مذُ وصلت إلى البلدة، فإنّ الحركة التي دبّت حولها في هذا الصباح المبكر أثارتها، كيف قلبت العادات، هرع الساكنة عن بكرة أبيهم إلى أبواب البيوت لاستطلاع ما يجري. حشرت رأسها أول الأمر مثل

جمع النساء تطلّ من وراء الكُوى المعلقة، لا تجرؤ على الخروج لتُشيع فضولها، لا لحرمة مفروضة عليهن، ينبغي أن يبقين من وراء حجاب، أو يخفين وجوههن كأنهن مشوّحات، وهي تأنف من أن تفعل مثلهن، حسّ تمرّد وُلد معها ورافقها، وهذا ما قاد خطواتها إلى أرض غريبة عليها، لذلك آلت على نفسها أن تتحمّل، بسبب قصتها لا تزال طوال سنين خلّت تنتزعها من قلب منامها، تخضّها خضاً تصوّر لها الشريط الذي لا تكفّ تستعيده كلّما حطّت رأسها على وسادة، أو ضمّتها حمّو إليه يملأها بجسده الأحرش الذي هبّ لها، وهو يقلّبها ظهراً على بطن، ثم ظهرّاً. يعود الشريط يدور، لا صوراً في خيالها، وإنما مشاهد حية، تتحرك أمامها كما لو أنها تراها بعيني أمس، وهي في قلبها تمشي فيها وتسمع شهيقتها وزفيرها وتتشمّم عرق لحمها، طفلة، ثم عزباء تنهد وتحلو في عينيها وعيون من حولها من أهل وعشيرة وجيرة، والذين يراقبونها يتلمّظ ريقهم مذ تنطلق إلى سوق القرية حين ترافق إليه أباه كل يوم ثلاثاء، تساعده في حمل بضاعته من دجاج وبيض وما تيسّر من فاكهة الموسم، تشاركه البيع، وتتعرف عبر تتالي الأسواق على الرجال، الشباب خصوصاً، عيونهم تزدهم على فتاة، يخطف أبصارهم تورّد وجنتيها، وخضرة عينيها كحقل من النعناع الطري، فيتهافون للشراء منها.

ختم الأب هذه الرغبة، حاول أن يداريها أولاً، وفي كلّ سوق تكبر حداً لا قبل له بإنكارها، فلا بأس أن يتحايل فيغيب وقتاً بدعوى قضاء غرض أو حاجة ملحة، ليخلو لها الجو هنيئاً، وكذلك ليراقب من مكن كيف تنصرّف في غيابه، وكم يقبل عليها من سُراة خلال الغياب. اتّضح له أنّ حسن البنت يروّج بضاعته،

سريعاً ما تنفّق، بينما أخرى لغيره تبور؛ فحرص على اصطحابها معه رغم تحقّظ ابن عمها، مَنْ كان يعتبرها سلفاً، بحسب عرف شائع، أنها من نصيبه، ولا يؤخّره عن الدخول بها سوى غلة موسم خصب، ما حسب حسابَ شاب لا يقلّ عنه وسامة، وتطفح الفحولة من جسده المفتول، أصبح يتبع يطو من سوق إلى سوق، وفي كلّ مرة يتخفّى في زيّ لثلاً يفتضح أمره مع والدها. عينه رغم حرصه لا تغفل عنها، هي بنته ويعتبرها في آنٍ مثل ودیعة عنده في انتظار أن تُزفّ إلى ابن عمها، قرأ مع أخيه فاتحتها، فأصبح هذا عهداً في عنقه.

إلى أن تبعها الشاب ذاتَ سوق إلى نبع ماء تسقي منه، فدرس في يدها ودّعاً من ذهب في شكلِ قلب، وانصرف عنها عيناها تلاحقانه، عرفته كأنما من أنفاسه وألهب خديها فاشتعل ناراً بقربه وابتعاده في آن، وصارت لا يكاد يُغمضُ لها جفن، غير أنها تستبق الصباح لتراه مقبلاً على خيمة أبيها في السوق، يمضي أسبوع، فتانٍ، لا تراه، شحبت، ذبلت، انقطعت شهيتها، وهاجت مهجتها، كلّ من أقبل أو أدبر في السوق تراه فيه ومن خلاله،، إلى السوق الرابع، لمحتة بين جماعة يتخفّى بين جلايبهم، وهو يشير إليها أخبره قلبه كم هي لهفى، أن تأتي إليه، وما ملكت إلا أن تبعته إشارته، مشّت خلفه وهو يكلّم حاله بينما هو يُبلغها ما نوى، ويطلب منها أن تأتيه في نهاية يوم السوق، سينتظرها عند الكرمة الهرمة التي في مخرج القرية بعد الخيام، وهي لا تزال تذكر كيف تبعته وأطاعت أمره كالمُسَرَّمة، خدعت أباها زعمت ذاهبةً إلى الخلاء لقضاء حاجتها، وعند الكرمة وصلت إليها بعينين شبه مغمضتين من كثرة مرورها بها، لم تقدّر أن مصيرها سيكون عند

جذعها، وجدته، ورغم شوقها الجامح لثلقي بكُلِّها في حضنه،
وقفت مترددة، هي نارٌ تسري في لحمها، ووجيبٌ كدقِّ المهرارز
يضرب في صدرها، قد أطرقت رأسها هي التي تريد أن ترى هذا
الحبيب، مَنْ أَخَذَ عليها مجامع نفسها وعيشها في صورته الكاملة،
من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ما لم يمنعه من أن يتقدم صوبها
خطوةً، قد اطمأن أن المكان قفرٌ، ويحتضنها وهو يغرد في أذنيها
بغزل أمازيغي:

«أزين نليف أنو انقس كذتوين/ تتاغ أربي ذناش اثغيوين»
«جمال حبيبي شعاع يولم عيني/ يا إلهي لو يكون من نصيبي»
وبدورها، رغم حياء غشاها، ردّت المجاملة بأحسن منها:
«أيور اينو يشار س لحووب/ إذكان وزماغ أذنيغ شان لحب
ميدن»

«قلب مُثخن بحبك ممتلئ جنباؤه/ لا مزيد حبيبي لحب أنت
لست صاحبه»

بخفة مهريّن ركّضاً وهي تتبعه. أركبها بغلة أخفاها ربطها من
قبل في زاوية خفية وانتظر. وضع عليها حملاً خفيفاً، ستتيّنه ملحفةً
وثوباً جلبهما لها، وغطاء لاتقاء زمهرير الجبال في بضع ليالٍ وهما
ينتقلان ويتساقيان من بعضهما قُبلاً وعناقاً وجسداً، ولم يجد
ضرورة أن يقنعهما بالفرار بعيداً، استجابت وحدها لا تبالي بالخطر
الذي كان يلاحقها، في أثرهما جنّد ابن عمها رجال القبيلة وأطلق
العيون في الأسواق والطرق بعد أن وصلت إليه علامات عن
فارسها، وعلمت أنه هجم على قبيلة خاطفها، بينما تعترف لنفسها
أنها هي مَنْ خطف لبّه، وسارت به إلى أن وصلا هذه البلدة، بعد

عام من التشرد والتخفي عن العيون وتمويه الانتقال، بين صورة أب عجوز أو أب مُعَوَّق تقوده ابنته، وتارة مظهر شاب يرافق أخته للالتحاق، ينتقل بها إلى بعلها في قرية نائية، وطوراً يحملها إلى المدينة للعلاج من مرضٍ غامض، لم تنفع معه أعشاب ولا تعاويذ الفقهاء، وحالات أخرى لا تحب أن تتذكرها، منها لما تحرّش بهما دركيّ في الطريق، أراد أن ينتزعها منه عنوة، فما رأت إلا وحبيها في لحظة تهور الدركي يغرس في صدره خنجراً، من وقتها أصبحا مطاردين بجرمين، الجرم الأخير أهونهما، لكثرة ما عُرف عن الجندرية في الطرق والبوادي خاصة حيث الناس عُزل، من التعدي، وعلى العابرين، وابتزاز السّواق ونهب ما يحملون بكلّ الطرق.

مرّ بهما الدركي بسيارته الجيب وهما عند منعطف. توقّف ونزل بصلف وطلب أوراقهما، أنتَ وأنتِ، الكارني! آس من كارني؟ ورقة التعريف، أنا أوراقي في الخيمة مع بوياء، وهو أجابه بأنه نسيهما في خيمتهم، ولم يرَ لزوماً لحملها، لأنه لم ينوِ الذهاب إلى إدارة القيادة، وكلّ مَنْ سيصادفه سيعرفه، نحن أبناء هذه الأرض، نمشي فيها وننتقل بوجوهنا، وأسمائنا وأسماء قبائلنا تكفي، أنا من آيت عتاب، من جماعة تاونزة، لا، نحن لا نعرف إلا الأوراق، وإذن، وهو يخزّره، تأتي معي إلى البيرو [مكتب السلطة]، للقيادة، ونرسل مَنْ يحضر بطاقتك لنطلق سراحكما، هيا، وهو يأكلني بعينه، حتى امتدّت يده بوقاحة إلى صدري، فهمّ رجلي ما يريد فحذّره ولم يرعوِ وهدده فلم يرتدع، وفي الثالثة غرس فيه خنجره قبل أن يتمكن منه الجندرمي. من هناك لُذنا بالفرار، اختبأنا في مغارة بالجبل أياماً، نحن أبناء هذه المنطقة، نعرف

ترابها ونداها وحشها ونملها، كلّ شبر فيها، ونعرف كيف نقتات منها كالقردة، ولا نموت، قبل أن نواصل إلى هذه البلدة المتزوية. دخلناها منفصلين من جهتين، هو من شمالها، وأنا من جنوبها، وظهرنا مشرّدين، اتفقنا أن نلتّم ببعضنا حين نطمئنّ، ساعدنا أن كثيراً من سكانها إما أمازيغ شلوخٌ مثلنا يتحدثون لغتنا، ومنهم عتابيون نازحون من جماعة مولاي عيسى بن ادريس، وآيت بوزيد، ففرحنا واطماننا قليلاً، ولما كانت هناك حاجةٌ إلى عمال للبناء تيسّر لرجلي شغلٌ مكثنا من لقمة العيش وتأجير بيت، وانتقلنا منه إلى بيتٍ ثانٍ، نحرص على تغيير المسكن كلّ ثلاثة أشهر خوفاً من أن يصل إلينا أهلنا أكثر من المحكومية نسيّتنا ربما لانشغالها بأمور أهم وأخطر كما أخبرني حمّو.

حكى لي، هو الصّموت، الكّثوم، بعد أن أغلق باب الدويرة، وشباك طاقة مفتوحة إلى الخارج، وانتظر غياب جارينا من جهتي اليمين والشمال، فأشار بيده اقتربي، خفتُ من هذا الحذر وظهر على وجهي قلقي، فهَمَّ وهمسَ عليك أن تُكثري من الحذر، فزيادة على هروينا، لا نعرف مع مَنْ نعيش، وماذا هنا، ثم إنّ ما بلغني خطير ولا أريد أن نُحصّد كما يُحطّب الحطّب في الليل، ولم أطاوعه، قفزت من مجلسي وقد اشتدّ فضولي، وأثار فزعِي، أسأله أي بأس وقع يا رجل، هل أخطر ممّا جرى لنا، هل يوجد أخطر من قتل الجندرمي؟؟!! نعم، هناك ما هو أخطر، أنّ هناك رجالاً جاؤوا قبلنا من مناطق بعيدة، من خارج هذه الناحية. أشعلوا النار في مبنى القيادة، واستولوا على ما بها من سلاح، بنادق، واجههم لمخازنية فقتلوا بعد معارك عشرة منهم، وأخيراً تمكّنت القوة من القبض على بعضهم، وفرّ آخرون ما زال البحث جارٍ عنهم. نعم،

البحث لم يتوقف، وكلّ غريب يصل إلى هذا التراب مشكوك فيه ومشبوه. فهمت لماذا أوصيك وأعيد، لماذا أطلب منك أن تقللي الاختلاط، وتحفظي لسانك من الزلق، ممن تريد أن تسله وتشرّحه وتملّحه، وتقذّده، وتشره لتأكله وتأكل به؟ لو أمسكونا عندئذ بعد أن يرمونا أنا وأنت بالبارود، ويحرقونا، سيرمون بما يتبقى منا إلى الكلاب، ألم تَري كم عدد الكلاب الضالة في هذه البلدة، تناهز هي والقطط سكانها، ناهيك عن الجرذان، متضوّرة جوعاً، أمس فلّت من فرقة كلاب هاجمتني من طريق فرعي وأنا عائد من ورشة البناء، لولا لطف الله بي، وعبور سيارة نقل هيّجتها طاردها بدلاً مني، لكنت الآن تتمرغين على عظم أو عظمين بعد أن يكون هؤلاء المهاويش قد نهشوا لحمي.

سمعت هذه الحكاية، وانغرس كلامها إبراً في نفسي، أحبّ أن أتذكره وأستعيده حرفاً، حرفاً، كي لا أنسى، وأمسكُ لساني كما طلب مني وهو يعضّ على يده مُغتمّاً بحرقة. ورغم عديد أعوام مرّت على حادث الحكاية، فإنني وقد تنقّلت في العمل بين بيوت البلدة، حريصة دائماً أن لا أغشى الأسواق، تعلّمت أشياء مهمة عن سطوة الحاكمية، منها أنّ لها عيوناً وبيّاعة في كل مكان، وسمعت من يتحدث عن رجال ستمّهم مساخيظ الحاكم، وكذلك عن رجل وامرأة قتلا دركياً وهذه أوصافهما، وكنت قد تغيرت قليلاً بسبب سيّالة وشماتها سيّدة متخصصة على ذقني وفوق جبهتي، وزاد وزني، بينما اخشوشن زوجي، وصار يعرج بعد سقوطه من علوّ حائط كان يبنى فيه.

وحين تراجعت إلى الخلف منسحبة من جمع النساء يلغين ويتحاججن بفضول زائد حول ما يجري في الخارج، من غير أن

يجرون على تخطي عتبات أبوابهن، لأصواتهن نبرة كقافاة الدجاج، بينما أزواجهن يقفون بعد منبهرين لا يجدون لما يحدث في حيّهم وأمام أعينهم فهماً ولا تفسيراً، انتبهت لي جارتني طامو وبادرتني مَالِك يا حبيبتي دائماً فائزة، كأنها تهددني بشيء، وأنا أعرف أن هذه الأفعى القرطيطة بعد أن ترمّلت صارت عينها على رجلي، لا بد أن نغيّر السكن غداً حين تنتهي هندقة الطريق هذه.

- 6 -

عندما وصل موكب المعلم لمباركي إلى مدخل بلدة نونة، وهو يسميها نون، انبعثت الآية الكريمة من صدره وصعدت إلى لسانه يتلوها بعدوية: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾. ترقّقت على شفّتيه من مخزون تعلّمه في الكتاب القرآني الذي غادره وهو يحمل في صدره عشرات السور حفظاً عن غيب، انتقل بها إلى المدرسة كسائر أقرانه، وبعد نيل الشهادة الابتدائية زادّ عامين انتبه الأب الذي كان يعمل بالتجارة أنّ هذا الابن لا يصلح لتعليم منتظم، ومن الأفضل له أن يتوجّه باكراً لحرفة تفيده، وهكذا فتح له دكاناً لإصلاح وبيع الدراجات الهوائية والنارية، شغف بها وكانت شغله الشاغل ليل نهار، تدرّج فيها إلى أن صار يملك أسطولاً للشاحنات. تردّدت الآية في سمعه واستعادها في صدره أول ما كلّفه رجل العاصمة من قبّل الحاكم العام بالمهمة التي يسير بموكبه لتنفيذها، إنما نبهه، يقول لك حاكمنا المنصور بالله، لا تخط بين الآية والبلدة، ولا تُدخل هاته في تلك، فإنّ لكلّ مقامه ودرجته، الآخرة ليست هي الدنيا، كما

أَنْ التَّأْوِيلَ مِنْ اخْتِصَاصِ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ، حَاكِمِنَا أَعْلَاهُمْ مَقَامًا
وَأَجْدَرُ بِهِ مِنْ سَائِرِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، فَإِنْ سَمِعْتَ مِنْ يَخْلُطُ أَوْ يَدْجُلُ
فِي هَذَا وَتَسْتَمِعُ، إِنَّهُ أَوَّلًا، فَإِنْ تَمَادَى نَبَهُ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ
الَّذِينَ سَتَصِلُ إِلَيْهِمْ وَتَنْزِلُ عَنْدهُمْ، أَنْ يَتَوَلَّوْا الْأُمُورَ عَلَى حَدِّ الْأَمْرِ
وَالْتَّهْيِ قِطْعًا، وَبِحَدِّ السِّيفِ إِنْ اقْتَضَى الْأَمْرُ بِلَا هَوَادَةٍ، حَتَّى لَا
تُفْسِدَ الْعَامَّةُ شُؤْنَ إِيَالَةِ مَوْلَانَا، وَإِلَّا عَلَيْنَا وَعَلَى تِجَارَتِكَ السَّلَامُ،
سَيُطْمَعُونَ فِينَا، وَالْوَيْلَ لَنَا وَأَيَّ وَبَالٍ. وَإِنْ تَوَسَّوَسْتَ أَمَامَ النَّوْنِ،
بِسَبَبِ الْوَسْوَاسِ الْخَنَاسِ، فَاعْلَمْ أَنَّ ثَمَّةَ سِرًّا مُحْجُوبًا عَنِ الْأَنْظَارِ،
مَبْثُوثًا وَرَاءَ الْأَسْتَارِ، رُبَّمَا ظَهَرَ لَكَ وَلِمَنْ فِي مَوْكِكَ وَيَتَّبِعُ قِصَّتَكَ
فِي آخِرِ الرَّحْلَةِ، رُبَّمَا بَقِيَ مَطْوِيًّا عِنْدَ عِلَامِ الْغُيُوبِ مِنْ مَعْجَزِ
الْأَخْبَارِ.

وَهَا أَنْتَ عَلَى بَابِ الْبَلَدَةِ يَا الْمَعْلَمَ لِمُبَارَكِي، تَحَسَّنْ أَنَّكَ
سَتَدْخُلُهَا دُخُولَ الْفَاتِحِينَ الْغَانِمِينَ لِفَخَامَةِ مَا تَرَى، تَفْرِكُ عَيْنِيكَ
لَتَيْقِنَنَّ أَنَّكَ صَاحِبٌ لَا فِي حُلْمٍ، وَتَتَمَنَّى أَنْ لَا يَكُونَ خَلَطٌ قَدْ وَقَعَ، ذَا
اسْتِقْبَالَ لَا يَحْظِي بِهِ إِلَّا هُوَ، الَّذِي هُوَ هُنَاكَ، وَأَنْتَ مَا جَرَّوْتَ يَوْمًا
أَنْ تَسْمِيَهُ، فَتَسْتَخْدِمُ ضَمِيرَ الْغَائِبِ هَيْبَةً كَمَا يَدَّعِي مَنْ هُمْ فِي
وَضْعِكَ، وَفِي نَفْسِكَ تَقُولُ اللَّيْ خَافَ نَجَا، ثُمَّ الْأَحْسَنُ عَنْكَ
اسْتِعْمَالُ هَذَا الضَّمِيرِ لَيْسَ فِي جَعْبَتِكَ أَنْتَ مَا يَكْفِي مِنْ صِفَاتٍ
وَمَنَاقِبِ الْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ، وَكَيْفَ تِجَارِي الْبُلْغَاءِ وَحِفَافِ الْمَتُونِ
وَأَنْتَ خَرِيجُ دُكَانِ الدَّرَاجَاتِ.

بَهْرَتُهُ لَا فَنَاتٌ مَعْلُوقَةٌ، وَأَعْلَامٌ تَرْفَرُ زَاهِيَةً، وَفَرْقٌ مُوسِيقِيَّةٌ
تَعَزِّفُ بِالْحَانَ وَأَصْوَاتٌ مُتَنَوِّعَةٌ، أَمَازِيقِيَّةٌ وَعَرَبِيَّةٌ، وَنِسَاءٌ وَرِجَالٌ
حَوْلَ الْفَرْقِ بَيْنَ مَنْ يَرْقُصُ فِي دَائِرَةٍ، مَنْ يَتَأَهَّبُ لِلدَّخُولِ إِلَى
حَلْبَتِهَا، وَمَنْ يَضْرِبُ عَلَى الْبَنْدِيرِ. فَتِيَانُ آخَرُونَ يُوَدُّونَ حَرَكَاتَ هِيَ

قفزات في الفراغ، لجماعة تسمى أولاد سيدي حماد أموسي، من إقليم سوس، معروف عنهم ترحالهم لعرض الفرجة، منها يتكسبون؛ هندامهم سراويل فضفاضة حمراء، وقمصاناً خضراء فاقعة، يقفزون فوق الأرض ويعلمون وهم يتلوون يستديرون مرات في مساحة دائرية أو مستطيلة، حسب المتاح، ثم ينزلون الأرض، فرداً، مثنى، أو ثلاثة، بسلام واقفين، بجسد مستقيم، وإن أميل إلى القصر، كما هي قامة ساكنة مناطقهم. ثم تراهم يعيدون القفز ذاته مرات، ويتبعهم الرش، التصفيق، والصلاة عليك أرسول الله، من الجمهور الحاضر.

ابتَهَجَ لمباركي لما رأى أيما ابتهاج. بددت الفرجة التي استقبلته ما كان سكنه من وساوس في الطريق، خاصة يرى ممثلي السلطة المحلية مقبلين عليه بترحاب وبوصوله يحتفون. يتقدمهم قائد المنطقة ورئيس حامية الدرك، برفقتهم رجال يرتدون جلابيب وسلاهم بيضاء، رؤوسهم مشدودة بعنق صفراء يتدلى آخرها على القفا كعُرف حصان، لا شك هم أعيان الناحية. استقبله هذا الجمع الحافل كما لو أنه هو الحاكم العام للإيالة، بصحن كبير من الطاووس الصيني ملئ بقبة تمر فخم من نوع «المجهول»، وبآنية الحليب، أشار بيده يعتذر لفتاتين موشومتتي الجبين والقذ، شاكرًا كما يفعل كبار القوم، تتبعهما فتيات أخريات تقدمن يفرشن طريقه بالقرنفل والريحان، فصار يتبختر في مشيته، ولو هلة يتخيل العذراوات يتقدمه ملائكة يحملنه إلى الأعالي، عيناه فلتتا منه، سيزفنه إلى الحور العين. لم يكن ينقص إلا أن ينحني له الواقفون على جانبي الطريق، ليردّوا، كما تجري العادة في هذه المناسبات: «الله يبارك في عمر سيدي!».

خذُ حذرَكَ من هذا الهوس، كلّمه صوت من جوفه كحارس أمين، هذه عبارة مخصوصة بسيدك، الحاكم الفرد للإيالة العظمى الشريفة، وما ينبغي أن يخطر ببالك أنك سمعتها ولو في المنام، ستُصاب عندئذٍ بالصمم. والآن، واصل سيرك فيهم، ومعهم، تمشي وسطهم، وتختلس، تضبطهم يتبادلون النظرات في ما بينهم كأنهم يتراسلون بشفرات وأنت موضوع المراسلة. تتقدمون محفوفين بالحراس المخازنية نحو منصّة منصوبة على يمين مدخل البلدة، تعلوها كراسٍ يُجلسونك في صدارتها أمامك طاولة عليها باقة زهور منفوخة، وتقدّم القائد إلى منبر قريب منك يمسك ورقة بيضاء، التفت حوله إلى جماعات متناثرة من السكان، جلبهم من قراهم منذ الفجر حراس، اقتادوهم كالمساجين، كبار السن منهم أركبهم جرارات وعربات، وشبابهم أمروا بالسير ليلاً راجلين كي يصلوا في الصباح الباكر، والويل لمن تقاعس، يعلمون مغبة أن يتخلفوا أو أيّ عصيان، لذلك يتركون المخازنية يتحكّمون في حركاتهم وسكناتهم بقضبان زيتون رفيعة، وكلما تدافعوا أكثر ممّا يجب استسلموا يهشّون عليهم كالغنم فارتدّوا سالمين، نطق بأول عبارة فتجاوبوا معه، هتفوا بصوت واحد: عاش! عاش! تلاهم الجالسون في المنصة صفّقوا بحرارة وسمعوا القائد يقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، ومَن والاهم من الصحابة والتابعين. أيها السيد المقاول الكبير، أيها السيد قائد الحامية الكبير، أيها الضيوف الكبار، أيها الشعب النّوني الوفيّ. يُسعدني باسمكم جميعاً أن أتوجه بالتحية وآيات الترحيب إلى ضيفنا المقاول الوطني الكبير، من هو غنيّ عن التسمية فكيف بالتعريف، ممّن أسدوا لهذا

الوطن خدمات جليلة ولهم عليه أياذ بيضاء لا تُنسى، أشهرها ما تعرفونه جميعاً ولا شك بما أنجزه في العهد الذهبي السابق خلال المسيرة المظفّرة التي بفضل جهود أمثاله من المواطنين الغيورين أمكن استرجاع صحرائنا العزيزة وتحقيق الوحدة الترابية. واليوم، وفي العهد الذهبي الجديد، ها هو يحظى بالثقة الحاكمة الغالية للإيالة السامية، التي آتت إلّا أن تستجيب لمطالب ساكنة هذه الديار، فتفكّ عنهم العزلة، وتحقّق لهم الرفاهية، وتبعد عنهم أشباح الجهل والمرض والبطالة، وتربطهم بمجلة التنمية المستدامة حفظها الله - رشّ هائلٌ من التصفيق من كلّ الجهات، وزغاريد وضربات بندير مع قفزات متناوبة أمام منصة الضيوف لأولاد سيدي حماد أو موسى- فكلفت من هو غنيٌّ عن التعريف، بإشراف السلطات المحلية وأعيان القبائل، المعروفين بولائهم المحمود وإخلاصهم وتفانيهم المعهود، بأن يُوقّر لهذه البلدة ما سيبوّئها إن شاء الله الدرجة الأولى في الأطلس كله، الصغير، والكبير، المتوسط من راسخ العماد، دائم الوجود، ويجعلها قبلة للسياح من مختلف بقاع المعمور، في انتظار أن يشرفها - ونظر إلى السماء- بزيارته، ويبسط عليها أيدي نعمه البيضاء، إنه سميع مجيب للدعاء صادق الوعود).

طلب المقاول الكبير بعد ذلك من السيد القائد أن يتفضّل فيقصّ بيديه الكريمتين الشريط الأخضر، حملت المقص فتاة حافية القدمين، عيناها تدمعان من شدة الفرح، فقبّلها القائد من الوجنتين، وطلب من معاونٍ له أن يحيلها إلى مكتبه لينظر للعناية بها في الوقت المناسب كما ينبغي، وأعطى الإشارة ببدء الأشغال في الورش الجديد. لم يتلقّ المقاول المعلم لمباركي تعليمات

محددة من صاحب التكليف في العاصمية غير توسيع وتصحيح مسار الشارع الرئيس الذي يعبر البلدة ويقسمها إلى قسمين، وأن يبني في نهايته جدارية متحركة يمكن نقلها عند الحاجة، استعداداً لحدث هام لا يعرف عنه شيئاً. بهذا أخبر القائد الذي زاد فضوله لم يفته الانتباه للشاحنات الثلاث مُحكمة الغطاء، سأل باستغراب مصطنع عن محتواها، ومن يعرض خدمة، لكم أن تكشفوا كل شيء، فهنا يسيطر الأمان، كل ما يطير في الجو ويدب في الأرض وما بينهما تحت أعيننا، فقبل بصمت تام، معه اربد وجه مخاطبه، فهم عليه تجنب ما يُسيئه وأنّ للفضول حدوداً، ومن ثم انصرفا معاً يرقبان العمال انهمكوا ينزلون العتاد بهمة، والمهندسون يرافقونهم، يخططون وهم يأخذون المقاسات ويدققون بالناظورات ثم يتابعون بأوامر الحفر هنا، هناك، علت المكان جلبة عالية وانتفضت سُحب الغبار، حسيها بعض الساكنة في البداية نقع حوافر خيل، يعلمون تُقام حرّكتها مرة في العام في الموسم التجاري وهذا ليس موسمها. ثم تكاثف الغبار، يكتسح الطريق الطويلة من مدخل البلدة متصلاً إلى مخرجها باتجاه مدينة أزيلال. خرجوا من بيوتهم ينظرون دهشين كيف أنّ القوة العمومية حاضرة من الصباح الباكر، ويشاهدون تجمهراً لناس لم يعرفوهم يقفون في الوجه المقابل للطريق وهم يهتفون ويغنون ويرقصون، بقوا لا يفهمون حين طلبت منهم القوة ادخلوا بيوتكم بأمركم سيد القايد، وإلا سيقطع عن بيوتكم الماء والضوء، وعن العاطلين يمنع دقيق وزيت وسكر المعاونة، وحتى على العمال مؤونة الإنعاش الوطني، و، و،

ما هي إلا ساعة على بداية الحفر والتخطيط، سُمعت في الجو صرخة، صرخات للعمال يهرولون في كل اتجاه، قصّد كبيرهم وهو

في مشية كالراقص أو يترنح من سُكر المعلم لمباركي، كان مضطجماً على أريكة فوق المنصة بعد أن انصرف القايد، داعبه وَسَنَ رأى فيه الحاكم الكبير واقفاً بمهابته وجبته الحريرية المزركشة التي لا يرتديها إلا في عظيم المناسبات لاستقبال كبار الشخصيات، يعتلي منصة على يمينه ويساره حاجبان، وهو يوشح صدره بوسام من فئة السَّبْع، بعد أن أدى مأموريته أحسن أداء، وتفانى فيها بإخلاص ووفاء، عاد إليه انتباهه من وسنه فرأى مَنْ يرتجف أمامه ويتلعثم:

- يا سيدي لا نستطيع مواصلة العمل، بسبب الأرض.

- ما لها الأرض؟

- الأرض تهتز، تشطح.

- قل كذلك إنها تغني!

- لا، والله، يا سيدي، هي تهتز بحال الزلزال!

- يعني، كما جاء في القرآن، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا﴾.

- وأكثر من هذا، ثق بي يا س.. يدي!

- آشنو هو اللي هو أكثر من الأكثر؟!

- إننا كلما حفرنا سمعنا في الأول أصوات بشر تختنق، ثم

صراخاً يتبعه، ثم استغاثة، وانظر هذه آلة الحفر، بها أثر دم، وشيء مثل الشعر والجلد.

- ولمَ لا تقول إن الجن أبيضاً خرجوا لكم من تحت

الأرض؟!

- لا، والله، يا سيدي، تعال شوف بعينك.

ومد المعلم يده يتحسّس الآلة فتحقق ممّا سمع، فقصد القايد

الذي قصد بدوره قايد حامية الجندرمة، أخبره بالحاصل فأمره هذا

بالتوقف عن الحفر فوراً في انتظار تعليمات تأتيه من الجنرال القائد الأعلى للحاميات، وهمس في أذنه بأنّ هذا الطريق بقي مُهملاً منذ تخطيطه سنة 1973، وربما أخطأ بعض الساكنة فدفنوا فيه موتاهم من دون ترخيص، ونظر إليه بمغزى، علينا أن ننقل الآن جثامينهم فوراً.

الفصل الثاني

وصلت إلى هذه البلدة بعد سفر طويل . سفر طال وقته جداً ما عدتُ أذكر متى بدأته، وَلَمْ خُصِّصْهُ، وما زلت لا أتذكر . متأكد أنه استمر طويلاً، فأنا أحسّ الآن بإجهاد شديد، جسدي لا يحملني إلا بصعوبة، والوَهْنُ دَبَّ في عظامي، أتكئ عليها فتكاد تتداعى كبناء خرب . طُفْتُ قبل الوصول إلى هنا في عشرات المدن والقرى . عبرت السهولَ، وصعدت الجبال، وتنقلت بين السواحل والغابات، وفي أصقاع أبعد . جُلْتُ، بَصَمْتُهَا بخطوي، وحرثتُ عمرانها وقفرها في عيني، ليس غرضي أن أكرّر لا مغامرات السندباد، في البر والبحر، ولا رحلة جدي ابن بطوطة، الذي زعم أنه وصل في زمانه إلى الصين من أجل طلب العلم . مذ صممتُ العزمَ على خوض هذا السفر، وضعت في الحسبان شأنًا واحدًا، وهدفًا أساساً لا يُسمن في الحقيقة ولا يُغني من جوع، ويمكن أن يُثير السخرية عند مَنْ يبحثون عن المنفعة إلا في القريب العاجل . ففيما يكُدس البشرُ المالَ، ويكتزون الذهب والفضة، ويتناولون في العمران، قررتُ أن أمشي عكس التيار، فأكتفي، أنا الفقير لرحمة الله، بأن أجمع الحكايات .

هو قرار، كما ترون، ولعلكم ستقدّرون، زيادة عن أن فيه من الحمق مقادير، يحمل كثيراً من الادّعاء والمجازفة . فالحكايات

لها أول وليس لها آخر، وكما يعلم أولو الأبواب، تجمع الزين
والشيين، والمُفرَح والحزين، والفكر والعبر والذكر، تُقرب
الحبيب وتحفر البين، تلم الشتات وتنذر بالفوات. نعم، تجمع
النادر، وتونس السامر، لكن توقف من في الغي هو سادر، تُفطن
الغافل، وتنبه العاجل للأجل. طريقها رغم غرور السهولة وعر،
هي في مبناها شعر ونثر، وتجمع الحلو إلى المر، والحر والقر،
وكم تطلب من الصبر، وفي أفراحها وبُهرجها قد تجلب الضر،
لذا إياك بسماعها تغتر، أو همّتك بسببها عن الحياة نفتر، كما لا
تنس أنها فانية فتبطر، ولا بأس كلما سمعتها اترك ثغرك يفتّر،
ولذا تراني أتبعها من برّ لبر، أعول على السمع والنظر، وتحمل
تكاليف الدهر.

منذ ما لا أذكر، كما قلت لكم، غادرتُ بلادي البعيدة الآن،
ووصلتُ هنا، يعلم الله ما اسمه هذا البر، وإن ظاهره سهل
منبسط، فإني لأخمن من جباله المحيطة كم هو وعر، وأني إن
صبرتُ وعاندتُ وحفرت في تضاريسه، وغرث في تربته، ربما
واجد فيه من الحكايات المشتهى الفذ، والأندر. لا بأس لو
زدتكم علماً أن بلوأي بالحكاية قديم قديم الدهر وأكثر. عشقتها
من صباي، وفيها لقيت ملاذي ووجدت سلوأي. كل أنرابي
انصرفوا إلى ملاهيم وجادت عليّ وحدها في صباي بالقرب،
أما في الكبر فصارت حبيتي ومغناي، رغم أن هناك من حذرني
من مغبتها، فأجبت، يا هذا لكل شيء ثمته، ليكن، دعها تكن
مهوأي. يعجبون صُحبتني للكلام والخبر، وأعجب كيف من
تفاهات لعبهم لا يُصيبهم الضجر، أغريهم بالحلم والطيران
كاليمام فوق السحاب، فينزلون أرضاً قد استووا بالماء والحجر،

بيننا ها أنذا، كنت، وما زلت، ونَحْكَم، أخلق في الأعالي، كلما
أظلمت الدنيا يضيئها حكِّي كالقمر، والسرُّد من فمي خبرٌ يسري،
ومغنيٌ يعزفه وتر، تسمعه مني، أو تقرأه عني، أو تلقاه صدفة،
فأنت لا بد منه ستقضي الوطر، كل بُدِّي، من قديم وجديد
عهدي، وأنا حمال أسرار، لن تشبع مني، دَفْقُ أنهار، أن أسعد
إخوتي بني البشر، وهذه الرواية لو وجدت سبيل حكايتها،
ومغزى روايتها، ستكون أبهى والأغر.

وصلتُ إلى هذه البلدة بتيسير من الله، وصدفة عجيبة. فإني
وقد خرجت من حاضرة مراکش، متخماً بالحكايات، فهي مرتعها
وموئلها، قلت أسري عن نفسي خارجها، لأبدل هواءها، وأسمع
غير نغمتها، تملأها سريعاً من التكرار، ولما يُداول فيها من قصص
وكلام، وجدته أقرب إلى الدجل والاحتيال، منه إلى السليقة ولسان
الحال. قلت أقصد أرضاً بكرةً أرْفُدُ من حكايتها لعلِّي أجدُّ زادي.
فاتفقَ وأنا في ظاهر المدينة أن التقيت رجلاً أثارني شكله، أشعث،
أغبر، لحيته بين السواد والبياض، ولباسه مهترئٌ من شدة الرثاثة،
تحسبه يتسول، حين اقترب مني، فگرت سيطلب صدقة، وإذ عيناه
تنظران إليّ بذهول. رسم علامات في الهواء، كأنه سيباركني
وهنهم بنصف كلام:

- من أنت، وإلى أين؟

أجبت: أنا سلام، واحدٌ من رواة هذا الزمان، أمشي في
الأرض أجمع الحكايات، وأبيع السلوان والأحلام، بالمجان،
أما طريقي فلا أعرفها، يقودني إما حدسي، أو رفقةٌ أجدها كيفما
اتفق؛ وسأبقى إلى أن يأخذني قدري إلى رمسي؛ فماذا عنك
أنت؟

أحنى رأسه فوق صدره العاري تُبصر فيه وشماً بارزاً أقرب
لصورة امرأة وعادَ يرفع إليّ نظره الذاهل:

- أما أنا فالمولى عزّ وجلّ وحده أعلم بحالي، منذ أن
خطفها مني ذلك المسخوط في سوق رفاة، بنت عمي، وفاتحتها
فُرت مع أبيها، هي في عنقي، وأيّ زواج لها خارج عصمتي
حرام، وقد فعلتها، دمها إذن حلال!

تجنبْتُ سؤاله ما الذي يوقنه أنّ ابنة عمه خُطفت منه، وهي
ربما تبعَت هواها، عشقت سواه، قلت هذا خيط سيجرّ إلى
خيوط، إلى حكاية جديدة، وإنّ عندي مثلها إذ هي قصص العشاق
لا تنتهي، طيب والآن، ماذا أنت فاعل؟ سكّت برهة، أراه يمضي
في سبيله أمامه يستجمع جسده المهدوم، قد لفّ حوله ثوبه
المهلّ، إن شئت نأخذ الطريق سوياً قبل أن يحلّ المغيب، ويشد
قرّ الليل في الجبال، فإنّ خطوتي إلى حيث بلغني نعتٌ عنها تعرّفت
عليه، فمنها آخذٌ ثأري منهم، قلت لنفسِي، ومنها قد تجد صيداً،
أو أنا من هذه الخطوة لك بداية حكاية أخرى تضعها في جعبتك،
إنما شرطي إن تمّت وتحقّق لي المراد، أن تنقلها حرفاً، وترويها
صدقاً، فإني أعلم أنكم أنتم الرواة تزيدون وتبالغون، وتقلبون في
الأخبار وتعيدون. في ساحة جامع الفنا بمراكش، هي، كما لا
يخفاك، مجمع الحكّمي إن لم أقلّ الشعوذة والبهتان، سمعت أخباراً
لا تخطر على قلب بشر، كنت أجلس إلى حلقة فأسمع صاحبها في
كلّ يوم يروي حكايته على وجه، يزيد وينقص منها على هواه،
فلما انتهى يوماً سألتُه خفية عن الجمهور، ألا تخاف الله، لك في
كلّ يوم رواية وعلى لسانك يتلوّن الكلام كالحرباء، نقص
الأهوال، وتلعب بمصائر النساء والرجال، وتهزّ العروش وتتحكّم

كما تشاء بالآجال، بينما رب السماوات والأرض من بيده الأعمار
وتدبير سائر الأكوان والأحوال، ولا يكفيك هذا، فتستخفُّ
بالحلقة، تحسبهم قردةً وأخفَّ عقلاً من البلهاء، إذ ترفعهم يحلمون
ليل نهار بأعالي الجبال، وفي رمشة عين، تنزلهم إلى أسفل
سافلين، يفتحون عيونهم، ها، على الهباء!

فنظر إليّ وقال لي الظاهر أنك من أهل الله، ممّن يصدّق كلّ
ما يسمع ويُقال له، يا رجل، أنا مضطرّ للتعديل والتغيير، وحتى
الكذب والتحوير، وإلا انصرف عني الناس، وإلا كيف لا يملّون،
تراهم يُقبلون عليّ بعد وأنا هنا منذ عشرة أعوام، ومنهم من بات
يتدخل بنفسه فيزيد من رأسه، فَصَلَّ على النبي العدنان، أجبته غيباً
اللهم صلّ عليك أرسول الله، وطلب مني أن أكمل طريقي إنه يرى
في عيني دماً، وهو ينهاني، وقد لاحظ ارتعاش يدي، عن فعلٍ أندم
عليه، وما رأيي لو قصصت عليه حالي أو رؤياي قد يُشفي القسّ
غليلي ويعوّضني عن ما فاتني، فهربت منه كأنه جُذام، وها أنا كما
ترى ذاهبٌ لأخذ حقي، هناك في بلدة معلومة هي أمامنا، نبلغها
بعد أمزميز، إن شئت تعالَ معي.

هكذا يا سادة يا كرام وصلتُ إلى المكان الذي منه سأروي.

- 8 -

وكذلك وصلنا إلى البلدة المقصودة. عانينا من أجل هذا في
الحقيقة عسيراً. سرنا طويلاً مشياً على الأقدام، وقليلًا في حافلات
تكتظ بالركاب، مع سيلل مُحَمَّلة بالدواجن والبيض والبقول. مالنا
شحيحٌ، زيادةً عن أن السّواق ما أن يروا هيئة رفاقي إلّا ويصيبهم

النفور، ناهيك عن الروائح المقرزة لَمَن ولما يحملون، ومنهم،
لأمر ما، مَن يتشائم فيُسَمِّل ويُعوِذَل كمن يطرد الجان. قد غاضني
منهم هذا، ووجدت لهم كذلك العُذر. فإنَّ الرجلَ كان يصُدُّر عنه
أحياناً فحيحٌ كالشعبان، وتارة يقاقي كالذجاج، وإن مررنا بشعب
ومرّت فوقنا سحابةٌ ينحرف الجبل فيهوي علينا التراب. ولما آذاني
هذا منه، قرّرتُ أن أتَحاشاه، فغفلته لَمّا ذهب يقضي حاجته،
وتسلّلت هارباً، صرت أهرول، أظنّ قطعت كيلومترات بعيداً عنه،
فما لبثتُ أن وجدته يمشي قدامي، كذي قبل، وإنما أنا متوهم أو
في منام، حتى إني خلخلت رأسي، وضربت بصخرة في الطريق كي
أوقنَ أنني في صحوٍ لا منام، أو ربما هي نوبةٌ كالصرع تداهمني
حين أهُمّ بتأليف الحكاية وحبكها، يشطّ بي أحياناً الخيال، منه
أتصورُني أطيّر، مثل الولي الصالح في ضاحية مراكش، مولاي
إبراهيم، الملقب بطير لجال، أعيش مثله في خلوته الاختيارية
بجبل «كيك»، ضريحه الآن بعيد وإلا لقصدته، كما يفعل كثير ممّن
يُصابون بالصرع، ستكفي عبارات قليلة ليأتي الله بالتيسير؛ سيقول
لي مقدم الضريح: «هاد الملحة دبرها في الماكلة [الأكل] وهاد
التراب خوّضوا في الماء، ورشّ به باب الدار، دابا يجيب الله
البركة».

إلا أنّ هذا المصروع الذي أمامي، لن تنفع معه بركة أيّ وليّ،
فهو صمّم على أن يثار للقبيلة، يحسب أنه في قانون الغاب، أو ما
كاين مخزن في البلاد. كاد يوقعني في مصيبة، بعد أن خرجنا من
أمزميز، وجدنا دوريةً درك تتشبّت من هوية وأوراق السيارات
والشاحنات، ولم يلتفت إلينا أحد، لولا أنّ الغمد المتدلّي خارج
جلبابه الرّث لفتَ نظر دركي فقفز إلينا: ما هذا؟! من أنتم؟! طوّقنا

الدرك ولقونا بحبال وتجمّع حولنا الشّواق، ولما فتشوني وجدوا في
مِرودي لبدة الصلاة، وقميصاً ونعلًا، وكتاباً غليظاً مجلداً ورقّه
أصفر وحروفه دقيقة، مكتوبٌ بالخط الرّقي. لما فتحه الدرّكي
الأدجودان [Adjutant] رأيتُه تجمّد في مكانه، عيناه ترمشان سريعاً
جداً، ويداه ترتجفان، فسقط منه المجلّد، وهروّل نحو زميل له
همسَ في أذنه فأقبلا عليّ يسألانني: ما هذا؟ وهما يُعيدان لي
الكتاب، فهمتُ قصدهما في الحين، فأنا صاحبه وأعرف سرّه.
طمأنتهما، متخذاً سَمَتِ التأمّل والوقار، سيطول شرحه يا إخوان،
استعيذا أولاً من الشيطان، فإنّ هذا السّفر لا يبين إلّا بعد الجهد
والمكابدة في العبادة وعمل الخير وحب الله، ونبيّه وصحابته
الكرام، لذا ترى حروفه تتلّمل تحت بصر غير أهله، ولا تمنح
سرّها إلّا للمتّقين وأصحاب الدّراية من خلقه، فاتّقوا الله لعلّكم
تُفلحون، فما نحن إلّا من أبناء السبيل، أنا بائعُ أحلام وهذا
المسكين، كما ترون، مجدوب، حاله يعزّز على الكافر، فكيف
بالمؤمن، أثّر عليهما كلامي، حتى انحنى الأدجودان على يدي،
يطلب بركتي، تَقَلْتُ في وجهه كما يفعل السادة الشرفاء في وجه
العامة ليشفوهم ممّا تسلّط عليهم من بلاء؛ قلت له حاجته مقضية
بإذن الله، ولأطمئنهم أكثر سحبتُ ما في غمد رفيقي قلتُ انظرا
لتأكدا أنه ليس على ما يُرام، همهمت في خاطري شيئاً وأنا أسحب
فإذا ما كان خنجراً مشحوداً يقطع أعناق الفيلة لا لذبح البشر،
حسب، ينقلب في يدي إلى قطعة من خشب، فترنّحاً أمامنا لا
يملكّان نفسيهما من الضحك، وعلى صدر بعضيهما يخبطان، ثم
على رُفقة آخرين فهقها يناديان، وتجمّع حولنا قومٌ كثير، كأننا في
إحدى حلقات جامع لفنا الذي تركناه وراءنا، وها هو يتبعنا بسبب

هذا المهبول، والحيلة التي انطلت عليهما، على الجميع، فالخنجر حقيقي، والكلام وحده هو الزائف، ألهاهم عن تفحصه كما ينبغي، وهذه حرفتي على كل حال، ولولاها لمت من الجوع، وقهرني الملل، وما كان من الدركيين أخيراً إلا أن أطلقا سراحنا، وزادا فزودانا بطعام وماء، وحمدنا الله فما فات هراء.

انصرفنا بعدها أنا ورفيقي، قرّرت أن أسميه لهيل، طلبت منه أن نفترق، قلت له أسمعك بحكاية «ما في كل مرة تسلم الجرة» قال لا، قلت أحكيها لك شرط أن تبعد عن سبيلي. وافق بهزة من رأسه. صرت أدور حولي، أتلفت يمينه ويسرة، أتقدم وأتأخر، وأصلي على النبي، وأدعو السامعين أن يلبوا، فسمعتهم أو ظننت أنهم يلبون، ثم أعدت حركاتي، وأخيراً قرفصت وصمت كأني أفكر قبل أن أطلق لساني بالحكي. اسمع يا هذا، واسمعوا جميعاً هذه القصة، فهي ذات حكمة عظيمة:

«إنه كان لراع سمن جمعه في جرة معلقة في كوخه. وبينما هو ذات يوم جالس في كوخه عند غروب الشمس، وهو متكئ على عصاه، أخذ يفكر بما يعمله في ما اجتمع عنده من السمن، فقال في نفسه: إني سأذهب به غداً إلى السوق وأبيعه وأشتري بشمه نعجة حاملاً فتضع لي نعجة أخرى ثم تكبر وتلد لي مع أمها نعاجاً أخرى وهكذا إلى أن يصير عندي قطيع كبير، ثم أتخذ أجيراً يرعى غنمي وأبني قصراً عظيماً ومتى كبر ولدي أحضر له معلماً يعلمه القراءة والكتابة وأمره بطاعتي واحترامي فإن لم يفعل ضربته بهذه العصا. ورفع يده بعصاه فأصابته الجرة فكسرتها وسقط السمن على رأسه وثيابه وضاع التخطيط والأحلام سدى. فحزن لذلك حزناً شديداً».

أنهيت حكايتي فخطبني لهليل: وما علاقة هذا بي، فأنا لا أطمع في ثروة، ولكن في قصاص، ومن أجله مستعد أن أضحي بنفسي مرات، لا مرة واحدة، وانظر هذا، جرّد ما بغمده، سيف حقيقي، لا كما صورته للجندرمة، إذا أردت هات عنيّك أجرب فيه، إنه أمضى وأقطع من كذبك. ثم أراه يتقدّم نحوي بخطوة ثابتة دافعاً سلاحه، يحركه بين وجهي وصدري، فأيقنت أنه مهبول، قد أكلت مئة الحبيبة الهاربة، يظنها مخطوفة، ومن حسن الحظ مرّت بنا قافلة، فاضطرّ أن يوقف هبله، وسرنا معها، ننتقل من سوق إلى سوق، ومن قرية إلى أخرى، كان كلما مرّت بنا امرأة، اشرأب بعنقه، وجحظت عيناه، فلكمه أحد أفراد القافلة وكاد يغرس فيه خنجره، لولا فككناه منه، واعتذرت بخفة عقله، وكانت برفقة الرجل ابنته، يقودها إلى وليّ صالح بقرية اسمها «فم الجمعة» لينزع عنها ثفاف العقم، كما أخبرنا، ادعى لهليل بعدها أن بها شبة كبيراً من حبيبته الضائعة، فنبهته إلى حكايتي، ألم أقل لك إنه ما في كل مرة تسلم الجرة، كانت الفتاة فعلاً على قدر من جمال وطلاوة أنساني حالي، وشردت لبّي وشتتت بالي، لذا عذرت صاحبي، ولم أستفق من غيابي إلا عندما توقفت القافلة ونحن في ركبتها أمام مدخل بلدة عبارة عن بوابة كبيرة من خشب ونحاس، وعندها حراس عتاة.

- 9 -

رأيت الباب في وقت ومكان لم أقدرهما، ولا خطرا لي بالبال. باب من طراز معماري قديم، أقدم من أبواب فاس، أبي الجنود أو باب منصور لعلج في مكناس. لا تجد مثيلاً له إلا في

ما هو موصوفٌ في حكايات ألف ليلة وليلة، وهو في هذه الحكاية أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة، وما أراه أمامي منتصباً يشدّ البصرَ وهو ثابت، راسخُ البنيان، حجرأً، وحديدأً، ونحاسأً، وزليجأً بفسيفساء من كلِّ الألوان، وفيها أبيضُ أقرب إلى العاج أو اللبّان، مخرومٌ برسوم الزجاج لعراقي من أعلاه، وأقواس دونها، في شكل مداخل ثلاثة جدارنها فضيةٌ صقيلة، في الوسط منها حارسان عليهما جبة خضراء تنسدل حتى القدمين، فوق الرأس قلنسوة، ويدهما تقبضان رمحين طويلين. في الجانبين الأقصيين للباب انتصب جنديان عملاقان على كتفيهما البندقية، وفي أعلى موقع كلِّ واحد مدفعٌ رشاش. هنا أشكّل عليّ هذا المنظر واستهلّته، ولم أكن في الحقيقة إلّا في بداية العجب. ليس على يمين الباب ويساره سور كما يقتضي البناء، إنما هي تلالٌ وهضابٌ متفاوتة الارتفاع، مكسوّة بأشجار بلوط كثيفة، شديدة الاخضرار تراها من بُعد تلتفّ بالبلدة كسوار، ومن أعلى تنفك عنها حيث جبلٌ يشرف على البنيان. رفاقُ طريقي أناخوا بعيداً عن الباب، قبل أن نصل إليه، ورأيتهم ينصبون خيمة كبيرة، قالوا لي هنا نفترق، ما فرّق الله الرؤوس إلّا لترتاح، فتركتهم لم أستفسر، هذا حقّهم، والظاهر أنّ لهم عاداتهم، وليسوا مثلي غرباء عن المكان، كما أحجمتُ عن سؤالهم عن سرّ الباب هنا بلا سور، ولا كيف يمكن الدخول لمّا شاهدت أمامي طابوراً طويلاً قبالتّه، نساءً ورجالاً وأطفالاً رُضّع وفتيان، جميعاً يدخلون، أو ينتظرون الدخول، إنما بيّطء، الظاهر أنه ثقيل، ولم أغتطّ لهذا، فكرتُ أنني سأتخلص أخيراً من لهيل، ما زال لصقي كاني ولئي أمره.

كان الوقت ظهيرةً لأن الشمس ضربت رؤوسنا حاميةً، ونحن في شهر يونيو، ومن خلف الباب، حيث ترتفع صومعة جاء صوت الأذان، فانفضّ جزءٌ من الطابور للصلاة، سرّت معهم بعد أن تيمّمت صعيداً، لم أجد ماءً، أغلبهم فعَلَ مثلي، وأمنا رجلٌ لم أر وجهه، سمعته بعد الصلاة يدعو بالخير لحاكم هذه البلدة بالفلاح والصلاح، ويُسهّل لأهل السبيل الدخول إلى هذه الدار العامرة، فردّدتُ مع الجمع آمين. اصطفتُ إثرها في الطابور لأخذ دوري في الدخول، إن هو تمّ، الظاهرُ أمامي أنه عسير، الرجل وزوجُه وأولاده يرجعون مخذولين، يتبعهم آخرون باكين، أو ينههون خاسئين، وأنا لا أفهم سبب خذلانهم، يقتربون من شباك في الطرف الأيسر من الباب العالي، هناك أشار لي أحد العائدين، ستجد شيخاً معتماً يرتدي عباءةً مزركشةً أمامه منضدة عليها قراطيسٌ وأقلامٌ ودواةٌ ومبخرةٌ يحرسه رجل مثل صمصم ابن قمقم، تنتبه جيداً وأنت تقصده، قبالتَه، بينكما مسافةٌ هي أرضٌ ومرمرٌ كالماء، وماءٌ كالمرمر، ووخلٌ سيقول لك اقفز فوقه لتصلَ بعده إلى أرضٍ منبسطة، ويُبقي بينك وبينه في الأخير مقدار ثلاثة أقدام، هنا سيشتعل ضوءٌ أحمر يرنّ معه صفير يأمرُك: قِفْ، ستجد ظهرَكَ انحنى من دون إرادتك، ولسانُك من غير أن تحرك شفَتِكَ ينطق: بارك الله في عمر سيدي ومولاي. ينطلق صفير: اخرس! تخرس في الحين وتنتظر..

سألتُ الرجل العائد مخذولاً بلهفة، وقد طالَ صمته، لا يكمل، ثم ماذا؟ ماذا بعد هذا؟ صرنا حلقةً أحاطت به وهو في الوسط منا، يدور من حيث ما جذبه أحد، فنحن شعبٌ لا نتكلم بأفواهنا ولكن بأيدينا، ونواجهنا، ولذلك ننهش بعضنا، وقد كدنا

ننهش المسكين، صارَ القميص الذي على لحمه مِرْقاً بين الأيدي،
 يهذي بنصف كلمات، سمعتُ منها: احك، حُك، الحَك،
 لحماق، الباب، الباب، الكباب!! وجاء آخرُ مثله فالتفتنا حوله،
 نستفسره بالحاح ما المطلوب، ولا جواب، فالثَّ ورابعٌ، ولا نظفر
 بأيّ جواب، آخرُهم أشارَ بما يُفهم ولا يُفهم، قال إنه يطلب منك
 أن تجلس أمامه وأن تحلم، فلمّا قلت له انعم أسيدي كيف أحلم،
 رفعتُ عيني وإذا الشمس لا تزال بعد في كبد السماء، وقُرصها
 يتسكّع فوق المرتفعات، وشعاعُها يضرب عيني هي قُبالتِي، وهو
 تحميه منها مظلةٌ وعند رأسه من اسمه صمصم بن قمقم بإشارة
 يمكن أن ينقضّ عليّ، وأنا في هُزال هذا الجسم، جوعان؛ انعم
 أسيدي كيف أحلم ونحن كما ترى في واضحة النهار؟! فما
 أحسستُ إلا يدٌ تطويني تُطَوِّح بي في رمشة عين، معها إنذارُ أن لا
 أعود إلى هذا المجلس، كيف أتناول بالإنكار أمام السادة، أنا
 الشَّخَاذ، آخر السَّعيان!!

كنت في الحقيقة قد ترحزحتُ في مكاني، بدَرَ مني كاني أهمُّ
 بالذهاب، وإذ يدان غير مرئيتين أحسستُ بهما تضغطان على
 كتفيّ، تأمراني بالعود، وعينان هادرتان بالرعود. سمعتُ منه
 كلاماً، تهديداً، من غير أن يظهر له فم أو يتحرّك لسان؛ نطقً، مَنْ
 قال إنه صمصم بن قمقم هذا الذي على رأسي، فليس لك أن
 تتخيل أو تحلم بأكثر ممّا نسمح لك به، ونضعه بين يديك لتختار
 منه كما لو أنك في مطعم مع وجبة طعام، ثم نحن نُعدُّ لك حلمك
 ونتركك تبيت به، وتمضغه، إنما دائماً بمقدار، ونأتي لنوقظك كي
 تعود إلى رشذك قبيل مطلع النهار، ونذّت عنه صرخة مادّت تحته
 على صداها الأرض ونقّع الغبار، فخمّنت، بل أيقنْتُ أنني هالك

لا محالة، قد فات الأوان واهتز ما في ضميري من يقين وتزعزع ما ثوى من إيمان، أيقنت أنني أمامه هو ولا حيلة لي إلا التسليم، فإنني كنت قرأت ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي (ﷺ) قال: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض»، ومن أراه ولا أراه هو الدجال، والواقف على رأسه يأتمر بأمره دابة الأرض، قد حلت ساعتي، ولت أيام السرور، لا سبيل لي اليوم وربما غداً للعبور، وفجأة عم ضباب غمر المكان، ولا تقدر معه أنت في أي زمان، انتهزتها فرصة وتسلفت خارج الحلقة، أقول في نفسي يا هذا، ابتعد عن هذه الحكاية واطلب الأمان، وهذا ما نويت بالفعل وأود أن أفعل؛

تركتهم وانزويت، فهمت الرسالة ولم أعد في حاجة إلى التكرار، تفرق الطابور، تناثر أعضاؤه في الخلاء، كانت الشمس تميل إلى المغيب، وعلينا العودة للانتظام في اليوم التالي من الفجر ليَجْرَبَ كلَّ حظه لدخول هذه البلدة التي ما صادفت لها مثيلاً في تجوالي بأرض مراكش، قبل أن تُسمى بلاد الموحدين، هي أحوالٌ وألوان، ولا أعرف من أين خرج ولا جاء قرابون يدقون نواقيس لبيع الماء، وخبّازون ينادون لبيع الأرغفة، ومتسولون، عُرجٌ وعُميٌّ وبُصرٌ، وبمختلف العاهات، وبعربات، يدعون للناس بأطيب العبارات ونافع البركات، هم أجدر بالدعاء، ولما أظلم الليل أضيئ الخلاء بفنارات، وطاف من يجمع ما ادّعى أنه ثمن المبيت والإنارة وقضاء غيرها من الحاجات، يُدفع ضريبة للجماعة القروية الملحقة بالبلدة من قبيل الإتاوات، ومن لم يدفع

يُطرد في الغد من الطابور، وكذلك الاشتراك في ثمن وجبة وشاي وحفلة سمرٍ جماعية ستُقدم فيها ألوانٌ من الطرب والألعاب والرقصات لفرق حمادشة وعيساوة وهداوة، وجوقة أصلية لمعلمي كناوة، قادمة خصيصاً لترفيه الجمهور من شتى الآفاق والجهات، دُرّتها أهازيجٌ أحواش ورقصات أحييدوس، ربما يحضر فيها الرئيس موحا والحسين، سيتحامل على مرضه وينتقل من بلدته لقباب، وكذلك مرقّصو قردة، انفكّ منهم قرْدٌ يتسول الفستق فاشفت عليه، وأنا أتسلل بعيداً عن الهرج والمرج الذي قام فجأة لا يقلّ عن أيّ موسم من مواسم الأولياء والحصاد، كنت أهرب كذلك من لهيل لمحتّه عن بُعد يتلصّص على وجوه النساء، هل منهن مَنْ تشبه ابنة عمه الهارية، أو المخطوفة، ربما يعرض لحمه هذه الليلة لمن يسلّخه سلخ الماعز فيقيني إزعاجه إلى الأبد، وفطنت أنّ من مصلحتي الانزواء بحالي لأفكر في ما فاه به الرجل عن الحلم، تساءلتُ ماذا لو طلب مني الشيخ المعمّم، حارس الباب أن أحلم، وهو سهل، إنما بَمَ أجيب لو سألني أن أروي له، وأصور حلمي؟! عليّ أن أقضي ليلتي هذه في خلوة أمني نفسي بنوم عميق بعد إنهاك يوم سفر طويل، عسى الله أن يوجد فيه عليّ بحلمٍ لطيف أرويه غداً للشيخ، وبإشارة منه أصبح في الجهة الأخرى من الباب العتيد. تمنيت أن يحضر في الحين مَنْ كان قبل قليل عرض عليّ أن يحضر قائمة تشبه قائمة الطعام، أنتقي منها أيّ حلم أشاء من الأحلام، وعندئذٍ سأنفذ ما في رأسي، ومَنْ يدري، ففي الحلم لا يوجد أيّ محال!

طلعت الشمس وأنا في مقدمة الطابور. قايضت مكاناً قريباً
بتنازلي عن عشاء البارحة، اكتفيت بتمرّتين وجرعة ماء. هجم علينا
الحرّ والذباب والعطش في وقتٍ واحد عند الضحى، والشيخ رأيناه
يُقبل بخطى بطيئة، تحت مظلة يحملها خادمٌ نحيل كالعود يمشي
خلفه. ما إن استوى عند الباب إلّا ونبت كالجن، صمصم بن
قمقم، دابة الأرض، انحنى، أفسح له الطريق، لبيك مولاي.
تخلّص الشيخ بسرعة من عائلة وأربعة أشخاص سبقوني، عمالقة
القامة، أشداء، يمكن لَمَن لا يتوفر على دابة أن يستخدمهم عوضها
للحرث، فتراجعوا غاضبين، مرّوا أمامي بعد أن أصبحت الأول،
خفت أن يقضموني بين فكوكهم، أسنانهم نائلة كالمدراة، ينسحبون
وهم يتوعّدون. سمعت، وبينما كلي أملٌ ورجاء، سمعت كَمَن
جاءه نذير، أنت، أشار نحوي قمقم بمطرق يتوعّدني، فارتعدتُ لا
أحار صنيعاً، صرّتُ أرتجف في وقفتي، وأكاد أهوي من خوف
اعترائني، وخاصة بعد أن جدّد الإشارة مع أمر جاءني تهديداً: أنت
يا الـ. شتيمة عارية، حاشا السامعين، فنكستُ رأسي وتقدّمت مثل
من سينقذ فيه حُكمٌ بقطع رأسه، لا أفهم ممّا أخاف، ها هم لا
يدخلون وينسحبون مستسلمين، سأكون واحداً منهم، وانتقل إلى
بلدٍ آخر، أرض الله واسعة.

أنتِ زِدْ يا لفيقيه، هكذا خاطبني الشيخ فزال عني قرقي،
وانشرح صدري، انحنيت أول ما وصلت إلى منصّته أقبل يده.
سحبها مني يُنكر فعلي، ويستغفر الله، ويزيد أهلاً، ومرحباً، حسناً
فعلت، حللت أهلاً، ثبّت عينيه في عيني، لا تكادان تثبتان،

تتفقدان في مساحة المجلس ولا تستقران على مرآي تبتعدان. انتبه لي، سألني، تبين لا شك جَزَعِي، هل أعجبك المكان، هزرت رأسي إيجاباً، وافتتر ثغري بسمه جواباً، ظهر لي أنه وافق هواه فانشرحت أساريه، سألني بعدها هل أفطرت أم على الريق ما أزال، وهو يتناول من صحن أمامه ملء كفه قبضة تين وعنب وثمر، خطف بصري، واستثار أمعائي الفارغة، لكنني استحييت فادّعت أفطرت يا سيدي من كرم محيط هذه البلدة الطيبة، ومن زاد ترحابكم وبشاشتكم. أجايني في الحين، الظاهر أنك حيال، لا مثل هؤلاء الجوف الذين يمرون، جذوع نخل خاوية، منذ يومين وأنا أستقبل لا أجد من هو أهل للدخول إلى ديارنا، عندنا خلق كثير ولا نحتاج إلى زيادة، اللهم الثّقاء، أو الأذكياء، أو الذّهاء، نريد أصحاب العقول لا الثّقول، وكذلك الفرسان، الشجعان. اقترب قليلاً، اقتربت، فهمس، لا بأس بالحسان، ولم لا، حتى الولدان، أما الحور العين، فموعدنا معهم الجنة، فمن أنت من بين هؤلاء؟ وكيف تُزكّي نفسك عندنا؟ وهل لك أن تبرز من قدرك ما يعلمنا عنك، ويقنعنا، وقد استقبلناك، بقولك؟

- ما اسمك أولاً؟

- سلام، سيدي.

- سمعي بطيء، سلام أم علام؟ أنت تهرف إذن، أما تعلم أن الله وحده العلام، عالم الغيب والشهادة، وهو على كل شيء قدير؟!

- صدق الله العظيم، ثم حاشا سيدي أن أتناول وأنا في حضرة عالم جليل، وإنما قلت سلام، أي مسلم أمري لله ولكم. - هذا جواب العقلاء، يرضيني، وسأنقله لمن يعنيه الأمر؛

وانكبّ على ورقة يدوّن بعد أن غمس قصبة بيده في فمه،
فخرجت جافةً، فظهر عليه الغضب وصرخ إلى جواره صمسم:
- أنت يا حائط، هات التّون!

- ماذا يا مولاي، التّون؟ من أين آتيك بالتّون أو التّونة،
ونحن بين الجبال لا في البحار، ثم علمي مولاي أنك لا تحبّ
صنف المعلّبات؟!

- يا حمار، أقول لك التّون لا التّون الذي لعلّك تشبهه أو
مخّك الغبي. أقول التّون، وهي الدّواة كما جاء في قوله تعالى:
﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

أحضرها في الحال، وانهمك الشيخ يُقَيّد أو يخطّط لا أعلم
في قرطاس، وأردف:
- من أين جئت؟

ارتبكتُ وفكرتُ بِمَ أجيب، وأيّ الأصقاع أختار سيّرضيه
ليرضى عني، لا تكون له عداوةٌ مع سكانه، ما أدراني بتاريخهم
وتسلسلهم، فقلت الخير في ما اختاره الله، أفضلُ لي أن أتوكّل
على الصدق وأصرّح له بأصلي، ما خيّبني يوماً، وأنا به فخور،
ولتكن المشيئة في النهاية:

- جئت يا سيدي من بلاد تقع خلف هذا الباب، وبعيداً عنه
بمئات الفراسخ.

- بالطبع، فأنت ما زلت خلف الباب، الدليل مجلسي
بينكما، وهنا الحاجز بين عالمين، فأفصح إن شئت أن تلتحق
بنا.

- إذا سمح لي مولاي واستحبّ السماع. قصتي طويلة،
وسأختصرها في علامات قصيرة، إني أسمع من بالطابور

يُهمهون، ولا أريد أن أثقل على حضرتكم أو أبترَ حظوتي لديكم.

- تفضل، بحلو لي أحياناً سماع القصص، شرط أن لا تكون قصتك مملة، هه.

- أصلي من بني زروال، من قرية كُبرت اليوم هي لقلبعة، ولذلك ألقب مرة لقلبي، ومرة أخرى الزروالي. ويُذكر عن أهلنا أنهم قدموا من سجلماصة، ومن مولاي علي الشريف بالتحديد، وأن أصلهم من الدوحة النبوية، وهو ما وثّقه بالحرف الفقيه المؤرخ سيدي محمد البشير بن عبد الله الفاسي الفهري إذ ذكر أنهم يتصلون بنسب الرسول (ﷺ) من طريق الحسن بن قاسم أول قادم على المغرب من ينبع بالحجاز سنة 664...

... وهنا تلملم الشيخ في جلسته، وأمر صمصم أن يحضر كرسيّاً قائلاً لا يليق أن أجلس والشريف واقف...

من لقلبعة نزلت إلى غفساي، هي اليوم لا بادية ولا حاضرة، كأكثر ما بني حديثاً بهذه البلاد، صار شائهاً بمن يسكنه من عباد. منها نزلت إلى فاس زمناً، حيث أخذت نصيباً من تعليم ولطف حضارة ورقّة طبع، وعذوبة لسان، عدا ما يتمتع به المرء فيها من رؤية العواتق والحسان. وما غادرتها إلّا لما أحسست من تمييز في أهلها بين أنفسهم ومن يأتي من خارج أسوارهم، يسمونه آفاقياً، حرّ هذا في نفسي قليلاً، خفف منه أني وجدت بينهم فتیاناً كراماً، وكواعب أنرباً، وكأساً دهاقاً، وإن أنس لا أنس في فاس سمعت للمرة الأولى عجب الحكايات ولطيفها في باب أبي عجيسة، هو مدرستها لا جامع الفنا، توهم أهل مراکش، وقعت في غرام الحكيم، منه أسقى إلى يومنا هذا،

ومن فاس قادتني الأقدار إلى برشيد، عاصمة أولاد حريز، أهل زهو وهوس وخير عميم، وكنت أعرج على حاضرة الدار البيضاء، حيث صار لي زوج وأولاد، ولكن زواجي الحقيقي عقدته مع الحكاية، هي غوايتي تسبيني، ولذا اعتكفت زمناً في ضريح سيدي بليوط أستطلع أسرارها، وهي ما رويتها لمؤلف عصري اسمه، أظن أحمد المديني، وضعها في كتاب له عنوانه «براقش» ولكنه سامحه الله غفل عن ذكر اسمي، وعرجت على الولي سيدي عبد الرحمان، وسيدي محمد مرس السلطان، ولما فتحت فيه نصرانية حانة مشهورة سمّيت «براسري مدام غيران» نصحتني نزيلها أن أقصد مراکش لأجمع أخبار سبعة رجال، وهي مقيدة عندي كلها في هذا السفر، أخرجت مجلدي، وكما ترى يا سيدي، انتهى بي المطاف إلى بابكم العالي بالله، وجدته أشد إليه الرحال، كأنما بإشارة إلهية، يرافقني غنوة هذا المجدوب لهيل، الذي له حكاية تشيب لها الولدان -التفت فوجدته خلفي- وهذا كل شيء، يحفظكم الله يا مولاي.

- 11 -

لم أكن أعلم، وأنا أسرد نثفاً من سيرتي، وأزوقها ببهرج هواياتي أنني إنما أعقد حالتي، وأمنح الشيخ فرصة يخضعني فيها لامتحان لم أكن مستعداً له كما يجب، وإن توقّعت، لما أبلغني العائدون الخائبون ما تعرّضوا له من سؤالهم عن الأحلام. حسبت لما استلطفني الشيخ، وأفسح لي مكاناً للجلوس، أنني نجوت، وإذا بالرجل تقوى شكيمته، وينهض نافراً أمسك بصديريته عض أسنانه

عليها، لا أفهم ما أغضبه مني، وأي كلام فُهِتْ به في غير محله، اهتز له صمصم بجواره متحفزاً ينظر إليّ بجهالة، أحسبه ينتظر الأمر ليصرعني المطرق بيده بضربة واحدة. لكن الله ستر إذ بعد أن شَهِقَ الشيخ وزَفَرَ، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، قال:

- يا أخ العرب، حسبتك عاقلاً، مُتَزَنّاً، منشغلاً بسبيل التقوى وملتزمًا نهجِ الورع، ومنصرفاً لهما قلباً وقالباً، بحسب ما يظهر منك، ومن طموحك للنزول في حاضرتنا، والإقامة بين ظهراينا، وما أنت، كما سمعت، والحق لم أع بعد، ولذا أحب أن أستدرك، وأقطع الشك باليقين، تعلن بعظمة لسانك، دَلَّ لسانك لأراه، فدَلَّيته طويلاً ليراه (١) أنَّ عشقك كله للحكاية وهي غانيَّتُك ومنها تُسقى الغرام، وهذا يا سلام، فضلاً عن أنه مخالفٌ للشرع، مبعثٌ على الغواية، يزيغ بالعقل والناس عن المحبَّة البيضاء، وينزع بهم إلى الضلالة والهوى، بل الهوان، إنَّ هم اتبعوا أهواءهم وشهواتهم يَفْسِدُونَ. ثم أنت الذي لقن العلم في فاس، حاضنة الدين في هذا البلد، ألا تذكر قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَتَتْكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، وكأنني بك أيضاً نسيت خطابه إلى سيد المرسلين: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، فكأنني بك تجادل الخالق، هل عندك أحسن من الأحسن لتَقُصَّه على الناس، أم أنك إنما قلتَ منك اللجام فزيتت الكلام بما ظننته يُسَلِّكُك فجاء كما سمعنا على غير ما يرام؟!!

الحق، سَقَطَ في يدي، وبَهَّتَ الحلم الذي لَفَقْتُ لأحكيه جرياً على ما ظننتُ سيطلب، قلت هذا يتلاعب بي، وسأخذع أمامه، لا

بأس سارخي له الزمام، يا سيدي، وقفتُ وانحنيتُ معترداً: - يا سيدي، ما قصدتُ أبداً، وكيف لي أن أتناول على كلام الله، ورأسي كما ترى بين كتفي، لا أنا مجنون ولا هداوي، مجدوب، قلت هذه هي المناسبة لأفصح تابعي لهبيل، مثل هذا، أشير إليه بالسبابة، جاء إلى دياركم ليأخذ ثأراً ويسفك دماً، وأنا أمامكم منه بالله والشرع أن يبتعد عني ولا أعرفه من الساعة، وحضرتكم شهوداً. لكن كلامي لم ينطَلِ حيلةً على سامعي، اكتفى بالقول، سننظر في أمر هذا المعتوه في حينه، وربما لا يضرنا دخوله، حاضرتنا تحتاج كذلك إلى المهرجين والحمقى والمغفلين، وحتى المجانين، فإن الشيء لا يظهر ويتأكد إلا بضده، ولينجلي واضحاً للعيان والأفهام الفرق بين العقل والجنون، وندفع بمن يزيد عندهم منسوب العقل عن الحد المطلوب ممن يزعمون من يبددهم سيرُ الأمور إلى مهوى الجنون الكامل، وتركهم يطوفون في الشوارع حفاةً، عراةً، ليكونوا عبرةً لمن يعتبر؛ والآن ما حُججتك في ما جرّك إليه وعليك لسانك، أم يكون لهبيل عاداك، فماذا يا هذا، كيف يصدر مثل كلامك من أصيل المحتد، شريف القدر، سبط الرسول، إنك لتدخل في رأسي الشك وتقلب حسابي معك؟

- لا والله يا سيدي، تعلم أنّ اللسان لا عظم فيه، عنيتُ أنني أحفظ أحسن القصص، مذ صباي، كأنما رضعْتُها مع حليب أمي، لا مبتدعُ أنا، وإلا كيف بخالق، الله وحده من يخلق، وهناك متهورون يتحدثون عن الخلق الأدبي، والموسيقى، وتجديف من هذا القبيل، لعمرى إنه صنو الشُّرك، أنا منه ومنهم بريء براء، ورواية الأخبار وتاريخ الأمم إنما للفائدة وأخذ

العبرة، وحتى لو فيها كُفِّرَ فَنَاقِلُ الكُفْرِ ليس بكافر، وإن شاء مولايَ ألتزم أمامه بأن لا أحكي إلّا ما أنا متحقّق منه، وتناقله الرواةُ بالسَّنَدِ الصحيح، المتواتر، ولو شاء أقلع عن هذا جملة وتفصيلاً، اللهم أن يسمح لي بأن أتكسّب به فلنبي لا أريد أن أصبح عالّةً على أحد، اعتدت على كسب رزقي بذربة لساني، وتهويم خيالي، فإن شئتَ تخبرني فأنا جاهز.

- هذا ما كنّا سنفعل، هو تدبيرٌ جارٍ عندنا، شرطٌ لا غنى عنه لولوج حاضرتنا.

نطق بهذا من جهة غير معلومة صوتٌ لشخص لا يُرى.

- أتخسّبُ أننا في غفلة عن حوادث الزمان وما جريات الأمور خارج بابنا هذا، كله يصل إلينا، ونوثقه وعندنا خزائن من حكايات الأمم، كل ما جرى وسارت بذكره الركبان، اعلم أنّ لا بد لك من أن تزيد فيه، إمّا بالإضافة، أو التعديل، أو التعميق، على أن لا تعرّض مخزوننا لأي ضرر، فلننا أشدّ الحرص ما يكون على موروثنا، وانظر إلى بابنا كيف هندستهُ ورونتهُ، وتفهم، وإياك أن تفكّر في خداعنا، فحول كلّ كلمة تنطق بها، أو حكاية ترويها، جهاز إلكتروني يُغريها فيظهر صالحها من فاسدها، أصيلها من مستنسخها، والبالى من الجديد، قصدنا من هذا،

زاد الصوتُ الخفيُّ صعوداً، أحسستُ كأنه يخرج من حنجرتي، وأنا صاحبه أقول:

.. القصد أن نعرف هل يحمل الوافدُ حكاية يمكن أن تفسد حكاياتنا أو تُلحق بها ضرراً ما، حاضرتنا، لو تعلم محاطةً بالأعداء والجواسيس، يريدون زعزعة استقرارنا والنيلَ من عِراقة

حكمتنا، نسأل الله أن يكفيننا شرهم، ونحن من جهتنا نُعِدُّ لهم ما استطعنا من الحيلة.

ثم عاد الشيخ هو مَنْ يخاطبني:

- والآن، هات حكايتك يا سلام. كلي أذان، لنغنم سماعها قبل موعد أقرب أذان.

- نعم، أي نعم يا سيدي، حكايتي، طبعاً، نعم، هي ما علمتُ من حالي، وما تقرأ في وجهي، ممنوع عليّ أن أرويها يوم الأربعاء، وفي مثل هذا الوقت بالذات من الصبيحة، خاصة قبل صلاة الظهر، وإلا أخشى وقوع آفات وحوادث كوارث، فمنها، لا قدر الله، أنني لو بدأتُ أحكي بحرف السين، فقلت: سوف، وقبل أن أصل في نطقي من (سو) إلى حرف الفاء، هبت عاصفة غبار كثيفة غطتتنا، ولو قلت: يُروى، نطقت بالياء، فاهتزت الأرض تحتنا، ولو قلت، كفى،،،

انتفض الشيخ واقفاً:

اذكُر لنا فقط سَنَدَ حكايتك.

- السَّنَد، فد، ومثل مجذوب هلوست: مددا! مددا! وأنا فكرت في ما سيعجزه:

- مصدرها القرآن الكريم سيدي، وبالضبط سورة الأحزاب، وإذا شرعت في التلاوة: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا...﴾.

.. وإذا لا شيخ أمامي ولا صمصم، ولا طابور خلفي ولا لهيل، صرْتُ وحدي كأنما آدم في بدء الخليقة، ليس معي وقداми إلا الباب العالي طَفِقَ يتعدّد بالأشكال أمامي ويتلوّن، تارةً يضيق،

وأخرى يتسع طويلاً وعرضاً، انفتحت به شبابيك اشْرأبت منها
أعناقٌ، وتدَلَّتْ أيدي، وتجاوبت أنغامٌ وأصوات، أسمعها تنادينني:
- يا سَلَامَ تعال، طال انتظارنا لك، فتعال، منذ ما لا نذكر
ونحن لا نعرف ما يجري خلف هذا الباب، لا شك تحمل لنا ما
نتحرَّق له من شَيْقِ الأخبار، ومن الحكايات خاصّة ما يسلب
الألباب، ما كنت فيه منذ الصبيحة ورأيت ليس إلّا خُدعةً، مثل
الحكاية بالضبط، والآن، صَفَّقْ ثلاثَ مرات وفي الرابعة ستجِدُك
صرتَ بعد الباب، ثم تنال أفضل الثواب.

الفصل الثالث

على طول الطريق ورأسي يدور، ما انفكّ يدور، وعقلي مخطوفٌ بفكرة لا أعرف ما هي. أبحث عنها وأعود إليها، وأقول مع نفسي يا عباد الله، ماذا يحدث لي، إذا بقيتُ على هذا الحال سيطير لي الفرخ، وأنا هنا لأكسب عيشي، لا لأنقل محبوساً مع المهايل في سيطار برشيد، شهرته يُضرب بها المثل، يقول الواحد لمن يريد أن يحتال عليه أو يلعب بمخه، واش باغي تديني لبرشيد؟! وها أنذا كأني ذاهبٌ إليه، إنما بمحض إرادتي واختياري. هل لي اختيار حقاً، أنا مضطرٌّ للعمل، لأعيل أسرتي وأدبر مصروفي. شركة النقل التي عملتُ فيها سائفاً مدة خمس سنوات، بين الدار البيضاء وبني ملال، أشهرت إفلاسها، وسرحت جميع عمالها، لسبب لم نفهمه، هكذا بكلمة صغيرة فاه بها الباترون، المالك، وكأننا ذبان نشّر عليه وتفرّق، مع وعد بالتعويض في القريب العاجل، بعد عام لم يأت.

لما ذهبنا إلى المحكمة واجهتنا حقيقة مؤلمة. النقابة تفاوضت بالنيابة عتاً، ساومت بنا، ستدفع لنا الفئات، وتنال هي ما سمّته حقها في الدفاع عتاً، من دوننا ستأكلون الزلط، هكذا تحدّانا كاتب النقابة المحنّك، بجسمه الضخم كوحيد القرن، يحتاج إلى نهب تعويضنا ليغذّي حنكه، ويحدّق فينا بعينين كبيرتين بلا استحياء،

يزيد رافعاً يديه مهذّباً. عيني أنا انكسرت أمام زوجتي. أعود بعد طواف يوم كامل صِفْرَ اليد، فارغَ الجيب، نقتات على قُفّة أهلها. لذلك حين طرق المسعودي باب البيت وقَدَّم لي العرض لم أسأل أو أتردّد، ولا فَكَّرْتُ في المهمة ولا مدّتها، أغراني بأنّ التعويض جيد وهذا كلّ ما في الأمر، قلت هذه خبزة نزلت من السماء، فلا تضيّعها يا دحمان، وهل أنا في موقع مَنْ يفاوض أو يُشاطر! كومة ديون تتراكم على كاهلي فلم أنتبه لما سمعته من المسعودي، جاء كالشرط، واعتبرته مجرد تنبيه أو حرص ينبغي أن ألتمز به، أفضل، أصبحتُ مهياً خاصة لما زاد يشرح ويغري بأنّ رب العمل، الذي لم يخطر ببالي أن أسأل مَنْ هو، سيُضاعف لي، لنا الأجر، حين تنتهي المهمة، ولا سألت عن المهمة، وتتمّ على أحسن ما يرام.

لذلك اعذروني إذ أخبركم بأنّ رأسي تدور كالناعورة، بين طلوع الكلام ونزوله، الدخول فيه والخروج منه، من دون معنى محدد، أو بمعنى لا أبصره، ربما لا أفقهه، وإلا كيف أفهم المهمة؟ وما هو الشيء الذي سيتم على الأحسن؟ وأكثر من هذا الشرط الغامض؟ في كلّ مرة يضرب طنّ في دماغي، فأندم لِمَ لم أسأله ما معنى أنه مهما حدث؟ وأن أغلق فمي، بلع فمك، هكذا أمرَ بغلظة، ومهما حدث، أنت ما شفت أيّ شيء؟ أنت سائق، أنا أعرف أنك سائق ماهر، شهدت لك بهذا عند صاحب الشغل، خدمتُك الطويلة في شركة الكركدن للنقل السريع زكّتك عنده، وزدّت عليها أنك أمين، لا تخمر، لا تدخن، لا تخالط السفلة، ولا تفوتك الصلوات الخمس، لم يبقَ إلّا أن أضيف إنك ملاك، بالعربية أني تفاضيت عن خصال فيك لا تعجب، أنت أدري بها يا خويا دحمان، والله أمرنا بالستر، وأنت أيضاً ينبغي أن تستر

الآخرين، في حالة ما إذا . وها أنذا أحكُ رأسي، ولو وجدتُ
جداراً أمامي لضربته به لكي أفتحه وأخرج هذا الوسواس الذي
يسكنه، ولا أكفُ أسأل ما هو، وهو لا يتستلي، أو سأذهب
بإرادتي إلى سيطار برشيد، سمعت أنه لا يوجد إلا خيط بين العقل
والجنون، يمكن أن ينقطع في رمشة عين، وإذا انقطع، صرخ،
سيطير رزق أولادي، يستعيد وعيه، كاد يهوي فجأة بالشاحنة في
الحافة.

غادر دحمان الدار البيضاء صباحاً من محطة بن جدية،
ووصلت حافلة النقل آيت مزال إلى المحطة الطرقية باب دكالة
بمراكش، وهو يسمع أذان الظهر. لا غرض له هنا. بحسب
التعليمات عليه أن يقصد مباشرة باب الخميس، حيث العنوان
المضروب للقاء. هناك سيجد من ينتظره ليقوده إلى فندق قريب
للغذاء والاستراحة في انتظار الليل، فالانطلاق سيتم بعد صلاة
العشاء، من غير أن يُخبره بوجهته. في العاشرة ليلاً كبروا خمسة
عشر سائناً بالفندق، تهامسوا يتعارفون بسرعة، كل سائق قادم من
مدينة، ولا معرفة سابقة له بالباقيين. وصل شخص ذو بنية قوية، من
طوله الفارع، وعضلاته المفتولة، رغم الظلام وضع على عينيه
نظارتين سوداوين. عرّف بنفسه أنا نائب المعلم، وأيّ معاملة وكلام
تكون معي، بلا زيادة، بلا نقصان. أمر السواق أن يتبعوه. ركبوا
جميعهم حافلة صغيرة نقلتهم بعد أن قامت باستدارات والتواءات
في أزقة ومنعرجات ضيقة، تحت أبواب مقوّسة وأقواس هي
ممرّات، يفضي إلى خلاء واسع ينتهي بمرأب محاط بأسوار، على
بابه حارسان بزيّ خاص لا يشبه أيّ زيّ غيره، الأغلب أنه زيّ

شركة خاصة لم يرَ له مثيلاً من قبل. نزلوا داخل المَرَّاب حيث تربض خمس عشرة شاحنة: عشر منها مكشوفة، وخمس حمولتها مغطاة بقماش سميكة، بُني اللون، محصنة بأسلاك متينة تحكم عليها اللّف من كلّ جانب لتقيها من السقوط.

انبرى نائب المعلم لهم أمرهم بالوقوف صفّاً واحداً قبالة. أخذ يمشي ببطء كضابط يفحص هندام وانضباط جنوده. ينظر من فوق إلى تحت، ثم من تحت إلى فوق، وعند الوجه يحدّق طويلاً وينفذ إلى العينين إلى أن يضطر من يقابله ليغمضهما، وعندها إمّا يصرف عنه النظر أو يأمره بالوقوف جانباً. هو من يختاره سائق الشاحنة. هكذا أكملَ اختياره سائقاً لكلّ شاحنة: أنت خذْ هذي، وأنت هذي، والسادس، والتاسع، أبقاه مع أربعة من زملائه للشاحنات الخمس المتبقية، كلها مغطاة. لم يكن أحد يفهم ما يجري. مذّ التحقوا بهذه المهمة التي هي في بدايتها فقط، وهم في العمى والألغاز. لم يكن أيّ منهم قادراً أن يفتح فاه بسؤال، فشرط السؤال ممنوعٌ تلقّوه منذ البداية. بلّغ فمك، عبارة تظنّ في أذن دحمان، لا شكّ سمعها زملاؤه مثله. ربما سمعوا أفدح منها، أو سرّاً على كلّ منهم أن يحتفظ به من دون علم الثاني.

أيّ سرّ سيكون هذا؟ أيّ لغز يختبئ في عمل نقل بضائع؟ سمع إنها بضاعة ستنقلها من مراکش إلى مكان سيُعيّن لكم، وكفى. أنت تسوق فقط ولا شأن لك بالباقي. نعم، أنا سائق، وامتحنّتي أكثر من شركة، آخرها بلعت رزقنا، شرّدتنا بلا حقوق، ثم التقطت بدلنا آخرين كسروا إضرابنا واعتصامنا أمام الشركة، شهر كامل تعاوّنَت فيه السلطة مع سماسرة النقابة على كسر شوكتنا. هل رأيت مصيرَ أن تطلب الزعامة؟! هكذا خاطبني بشماتة صاحبي الذي جاء

يُنْقِذُنِي مِنَ الْبَطَالَةِ. لَا أَحَدَ فِي حُكْمِ الْعَاصِمِيَّةِ، كَبِيرًا وَصَغِيرًا، تَطُولُ زَعَامَتُهُ أَوْ رِيَاسَتُهُ، يَتَوَهَّمُ أَصَابِيحَ أَوْ شَهُورًا، يَنْظُرُ إِلَى قَامَتِهِ فِي الْمِرَاةِ فَيَرَاهُ عَمَلِقَاءَ، ثُمَّ يَرَاهُ فِي الْمِرَاةِ وَإِذَا صَابًا قَزَمًا، وَقَرِيمًا، وَنَمْلَةً، وَنَمِيلَةً، وَأَنْتَ يَا صَاحِبِي، سَائِقُ صَغِيرٍ تَتَحَدَّى شَرَكَةَ مَالِكِهَا أَمْلَاكُهُ لَا يَحْدُّهَا بَصَرٌ، وَلَا تَجْمَعُهَا خَزَائِنٌ، وَلَوْ أَرَادَ لَطَمَرَكُ فِي حَفْرَةٍ بِإِشَارَةٍ، بِنَفْسٍ، وَنَفَخَ فَتَطِيرُ أَنْتَ رِيشَةً فِي الرِّيحِ. سَتَذْهَبُ مَعَ الْقَافِلَةِ وَتَبْلَعُ فَمَكَ، وَتَرْجُ عِنْدِي مِنْ أَحَدِ أَوْلِيَائِكَ الصَّالِحِينَ أَنْ يَقِفَ إِلَى جَانِبِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْجَمَاعَةِ الَّتِي سَيَقَعُ عَلَيْهَا الْإِخْتِيَارُ؛ هَذِهِ آخِرُ نَصِيحَةٍ مِنِّي إِلَيْكَ.

لَمْ يَفْتَحْ فَاهُ بِكَلِمَةٍ، وَإِنْ انْشَغَلَ عَلَى أَيِّ أَاسَاسٍ سَيَتِمُّ الْإِخْتِيَارُ، لَا شَكَّ سَيَشْغَلُهُمْ بِدَوْرِهِمْ، لِمَاذَا يَخْتَارُونَ لِسِيَاقَةِ شَاخِنَاتٍ مَغْطَاةٍ، تَضَاعَفَ السُّؤَالُ لِمَا نَبَّهَهُمْ، هُمْ بِالذَّاتِ، أَنْ يَحْتَرِسُوا كَثِيرًا، انْتَبَهُوا خُصُوصًا عِنْدَ الْمُنْعَرِجَاتِ، لَا نَرِيدُ سَبَاقًا، لَا اسْتِعْمَالَ الْمُنْبِهِ، وَلَا رَادِيوً فِي الطَّرِيقِ، وَالْإِتْبَاهُ التَّامُ لِلذَّنَابِ الذَّنَابِ! جَفَلْ، لَا وَقُوفٌ إِلَّا بِأَمْرِ مِنِّي، وَمَنْ اضْطَرَّتْهُ حَاجَتُهُ فَلْيَتَصَرَّفْ فِي مَقْعَدِهِ، فِي مَقْعَدِهِ؟! وَإِذَا اعْتَرَضَتْنا نَقَاطُ وَقُوفٍ لِلْجَنْدَرْمَةِ فِي الطَّرِيقِ فَأَنَا مَنْ يَتَصَرَّفُ، اتْرَكُوا لِي هَؤُلَاءِ أَعْرِفْ كَيْفَ أَتَصَرَّفُ مَعَهُمْ، عِنْدِي دَوَاوُهُمْ، وَلِيَبْقَ كُلُّ سَائِقٍ خَلْفَ مَقْعَدِهِ، اللَّهُمَّ بِأَمْرِ صَارِمٍ مِنَ الْجَنْدَرْمِيِّ، عِنْدِي لَا يَجِبُ أَنْ يَتَعَدَّى جَوَابُكُمْ أَنَا يَا سَيِّدِي سَائِقٌ وَالسَّلَامُ، لَا عِلْمَ لِي بِمَا أُنْقَلُ فِي هَذِهِ الشَّاحِنَةِ، تَقْدِمُونَ لَهُمْ هَذِهِ الشَّهَادَةَ، وَزَعَّ عَلَيْنَا وَرَقَةً سَمَّاها الْبَرْمَسِيُّونَ [الرَّخْصَةُ] وَأَضَافَ، اطْمَثُّوا، فَهَذَا لَنْ يَحْدُثَ مِنْهُ شَيْءٌ لِأَنَّا فِي حِفْظِ اللَّهِ وَرِعَايَتِهِ، وَحَفِظَ مَنْ هُمْ أَكْبَرُ مِنْ هَؤُلَاءِ! وَالْآنَ، عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ، سَأَكُونُ فِي الْمَقْدَمَةِ، وَهُوَ يَشِيرُ إِلَى سَيَارَةِ رِبَاعِيَةِ الدَّفْعِ

عند مخرج المبنى، وظننت أنني لمحتُ داخلها شخصاً يتوهج في يده ما يشبه سيجارة، تساءلت هل يكون هو المعلم الكبير، ودارت برأسي وساوس خرجت من أيام عملي سائقاً بين الدار البيضاء وتطوان شمال البلاد، كل ما أرى الآن وأسمع يذكّرني به، مع الفرق أننا هنا قرب باب الخميس، وهناك كنّا في محطة الخنسيا بقلب تطوان. قبل أن أغادر في منتصف الليل، أي قريباً من وقتنا هذا، يحضر شخص لا معرفة سابقة لي به، يعلن أنه مبعوث من المعلم، هو يُحمّر عينيه في وجهي، ويقدم لي سلّة مُحكّمة الإغلاق يطلب مني أن أبلغ هذه الشّخيرة، وبلهجته، إلى الموطع الفلاني، وأن أضعها شرطاً تحت مقعدي، وأنتبه لها مثل مومو ديال عيني، ويشتمني مع هذه التوصية، للذين دبّاباك، وإذا لم تصل لأعلم من الآن، أنني، وتمرّر يده تحت عنقه، أفهم منها أنني لا محالة مذبوح، وفي كلّ سفرة تتكرر الشّخيرة، إنما مع مرسل مختلف، وحدث أن مرضتُ يوماً وتكلّف سائق آخر، هو من حلّت به المصيبة، قبض عليه الجندرمة، وقالوا له نبداً الحساب من الأول، ونجوت، المسعودي الذي أدخلني في هذا السوق هنائي وقتها قال إنني مرضي الوالدين، والآن، ماذا؟

– 13 –

لم أتردّد حين جاء العرض. عرضٌ مُغرٍ منذ وقت لم أتلق مثله. ما يعادل راتب شهرين في ليلتين، هكذا أعلن العارض. ليلتان وكأنك عملت شهرين، في المنام لن يحدث لك هذا. حتى ولو طلبت عليه سيدنا قدر، تبيت العوانس ساهرات حتى الفجر كي

يظهر لهن ليرفع دعواتهن من أجل جلب زوج يسترهن ويرد كيد اللواتي يعيرنهن بالبائرات، العانسات، لا أفكر في أختي القعيدة في البيت، احترت في أمرها، في كآبتها ووضعها، إنما هو تشبيه فقط. ليلتان تنقل البضاعة، قال، وتعود بالشاحنة، وتأخذ حقل، نصف منه قبل الطريق، والنصف الثاني تحوزه بعدها، بينما نحن في الشركة، ما زلت تذكر، ينتهي الشهر بخمسة، سبعة أيام على الأقل، ولا نحصل على الخُلصة، هذا لما كنت أعمل، أي قبل الطرد بسبب الإضراب، ورطنتنا النقابة لتشتهر على حسابنا، من دون إضراب لن تأخذوا حقوق التقاعد، نريد الخُلصة أولاً، لا التقاعد، وتظاهروا أمام الشركة وجاء البوليس وجمعنا، وفي 24 ساعة قدمونا للمحكمة بتهمة تخريب الملك العمومي، زعموا أن عمود كهرباء سقط في الطريق ونحن نتظاهر، لفقوا لنا تهمة المس بالأمم العام للإيالة، والتطاول على رموز العاصمة العليا، لأننا، كما جاء في الاتهام، رفعنا لافتة نطالب فيها تدخل الحاكم العام، أو سنبقى في مكاننا معتصمين، والشخص الذي اتصل بي في مقهى الحي في تراب الصينى معروف عندنا في آسفي بقربه من رجاله، أي يتجسس على السكان، على العمال، له نساء في الحمام والسوق البلدي، وفي المحطة الطرقية، يشمون رائحة من يحشرون رؤوسهم عنده في السياسة عن بعد كيلومتر، في ما هو أكبر من رؤوسهم الخاوية مثل علب القصدير المرمية. لذلك استغربت أن يطلب الرجل مني أنا بالذات تولي مهمة النقل الثمينة والغامضة في آن. بعد أن سُد في وجهي أي باب طرقتة، لا أريد أن أكون حاكماً، سائق شاحنة أو حافلة فقط أو لسيارة نقل مدرسية، أراها تعبر أمامي سيارات النقل المدرسي متكاثرة، متتالية، مثل قطار أو

أسطول، في الصباح ابتداءً من السابعة، وبعد العصر ابتداءً من الخامسة، أكون جالساً عند سُدة بقال الحي، وعيني إلى الطريق العام، من حيث تمرّ، فهي لا تدخل الأحياء الفقيرة، أبناء هذه الأحياء يذهبون مشياً على الأقدام إلى مدارس الحاكمة، هي في الحقيقة مدارس بشر فائض عن الحاجة هناك مَنْ سمّاه الشعب، يجمعونهم داخل أقسام كالصناديق، أربعين، خمسين، ستين، المهم أن يُحشروا داخل حجرة. ابني منهم، بينهم، لن تنقله أيّ سيارة، وممنوع عليه أن يتعرّض لأي حادث، لن يحضر من أجله الإسعاف، لا أمه، لا أختي، لا أنا، لا أحد في حيننا ينبغي أن يُصاب، اللهم أن يموت، وحتى كلفة الموت كبيرة!

لم أياس، فقصدتُ مؤسسة للتعليم الحرّ علمتُ أنّ أحد سواقها أصيب في حادثة سير. سبقتني حارسُها إلى المدير، وهو من جيرانني في الحي، مُؤكّد أنه وشوش في أذن المدير، فرفض هذا استقبالي وزاد يحذّرني من العودة. كلهم إذاً اتفقوا عليّ، هل أنا غول أم زعيم، وكيف لا تخاف أنت مني، قلت للرجل الذي جاء يعرض عليّ نقل بضاعة، نعتها بأنها بضاعة خاصة لناس خاصين، ومهمين، لماذا أنا، من سميتُموه في تراب الصينية بعدو الحاكم، وحذّرتهم الجميع من ورطة تشغيلي، حوّلتموني إلى نعمة جرباء وسط قطيعكم يا أولاد الـ... يا سي دحمان، اليوم وقت آخر، ونحن نعول عليك، مَنْ كلفني طلب مني أن أحضر له سائقاً كُفئاً وإنساناً شجاعاً، أي شخصاً مثلك، أصبحت الآن عندكم سيداً، ما كاين باس، وشجاعاً، لم أعُد جباناً ومخرباً كما اتهمني الوكيل العام في المحكمة، وأنزل بي عقوبة ثلاثة أشهر ظلماً وعدواناً، لأنني طالبُتُ بخلصتي، وها هي خُلصة شهرين تنزل عليّ مقابل

ليلتين، كما وعدني هذا السمسار الحقيق، نصفها مقدم، والنصف الثاني مع الرجوع، وبما أنّ عقلي يعمل أكثر من السرعة المطلوبة، تعجّبت لكلّ هذا، ففكرت أن أسأل صاحبنا لعلّني أكشف بعض السر، لا تكن فضولياً، صدّ تطلّعي، أنت ستسوق شاحنة من مراكش إلى بلدة في الأطلس، هذا كل ما يمكن أن أطلعك عليه، وبرفقة رجال شجعان مثلك، وستذهبون في الليل وتعودون في الليل، فهذا أضمن لمهمتنا.

لم تتوقف الأسئلة في رأسي وهو يطرد قلقي، أليس في مراكش سواق للشاحنات، هذه المدينة المفتوحة على جنوب المغرب كله، يأتيها السيّاح من العالم قاطبة، ينقلهم سواق مهرة على متن حافلات وسيارات اللونديروفر للمغامرة في قمم الجبال الوعرة، والتوغّل في الفجاج وكثبان الرمال، فتنتقل أنت حتى آسفي لتطلبني، أنا المرمي هنا في هذا الحي المنكوب، مجمع المنبوذين والعاطلين، والمحاصرين، كأنهم في قطاع غزة، ولماذا السياقة بالليل وحده، ذهاباً وإياباً، والنهار أفضل وأزيج، وما علاقتنا نحن بالمهمات، السائق ينقل بضاعة، انتهى عمله، هذه مهمته، لا، يوجد ما هو غامض في هذا التكليف، وهذا السخاء ليس لوجه الله، أسئلة قرأتها في وجوه رفاقي بفندق الغزلان، بباب الخميس، وحتى هذا لغز آخر، بينما المحطة الطرقية في باب دكالة، وأين هي الشاحنات؟

جاء من سمّي نفسه نائب المعلم واكتفى يُخبرنا أننا سننتقل بعد صلاة العشاء، والأحسن أن ننام قليلاً لأننا سنسوق الليل كله، أضاف معللاً فقط، أفضل لكم من النهار بحرّه الشديد، ونحن في شهر يونيو، وهو يتظاهر بالتأقّف من الحر، يمسح جبهته بكمّ

سترتة، الليل ستر يا رجال. ستر لمن؟ ولأي شيء يا رجل؟ طنّ السؤال في دماغي وأنا أقف قبالة الشاحنات في المرأب الذي نُقلنا إليه في خلاء وراء باب الخميس. لا يوجد إلا سيبان، بضاعتان يمكن الخوف منهما في هذا البلد، ويجران البلاء: العبرة، نعم الكيف والشّيرا، الحشيش بالعربية، وهل معقول أن تنتقل خمس عشرة شاحنة لتقطع مسافة طويلة ومعقدة بين السهل والجبل لنقل هذه الكمية الهائلة؟! وإما، لا، هذا تخريف مني، حتى لو كنت محشّشاً لا ينبغي أن يخطر ببالي أننا سننقل سلاحاً مهروباً، من أصحابه؟ ولمن سنسلمه؟ ولأي غرض يصلح كلّ هذا السلاح؟ بُحث بمخاوفي لرفيق لصقي، بادي الاضطراب، وعلى وجهه أمارات قلق.

- هل تظن، زعماً يمكن؟
- وأنت هل تظن، الله يحفظ؟
- مثلي مثلك، الله يحفظ وأكثر!
- وهل هذا معقول، أنت تزيد من رأسك؟!
- هل تستعمل الحشيش، ذقته أو تاجرت فيه؟
- لا، ولا أنا، وإذن، لماذا أنت وأنا، ربما الآخرون كذلك؟!

- إنما كلّ هذا السلاح لماذا؟ تنفيذ جرائم أم تسليح عصابات، هذا كثير!

توزعنا نحن سواق أربعة شاحنات ذات حمولة مغطاة. حمولتي فوق هذا كانت مسقفة، ممّا أنذرني بكلّ خطر، بين موكب الشاحنات نفسه إلى أربعة. حين اضطررنا للتوقف في نقاط الجندرمة ركزوا على الشاحنات العارية وحدها، بينما نائب المعلم

يلتصق بهم وربما رشاهم فتجاهلوا المغطية، أيّ أكرمهم، نحن السواق تعودنا على التدوير، ومن دونها لن تمرّ، أو اطلع للجبل كما نقول في غوصنا، إنما سلاحٌ بهذه الكمية فهذا أكثر من خطير، ولا سيما ونحن نذهب إلى الأطلس. عادت إلى ذاكرتي حوادث قربالة في منطقة أو بلدة مولاي بوعزة، قبل سبع أو ثماني سنوات، كنا سمعنا نحن الشباب، أغلبنا من العاطلين، في تراب الصيني، أنّ جماعة استولت على بنادق من القوة المخزنية هناك، وتمردت على ممثلي الحاكم. بعضنا اعتبر هؤلاء شجعاناً وفكّر في الالتحاق بهم. غيره قال هؤلاء مغامرون، وسيفنون كما فُني مَنْ قاموا بانقلاب في مصطفى الصخيرات، قرب العاصمة. أمّا أنا فأغلقتُ فمي لمحتّ مخبرَ الحي يُقبل جَذْبَتُهُ حاسّة الجؤسسة نحونا، وفي الحين سألنا، كأنه سمع حديثنا ويريد أن يصطاد بطعم خفيّ ألّقاء في وقت سابق، ماذا نفكّر في ما جرى بالأطلس. قاسم المشهور بولد الخضار أشار علينا في الحين بالانصراف، أجابه نحن نفكر في الخبز فقط، وتذكّرت كلام قاسم وها حضر مخبرٌ آخر بعد مُضي سنوات ليقترح عليّ هذه المهمة التي أنا فيها، أنا كذلك أريد الخبز، وها هو يعرض عليّ عملاً يإغراء ماليّ شرط أن أغلق فمي، وأن أصبح أصمّ وأعمى، وليته اشترط أيضاً أن لا يُزرع أيّ شك في خاطري، أو أن لا أتدخّل في ما لا يعنيني. ثم في النهاية أيّ ضرر سيُصيبني إذا كان هذا السلاح موجهاً لمتمردين، فأنا في الجهة الخاسرة، وهذا عمل مؤقت، سأعود بعده إلى حيّ البائس في آسفي، ربما يشغلني هؤلاء معهم إذا ربحوا، إنما لماذا أسبق العرس بليلة، هذا كلّ تخريف في دماغي، وحدي، كلّ تخريف!

أحتاج أن أجمع رأسي في عقلي، وأسيطر على هذا العقل، إن توقّر لي حقاً، داخل رأسي إذا أردت لهذه الشاحنة التي أسوق أن لا تسقط في الحافة. متأكّد، ليس النعاس ما يأخذ رأسي إلى الشرود، يسرق منه الانتباه إلى الطريق. توقف الموكب هنيهة، وجاء إليه نائب المعلم ينتبه لخطر ما يفعل، خطرٌ على الجميع، كأنك تنسى أن الجماعة ينتظروننا، وسالمين. هذا جنون، ما هذا اللغز من جديد: أي جماعة؟ ومن ينتظر؟ ما يدور في رأسي، لا ما أسمع هو المشكل. ليس عندي راديو، ولا مسجلة، وهذه الأصوات، لا، هذا أنينٌ، وحشرجاتٌ، وسُعالٌ مخنوق، يصعد من تحت الكرسي، من خارج الباب المغلق، من داخل ضجّة المحرك، شبه اختناق وهو يطلع في العقبة، ويظلّ يختنق، تظن أن يداً تضغط على عنق، تعصرها، والروح صاعدة عند مولاها، يتبع بعدها همودٌ، النَفَس سيتوقف، وقف، الشخص مَن كانت اليد تضغط على عنقه مات. هكذا قضى مسافة كيلومترات يتخيّل للصوت شكلاً، يراه جسداً بهيئة مفروزة، بأطراف وحركات، وهي تتشكّل أمام عينيه، ستغطي الزجاج قبالة مقعد القيادة، وإذا استمرّت ستملاها بالكامل، ستحجّب الطريق، ليسقط بعدها رأساً في الهاوية! وفزّ في مكانه، اخترقه كسكين حادّ سؤالٌ استغرب كيف تأخر؟ سؤال يلدُ أسئلة: الشاحنات، مَن تُرى أحضرها إلى مرأب باب الخميس؟ من أي محطة انطلقت لتصل إلى مراکش؟ لماذا تغيير السّواق، إذا كان لا بد أن تصل إلى وجهة محدّدة؟ لم يلحظ في المرأب وجود بشر ولا عتاد، بدا مقفراً إلّا منها.

والمحرك، وضع راحة يده فوق غطاءه فارتدت تحسّسه حامياً. هي
إذاً شاحنة وصلت للتو، وخلا سيارة نائب المعلم وإلى جواره
شخص لا يظهر وجهه، فالمبنى وما حوله قفرٌ كله، عند بابه
حارسان زيهما لا يشبه أيّ زيّ، واقفان كتمثالين نصّبا هنا من زمن
بعيد؛ ما كلّ هذه الألغاز؟ ولمّ؟

أسرعت مخيلته تعمل بسرعة قياسية. اقترنت في ذهنه
مشاهدات، آخرها لما توقفت الحافلة التي ركب من محطة درب
بن جدية في الدار البيضاء إلى مراكش عند بلدة بن جرير بسبب
مرور القطار في خطّ السكك الحديد، وكانت الطريق الرئيس مغلقة
لأشغال. يحضر المشهد في ذاكرته بقوة بسبب هرولة كلاب ضالة
هاجمت الحافلة متضوّرةً بجوعها، بعد أن طافت في حوانيت
الجزارين المصطّقين بذبائحهم على الطريق يحلّق حولها ذباب
كثيف، لم يكن لها من الذبائح نصيب إلّا الضرب بالحجر
والمطاردة، وها هي تريد أن تفتك بنا نحن المسافرين، وتقفز حتى
أعالي النوافذ بينا محرك الحافلة يحرن يستعجل السائق رفع حاجز
السكة الحديد لينهي وقوفاً طال وصار منذراً بالخطر، تعرّضنا له
قبل ذلك عندما توقفنا هنيهة بمدخل قرية سيد العيادي على
كيلومترات من حاضرة برشيد. في أثناء وقفنا الاضطرارية، هذه،
شاهد شاحنات منقولة في العربات الخلفية للقطار، ليقلّ إنه لم
يميّزها بالوضوح الكافي، التبسّت عليه بجرارات، ويخاف أن
يتورّط، بمدافع، جميعها آلات مغطاة بستاثر من خيش كاكي. إنما
هو أعرف بحجم الشاحنات، هذه حرفته، والآن أقرب إلى اليقين
لن يتردّد ليقول إنها هي تماماً من طراز هذه التي تمشي في
الموكب، وهي تشقّ طريقها صاعدة نحو جبال الأطلس. كادت

صرخة مدوية تعبر حلقه قذيفةً، قد هاجم بصره أو مخيلته ما تمثّل له اجتاحت عينيه الآن، على إثره نَبَتَ عرقٌ باردٌ على جبينه؛ فمن أين تخرج هذه الصور؟ أين سباتها طوال عام؟ مرّ عليها عام، فظن أنها أضحت وراءه، أنها انطوت في جعبة النسيان، جزءاً من ماضي ولّى ولن يعود، مثل كثير أحداث وهموم لا يتحمّلها القلب، ولا طاقة لأحد بوزر مواجهها، تنوء بها النفس عندما لا تجد والأيام تطوي بعضها من يواصل سقيها بمزيد التأسي على وجع مقيم، وجع تأبى حوادث الدهر إلّا أن تزيده تخشراً، ليعاني منها، هو وكثير من جيرانه، ومن سكان في الدار البيضاء، ربما تناساها ولا ينكر أنها كانت تعود إليه في بعض منامه، فيصرخ، أو يَغَمّ، أو يقضي ليله متقلباً في الفراش، حتى إن هنية زوجته لم تُعدّ تقبل الاشتراك معه في فراش واحد، وتفضّل حشية إلى جانبه.

كان في طريق العودة إلى بيته في وقت الظهيرة. يوم مشمس. يوم حارّ في نهايات شهر يونيو. في مثل هذا اليوم للدار البيضاء موعدٌ مع مدخل فصل الصيف، إن لم يزحف أحياناً بهجمة صهد تعرق له الأطراف، وتقوى معه الرطوبة فيضيق التنفس، وتفتح كلّ النوافذ على الأزقة، وحدها يمرّ قليل من الهواء، ونسمات أنهبّت ليلاً، وبتلقائية يحني رأسه وهو يتقدّم نحو داره، فساء الحي لمحنته وهو قادم، يفرض الحياء المشترك غصّ الطرف، بينما رؤوسهن تتدلى من النوافذ أو كوى، ينشرن غسيلاً رثاً، وإما يستنشقن الممكن من هواء ليخفّف عنهن تعاسة الإقامة في مساكن مغلقة أقرب إلى الجحور، وكثيبة كالمقابر. مع هذا الطقس الخانق، وفي ظهيرة كالיום، لا يمكن ارتداء إلّا أخفّ لباس. كذلك كان لباسه.

بنطال خفيف مدعوك، وقميصٌ أزرق باهت، ينتعل صندلاً من بلاستيك، ولحيته نابتة من يومين لم يُعرها اهتماماً. بيده قفّة التسوّق هزيلة المحمل، قادماً من درب كرلوطي، قاصداً درب البلدية، هنا سكناه قبالة الحديقة العمومية الخربة، بالأحرى أطلالها بعد أن تحطّم إسمنت كراسيها، وتأكّل ما عليها من خشب، أكثره انتزع ليصبح حطباً، ولشوى به رؤوس خرفان عيد الأضحى، هي الأحجار تُقتلع من الرصيف لتتحوّل إلى أثافٍ يشوي في فحمها باعة موسميون كوز الدرة، ودخانها حريق بلا مطافئ؛ فما بالك وقد حوّل شباب الحي الحديقة إلى إقطاع لهم، ويلّ لمن ينتزع فيها شبراً لقدم أو جلسة، هنا يتناولون أقراصهم وحشيشهم، ويعاقرون خمراً رديئاً وهم يقتسمون بينهم غنائم سرقات مخطوفة من عابرين أشدّ فقراً منهم، وأنعسَ حالاً، ثم يتفرّقون يقهقهون باستهتار كلٌّ إلى سبيل، إن لم تُداهمهم القوة العمومية جرّاء وشاية، أو حراسها يريدون نصيباً من المسروق، حقّ غصّ البصر. يتسامح هؤلاء البرهوط مع النساء وحدهن نهاراً في الفصل البارد، بهرعن إلى ما تبقى من حديقة اليباس، يلتمسن بعض أشعة شمس تدفئ عظاماً تهترئ، ليتشاكين من ظلم الزوج وحقّر الأيام.

مرّ قرب الحديقة واستغرب أن يراها فارغة في وقت اعتاد فيه متعطّلون الجلوس في جنباتها الخربة، تزجيةً للفراغ وانتظاراً لا أحد ولا شيء. حدث أن عثر بحجر فسقط أرضاً وتبعثرت خضار قفّته. حدث أن أحسّ، رأى أرجلاً تدوُسُه، وهو يرفع يديه يغطي بهما وجهه تفادياً لدوُس لا ينقطع، بينهما تنفرج أصابعه يرى من خلفهما أجساداً تهرول في اتجاهات متقاطعة، وجسده مُلقى في نقطة التقاطع. حدث أن سمع الصراخ، صرخات متناوبة، أخرى

متقطعة، فتتناوب، تعود لتتقطع، ورنين صفير يطول، صفير إنذار، من خطر مُحدد أو هول حصل. وماذا سيكون مثله في وضع النهار؟ لم تتزلزل الأرض، كما أحسّ ذات مرة من صيف سنة 1967 وهو بحَيّ بوشنتوف، حيث منزل عائلته، ومَرَبِ صباه. كان واقفاً، ربما يمشي، وانقلب على ظهره، أم بطنه، نعم، مادت الأرض، مشات وجات، هكذا جاء إجماع شهادات جميع سكان بوشنتوف، ودرب مارتيني، فوق خطّ السكة الفاصل بينهما، الأرض مشات وجات، غضب الله، إذا زلزلت الأرض زلزالها، سمع العويل وقتها والبكاء، والمسامحة يتنادى السكان، عندهم أنّ الساعة جاءت لا ريب فيها، وأخرجت الأرض أثقالها، المسامحة، نساء لا يتخطين عادة أبعد من عتبات البيوت يركضن حمقاوات، لاهثات، يتفقّدن الأولاد والأزواج، يومئذ تحدث أخبارها، ولم أكن عرفت شيئاً مثل هذا غير سورة الزلزلة، حفظتها غيباً مع قصار السور أيام المسيد، أذكر حفظناها وعصا فقيه الجامع تلسع لحمنا وتططق فوق رؤوسنا الهشة، تزيدنا إيلاً من زلزال لم نكن نفقه عنه شيئاً، إلى أن انقلبت على ظهري في درب بوشنتوف، قضى سكّانه ليلتهم كلها في الخلاء، من حُسن الحظّ كانت مقمرة.

هي الصرخات، لا يحدّد مصدرها، تخترق سمعه من كلّ ناحية، ولم يكن قادراً أن يختار أين يهرب، فلا بدّ أن يهرب، لكن، من ماذا؟ ماذا يحدث الآن؟ وإلى أين؟ كان قد تحامل على نفسه، بعد أن ارتفعت من فوق جسده الأرجل تدوسه، ورمى جسده أمامه ليقفز بين ما تبقى من الشجيرات القميئة للحديقة. ثم ليتسلل إلى الزنيقات الداخلية لدرب البلدية. ليتسلل أين؟ كيف؟ رغم خبرته الدقيقة بمسالك الحي شعراً أنه مُحاصّر، يسقط في كماشة،

يمينا، شمالاً، لا معبر. يبحث عن باب أقرب بيت، فإذا كل البيوت أبوابها موصدة، ليلج أحدها ويصعد فوق السطوح وربما بمهارة يصل أخيراً إلى بيته. كانت شاحنات زيتونية الخضرة، مغطاة بأستار أشد خضرة، تسد منافذ الحي، يقفز منها جنود يهرولون ببنادقهم بين أيديهم، تنأ منها سكاكين تلمع، ورؤوسهم تغطيها قبعات بنية تخفي الجزء الأعلى من وجوههم، من جرؤ على النظر إلى وجوههم، يتفرقون لينقضوا على طرائدهم، هكذا رأهم في البداية، قبل أن يطبق الحصار، ويتحوّل حضورهم إلى أكبر كثافة سكانية. نعم، هم العسكر، في هذه المساحة المهملة إن حلّ المساء، تعمرها دكاكين الجزارين والحوّاتين، بجوارها نساء يبعن خضاراً تالفة، أخريات يقتعدن الأرض، تقصدهن نساء غيرهن، محجبات أو سافرات، طلباً لإبطال سحر، أو تضبيع زوج، أو لفسخ إقفاف مفترض، قبل أن تغلق الدكاكين، ثم أغلقت، ثم طق طق طق، طلقات الرصاص، نعم، إنه القرطاس، الجميع يجري في كلّ ناحية، من هو هذا الجميع؟ جسده فيه ويحسن به يطير، يفلت منه هارباً ويسبقه لا يعلم إلى أين.

متى بدأت الحرب؟ ضد من؟ ولماذا؟ كان يسمع بعض كبار السن في «مقهى أنت عمري» يحكون في شريط ذكرياتهم كيف كانت كازا وكيف هي اليوم. يتذكرون أيام الرجال، يقولون كما ظهروا في أحداث مارس 1965، تلاميذ كازا لعزاز قلبوها رأساً على عقب، وساندهم آباؤهم، هؤلاء الأبناء هم رأس مالهم، هم تقاعدهم لغد مجهول، حين ستلفظهم المعامل، أو تنقذهم الحكومة تعويضاً لن يسدّ الرmq، الأمهات وقد سمعن ولم يصدقن إنهم ضوء العيون، وسينطفئ، والآباء قالوا إنهم عكاكيزنا غداً، وقد ظلّموا،

وبعد ذلك القرطاس، من الأرض يتفرّق، ومن السما يهطل،
والطايح أكثر من الواقف، ثلاثة أيام وإذا الدار البيضاء مقبرة.

اليوم نحن في شهر يونيو 1981، ولا تسمع إلّا القرطاس،
كل من حيّ يجري هارباً بروحه لعله يسبق الموت الذي يجري
ليلحق به، مَنْ استطاع إلى الجري سبيلاً وليس إلى الحج. القلط
بمّوء خانق كالصرير، مواؤها مناشير تحزّ اللحم حزّاً. الكلابُ
الضالة، أيضاً، تجري، الكلاب التي اعتادت أن تتسقط عظاماً
يرميها الجزارون وفضل سقوط كيف لها أن تفهم ما يحدث ويحلّ
بمرّبع عيشها ومصدر قوتها، إن لم يفهم البشر نفسه. هذا كلب يجرّ
وراءه قائمة تدمى يتبعه كلب، يليه ثالث في خط هروب متماسك،
متضامن. حفّزه المنظر فقلّده، لا فرق هنا في الحفاظ على النجاة
من الموت بين الإنسان والحيوان، هي غريزة البقاء. لحق بها، أو
سار بينها، وحين أخذ يقترب منها أكثر نفرت عنه تبتعد، صارت
حزيرة من هذا الآدمي الذي هو أنا، وهو في صورة عسكري يلاحقنا
ويطلق الرصاص على مَنْ يرى ولا يرى، أعمى، تحسبه مثل جميع
من يهرب، لا يعلم إلى أين، ولا يعنيه كيف يطلق الرصاص..
فيما هو يصل أخيراً زاحفاً على الإسفلت إلى مدخل فرع ضيق،
كان يسحب جسده فوق أجساد رجال وفتيان، مَنْ دماؤهم تسيل،
أو مثقوبة أعضاؤهم بالرصاص، ومنهم من يجرّهم الجنود من
أرجلهم وأيديهم يدفعونهم أمامهم بكعوب البنادق نحو الشاحنات
التي تسدّ المنافذ، وعويل نساء من قريب وبعيد: «أعطونا رجالنا!
قتلتهم أولادنا! الله يأخذ فيكم الحق، واك، واك أعباد الله، آجيو
اتشوفوا عسكري حاكمك يقتل أولاده!».

لم نمن ليلتنا. جمدنا نختلس النظر من خصاص نوافذنا.

ممنوع علينا فتحها، نتلصص فقط. ربما انتصف الليل أو بعده، لم أنم لأقول إنني أحلم لما سمعنا من جديد هدير محركات. هي شاحنات، خرج منها من وجوههم تظهر عن بُعد كأنها مغطاة بكمّامات. ثيابهم في هيئة أكفان من بلاستيك، يرشون غبرة على الأسفلت تراكمت فوقه أجساد. أجساد من تركناهم أمس هناك، لم ينجوا من هلاك لم نعرف سببه. شرعوا يقذفون الأجساد في جوف الشاحنات تباعاً. طلع النهار ومعه رائحة مبيدات الحشرات أو مثلها ستطلع معها الأرواح. ساحة السوق والحديقة مفضوحة بفراغها تماماً، عدا بقع لزجة، حمراء وسوداء. ساحة البلدية أقفرت كأن لم تكن يوماً محفلاً ضاحاً سوقها عامرة تضج بالأصوات، بالبائعين والمشتريين، تصخب مساومات وضحكات، وحتى بمعارك جانبية سرعان ما يتدخل خيرون لتهدئتها، وصبية يدورون بكؤوس أتاى، ودخان شواء لذيذ يغطي جانباً من الساحة، أعدّ لأسرة تحتفل بحصول ابن على الشهادة الابتدائية، آخرون هنا تراهنوا مقابل تناول لفطور برؤوس الغنم، وكوارع البقر، يجلسون على كراس وطيفة وطعامهم فوق طاولة بأرجل متململة، تحتها بقع دم، وبقايا لزجة من أحشاء. الساحة مبقعة في الصباح الذي تلا هجمة العسكر ببقع دم كبيرة، ببقع لزجة، ببقع حمراء، بدوائر لما تزل سائلة، تغمس فيها أيد أصابعها وتسحبها إليها بمائها كأنها خراف نُحرت للتو، وتراجع الأيدي، القامات، تخاف أن تسأل لمن هي.

وأخيراً طلع النهار وتعالى النواح من أكثر من زقاق وبيت في الحي. نساء افتقدن أو فقدن الابن أو العائل. حين التقينا في المقهى سمعت روايات محيرة، أقواها أن القوة تدخلت وأرسلت

خصيصاً لتُفْشِلَ إضراب النقابات. لَمَّا فلت الزمَامُ اندلعت مظاهراتٌ واصطدامات، والحاكم لا يسمح بالفوضى فأُنزل القوات لمطاردة المخربين، واعتقل وقتل العشرات أو المئات. سيان، ثم عاد وكنَسَ الشوارعَ منها، وها أنتم ترون، ختم المتحدث الساخر في «مقهى أنت عمري»، وهو إمَّا رماها في البحر كما حدث في سنة 1965 أو عَقَمها إلى حين نقلها في وقت مناسب إلى مكان آمن.

وإذا؟! صفقت يداً بيد، توسوست أن تكون هي في ما شاهدت منقولاً على عربات القطار الخلفية في محطة بن جرير. هل تكون هي بعض ما أحمل، أنا وثلاثة من زملائي السُّواق في شاحناتنا المغطاة؟ هل هذه إذاً هي المهمة التي همَّهم بها نائب المعلم متخفياً بنظاريه السوداوين في قلب الظلام؟ وماذا يكون غيرها؟ عقلي معي كامل، ولن أذهب إلى سبيطار برشيد، فهذه الآثاُت تتواصل، وخلفي أسمع مثل نبش، القسم الخلفي يهتَزُّ ليس فيه كما أعلم من أحياء، مثل الهرش، وهل الموتى يهرشون، أم يتحوّلون إلى فئران؟! لا تسأل، أنت أصمّ، أعمى، بلع فمك، قال المسعودي، وخلصنك غالية، مضاعفة!

- 15 -

استنفر المعلم لمباركي رجاله. صَفَّت الشاحنات يواصل دخوله واصطفافه، يرى نهايته إلى مدخل البلدة وما بعده، سوف يعود ليدقّق في الحساب. تخفّف من طقس الاستقبال، وبهرجة لقاء السلطة المحليّة، كان واجباً لا محيدَ عنه، ولا مناص من مجاملتهم، لم

يأتوا إلّا وقد تسرّب لهم خبر، رغم أن المهمة سرية جداً. لم يرقّ إليه شك في وجود مَنْ أخبرهم بقدوم موكبهِ، الجندرمة في الطريق، ويحتمل آخرون، ما يعنيني، عندي الأهم، وكلّ شيء ينبغي أن يمضي ويتمّ، كما طلبوا وألحوا؛ اسمع: «حَسَي مَسَي»، والصفقة معك لن تكمل إلّا حين تكمل، وينتهي الأثر، إنما لا بد أن يتمّ كلّ شيء في أجواء احتفال شعبي من باب التمرّيب لا غير، سيظنّ الفضوليون والنباشون أنّ ما يحدث بضجّة لا يمكن أن ينطوي على سرّ.

كيف؟ تصرّف، فأنت مراكشي تعرف فنون الفُرجة والهرج. عليه أن يتصرّف إن حرص على أجره. من البداية أدرك أنّ طريقه غامض، محفوف بالمخاطر وبرأسماله سيغامر به، سيقامر به في هذه العملية، صوّرها له المكلف ميسورة، لا تقلق، بضاعة وستنقلها من جهة إلى جهة أخرى، بأمن وسلام، لا تقلق، كلّ شيء تحت سيطرتنا ورقابتنا، سيكون تعويضك مُجزياً هذه المرة، أكثر من أيّ مهمة سابقة، لم تأخذ أيّ تسبيق، ثقتنا فيك اعتبرها تسبيحاً مجزياً، واغرس في دماغك أننا اخترناك من بين عشرات، كلّ منهم يسبح بالليل والنهار بفضل مولانا ويلتمس عطفه وأي بركة، إشارة منه تكفي وأقلّ حركة، ليُجيب شبيك لبيك أنا عبد مشرط الأحناء بين يديك، ثم يا لمباركي أخيراً هي خدمة ستقدّمها للإيالة العظمى وساكنتها، واسمح لي أن أهنئك مسبقاً فأنت أوّل من سنضع اسمه في قائمة أهل الحظوة والرضا الإيالي، اعلم هؤلاء سنزوّدكم ببطاقة تفتح لهم كلّ الأبواب، تخيّل جميع الأبواب؛ إنك لمحظوظ، محظوظ جداً يا لمباركي.

هل كان بمقدوره أن يجادل؟ يتردّد بين القبول والرفض.

يرفض ماذا، ومع مَنْ يتفاوض؟ حتى إنه لا يستطيع أن يسمي مَنْ يتعامل معه. لا يسمع مَن يلتقي بهم إلا إشارة لضمير الغائب، هو، قال هو، يأمرك هو، أمرنا هو، ويضيع في معرفة سَنَد هو، من كثرة ما تُحال إليه الإشارات والتعليمات، وتوضع له أحياناً صفات، ويؤمّن له بعلاّمة، كملفت انتباهه والتقط سمعه في عديد مجالس، بين كبار التجار، ومَنْ يتّسموا على القوم، ومن يسميهم مسامير الميدة، المتزلفون لأهل الحكم والسياسة كلهم وبإجماع، عدا كُنَيَات وألقاباً، ما سمّوا أحداً أبداً. ينطقون بها فتسمعها جهيرة، مفخّمة، يُحب الناطق بها أن يُعلم السامع بمكانته لدى هذا الغائب الذي لا يُسمّى، لا يتسمّى، هو عندهم، بينهم جلّ على ألسنتهم أن يُسمّى. لم يقتصر الغموض عليه، فانتشر كالعدوى، أو قرار أصدرته إدارة على جميع المصالح التقيد به، فصار يسمعه في كلّ مصلحة يطلب مسؤولها، لا يجد مَنْ يخاطب باسم محدد، وأقصى جواب يتلقاه إنه هو ليس هنا، وهو في اجتماع، وهو ذهب عند هو، وأنا لا أستطيع أن أخبر هو بوجودك لأنه منعنا جميعاً من الاتصال به لأيّ سبب حين يكون في اجتماع مع هو.

تمهيداً للمهمة جاء المعلم لمباركي شخص غامض، كني نفسه الوسيط. التقى به في مكان هو مَنْ حدده، ويحرص على أن يغيّره باستمرار: مرة مقهى؛ أخرى باحة مسجد؛ طوراً حديقة عمومية؛ لقاءهما الأخير تمّ في فناء صومعة حسان، مثل أي سائحين جاءا يكتشفان آثار الموحدين في عهد يعقوب المنصور الذهبي، ويتظاهران بالإعجاب لما يريان، لا سيما والمرافق يحمل آلة تصوير تطوّق عنقه، فيما وهما يتهاوسان، يتبادلان أسراراً غامضة. كان قد قرّر في هذا الموعد أن يضع البيضة في الطست مع

محاورة، عمليتان كبيرتان أنجزهما ولم يتقاضَ التكليف، يسمع التسويف، وأصبح ينفق من رأس المال، نعم هذا المال راكمه من صفقته، يسميها ضربته الكبرى في المسيرة الخضراء، صفقة العمر، إنما وصلت الموسيقى اليوم إلى العظم، لذا قرّر أن يواجه الوسيط بصراحة، وبشراسة، وإن راوغه كما في مرات سابقة سيطلب منه مقابلة الكبار مباشرة، وهو يريد التعرف على هؤلاء، رغبةً تنهشه، يريد الاقتراب منهم، ليزيد سنّداً إضافياً، وليتباهى على أقرانه، هذا زمن التباهي، المال وحده لا يكفي، لا بدّ لك من الجاه، من الفخفخة، وليكن زبداً وفقاعات، إنما هذا تدبير الوقت، لكن لم يسعفه الوسيط لما خطط، وصل متجهماً، تجاهل أن يبدأ بالتحية، كالعادة.

جلسا بعد جولة قصيرة في فناء الأعمدة الأثرية لحبّان، في المدرّج الخارجي خلف الصرح العالي لضريح محمد الخامس. لم يكن ليجرؤ على الشروع في الكلام قبله. يتركه يبدأ، ويُصدر التعليمات، ويقترح مبلغ الصفقة، هو مَنْ يأمر، ولا يقبل المفاصلة، جأراً فيه مرةً أنا لست بقالاً، إنني مجرد وسيط، إن شئت خاطبهم هم! ما جرؤ على سؤاله من هم، كلما فكّر في هذه الخطوة أحسّ بحبل يجرّه إلى الوراء، وتخيل نذيراً يحذّره إتيك. يستولي على مخيلته ما سبق أن بلغه وتداوله كبار التجار ولم يصدقه، عن ما جرى لرفيقه في المهنة مقاول مراكش الكبير، الشهير بـ«نص بلاصة»، تأخرت عليه مستحقّاته من صفقات مع الحاكمية العظمى، استشاط غضباً حين ذهب يطالب من مسؤول كبير فيها استخلاص نفقاته، أزد وأرعد، وهدد، فما كان من هذا المسؤول، اشتهر يقول في المُلَمّات إنه مطيع لا غير، عبد مشرّط

الأحنك، عبارة سائر تُحْدِثُ الحَاكِمَ العام، أمهلني لأقرب مناسبة وسأرفع الكلام إلى السَّدة الحَاكِمِية العالية بالله. وذاك ما تمّ. عقبها في رمشة عين، على ما تداوله جهابذة الرواة في مدينة مراکش، انقطعت فيها البهجة تلك الأيام، نُقِلَ «النَّص» من بيته الفاره ليُلْقَى به، كما جاء في القرآن، إلى غيابة الجبّ، عبارة عن بنية مظلمة بمترين، حُبِسَ فيها لتجاسره على أسياده، ووصلته رسالة تقول أو تبُولُ عليه يا ابن الأسافل من أين لك كلّ ما تملك وتطلب، أليس من هبات الحَاكِمِية العظمى؟! لم يجرؤ أحد أن يترجى له إلى أن شفّع له صاحب الشأن، بعد أن لحس جميع أملاكه، ومات غمّاً بعدها بأيام.

عقلتُ أمرِي في جلسة صومعة حَسَّان. لا، لا أريد أن ألقى مصير نصّ بلاصة، شَمَتَ فيه كلّ عابر سبيل، وحُسادِي أعلمهم أوفرّ من الفقر في هذا البلد، من مصلحتك أن تنقذ المهمة بدقّة وسرعة، وتكتّم السر، وتنسى بعدها أننا كلّفناك بأيّ مهمة، ثِقْ بنا، إذذاك لن ننساك. هذا آخر ما فاه به الوسيط قبل أن يحدّد له المُراد.

.. فاتجه يستنفر العمال، أمرهم، أولاً، بإقامة ساتر عالٍ بين الطريق والمباني على الجانبين، وكان أحضر لذلك مئات أمتار من البلاستيك المقوّى بلون رماديّ قاتم، وأنّ ينجزوا العمل في يومين لا أكثر. ونبّه بعدهم عمال الحفر، من سيتولون قلب الإسفلت، قال لهم إننا سنغيّر له الحصى ونبدله بِقار جديد، وأمر، فانزلوا من شاحنة طاحونة حصى كبيرة، وأكياس القار، أمر نائبه أن يجلب له من البلدة جماعة من العمال لديهم خبرة في حفر الأنفاق، ستجدهم في الموقف، حرفتهم هنا حفر الآبار، هؤلاء مثل عمال المناجم،

أحتاجهم، لا يخافون من نزول القاع، إن سألوكم ماذا سيفعلون، تجاهل سؤالهم، قلّ لهم الخلصة مجزية وسيتبعونك كالعبيد، سيحيطون بك جماعة، تخيّر منهم الأصحاء، وكلّ ذي جسم نحيف. الخطة مرسومة في ذهنه والمطلوب الانتقال إلى التنفيذ دون إبطاء. عليه أن يحفر في وسط الطريق نفقاً طويلاً صالحاً ليمرّ منه مائة أو أكثر، ويمكن أن يستخدم لغرض آخر، لغرض لا ينبغي أن يتحدث فيه مع أحد. سيتولى الحفّارون هذا العمل بعد يومين، ويحصلوا أجرة معتبرة. بعد الحفر سيتكفلون بسدّ مدخل النفق، يبدأ من مائة قدم عن مدخل البلدة وينتهي إلى مخرجها في المنعطف الخارجي. عندما يكتمل هذان العملان الأساسان سوف أكلّفك، يواصل أوامره لنائبه، بشغلٍ إضافي ليس من طبيعة هذه الديار، لا شك عندي سيُدخل البهجة على ساكنيها، وينبغي أن نتركه لهم علامة طيبة يتذكرونها بها، هذا ما اشترطه ونبه وألح عليه الوسيط، أعاد وأكد، هل أحتاج أن أوصيك؟! لا أحتاج أن أوصيك بدوري نبه نائبه، ولكي تحقّق العمال على بذل أقصى الجهد وأحسن الأداء، أشيّع بينهم واحداً، واحداً، لا مجموعة، أن معلّمك الكبير يعدّ كلّ عامل على حدة بتأشيرة للحج مع تذكرة سفر إذا أتقن العمل، وخاصة إذا أغلق فمه صار أبكم، أعمى، وكلّ من سأله عن ما يجري في منطقة الحفر والطريق أن يجيبه بأنك تدخل إليها وأنت تتذكّر، وإذا خرجت تنسى كلّ شيء، لذلك الله وحده يعلم ما جرى ويجري.

تذكّر المعلم لمباركي أخيراً أنه لم يتفقّد بعد العدد الكامل للشاحنات، وشرع يعدّها، قلنا إنها 14 يخاطب نائبه: ها 1، 2، 3، توقف عند الرابع ليتأكد أنّ غطاءه مُحكّم جيداً 5، وعند الشاحنة

8، و10، و12، و13، و، ودارت به الأرض، وفقد العَدَّ، تراجع يحسب من البداية فلا يكْمُل له الحساب، والمرة الثالثة، ودائماً 13، أويلي، صرخ في نائبه، أمسك بتلابيبه، 14، أين هي الشاحنة 14؟ ألم أطلب منك أن تثبت من وصولها، بأني أعول عليك، مصيبة كحلة وزرقاء، سيكون مصيري أسوأ من نص بلاصة، سيقول الوسيط أنني بعته، لمن؟ ونبهني أنها ستكون فضيحة لو حدث أي شيء، وركض باتجاه مبنى القيادة ليعلمهم، ثم تراجع، تطفن، مهمته مبنية على الكتمان، أن تعلم السلطة هو أول الفضيحة.

- 16 -

دوائر صغيرة متباعدة فقط هي ما بقي محجوباً من الزجاج الأمامي للشاحنة. هو، الآن، في وضع مَنْ يرى ولا يُرى. كيف يواصل السياقة بحالة كهذه؟ ولو فكّر في هذا وحده سيتوقف في هذه العقبة الكأداء، وتنتهي رحلته، مغامرته التي ليست إلا في بدايتها، هنا. يسمع محرك الشاحنة يزفر مختنقاً ومبحوحاً، يصارع الصعود في علو شاهق، لا قبل له به. أي سائق هو، شهد له مستخدموه بتطويع الطرق ونقل أي صعب. علمته التجربة أن معرفة الطريق تشحذ المهارة، وتربط بينك وبينها ضحبة ومناورة، وفي الأخير عندما تعتاد عليها تنساب أمامك، سواء سهلاً أو جبلاً، فتمضي تسوق كأنك لست خلف المقود، وألتك تنهب الطريق وحدها، قد أسلست لك قيادها، تنبسط ناعمة، مناسبة على راحة يدك، والطريق منبسطة إثرها في امتداد بصرك. ما زال يستطيع أن يُمَيّز في الغبش المتكاثر، يتكاثر أمامه، يستعين بضوء الشاحنة

التي تتقدمه، رغم التباعد المتصل للمسافة بينهما، لعل سائقها معتاد على المكان، وزجاجه الأمامي شفاف، الأغلب، أيضاً، أنه ليس متقاعساً مثله، خالي البال من أسئلة لا طائل من ورائها، ولا تبلغه أصوات وحشرات من الخلف، تختلط بالمحرك يزفر، تأتي وتذهب، مثل توجع امرأة في النفاس، أرْبِي، رَبِّي، رَبِّي، وتهدأ سَيَظُلُّ الوليد، لكنه يعاند، يُمعن في البقاء بالرحم لا يحب أن يخرج إلى هذا العالم القاسي على العباد، أخبرته أمه حين كبر بأنها تمحنت في مخاضه، الآن، وأنا أرى شقاءك، تعني مصاعبه في العيش، وعدم رضاها عن زوجته بالذات، أفهم لماذا تشبثت بكرشي أيها العصبي، هكذا أنت!

لا يملك إلا أن يضحك، قد رسب الحزن على وفاة أمه في نفسه، وها هو في هذا الليل تتلاعب به أصوات مجهولة، والدوائر المضيفة المحدودة تزداد قتامة. لم يعد يُبصر نور الشاحنة التي تسبقه، فهو آخر مَنْ في القافلة. لم يختَر هذا الموقع، نائب المعلم مَنْ وَزَّع السُّوَّاقَ، ووَزَّع معهم الشاحنات، بعد أن ركز على كل واحد من خلف نظارتيه السوداوين، عجباً، في الظلام، أنت إلى هذه، وأنت إلى تلك. لا بد من ملاحظة أنها من أنواع مختلفة، ما يصلح لنقل البضائع، لمعالجة الطرق، للحفر، لحمل الرمل والحصى والأتربة، وما يمكن استغلاله لخدمات متعددة، وكلها قابلة لحمل أربعة أطنان وما فوق، شاحنات هولندية الصنع من طراز DAF، واختاره هو لسياقة هذه الشاحنة المغطاة، وقف بجواره عند بابها ليصعد، لم يمنحه دقيقة كي يرفع الغطاء ليكشف عن محركها، ولا ليدور حولها فيطمئن، صنيع كل السواق قبل الانطلاق.

سمع الإشارة المعهودة: Roule! وكان قد سبق القافلة يقودها من مخرج المرأب يسوق السيارة الرباعية الدفع، ثم توارى عنه تماماً، أصبح في ذنب القافلة. والآن، صارَ وحده، إمّا لم يفكروا في انتظاره، وإمّا حسبوه يلتحق بهم، اضطرتّه حاجةٌ لا حيلةَ له معها. ففكر أن يستعمل المنبه ليشعر السابقين أنه عمي، أنّ عليهم انتظاره، لولا أنّ النائب حدّزهم إيّاكم من استعمال الكلاكسون، ومن السرعة، ومن النزول إلّا للضرورة القصوى، وحتى من قضاء الحاجة، أنحسُ ممّا لو كانوا في الحبس، إنما هي خبزة وخلصة معتبرة، قد لا تتكرر، حتى هذه الأصوات التي تضرب في الخلف، وأيدٍ يسمع لها دقّاً على الإطار الصفيحي الخارجي هل سيتكرر الدّق، في الواقع تحدث مرة أخرى، وكما أحسها بدأت في رأسه، وتدور، تدور، مثل أسطوانة مشروخة، هي مشروخةٌ وفي الوقت تُمسك سمعَه، تنغرس في سمعه مساميرُ بآنين، ثم وقعَ أقدام أم هي عِصِيّ تضرب سطح قُمْرة القيادة فوق رأسه، ومن نافذته اليسرى يطلّ عليه شبهُ رأس، يُطلّ رأسُ آدميّ، من اليسرى رأسٌ ثانٍ، تنظر إليه عيونُهما بفراغ، ثم بتفحّص، هي نظرةٌ تساؤل، نظرةٌ استغراب، نظرةٌ استكانة ورجاء، معها قدّمه اليمنى تتعثّر فوق الدوّاسة، وبين الدوّاسة والفرامل، ويدهُ تكاد تفقد السيطرة على المقود، لا خوف، هي صورٌ تتلاعب أمامه أشباحاً وخيالاتٍ في الظلام، يخترعها خياله ترافقه في المنعرجات الجبلية الوعرة، تخفّف من وحدته، وليعترف، من خوفه أيضاً، لا من العجنّ، فقد صقّى حسابَه مع هؤلاء منذ نهاية طفولته، حين كان يتزعم عصابة فتيان الحي بدرب البلدية تنطلق للهجوم قبل السحور في رمضان على أولاد درب مارتيني، يضعون أفنعةً لفقوها ورسوموا عليها صورَ حيوانات، منها

الحقيقي، ومنها ما تخيلوه، ومنها يذكر صورة جنّي، من وقتها أصبح هو الجنّي، ودخل في عالم هؤلاء، أفلح عن عبثه بعد أن وبّخه والدّه، حدّره اعلم أنّ الجنّ مذكور في القرآن، كان يحفظ منه بعض السور فقرأ عليه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادِي﴾، وأسمعك أنت تعيب وتمسخ خلق الله يا كافر! وإذا لم يكن هذان جنين فمنّ هما؟

أطلّ وجه ثالث، من جهة اليمين، الرابع على اليسار، امتلأت الواجهة الأمامية بوجوه يتبيّن بها بصعوبة وهي موجودة تحقيقاً، لأن يداً لمست وجهه، ويده، تتحسّسه كأنما لتعرف هل هو آدميّ، أي من لحم وفيه نبض، وهو يسمع الهمس بينها. الآن، بعد أن أوقف الشاحنة أو وقفت وحدها، كلّ ما يعلم أنه أحسّ بارتخاء، على إثره انسحبت قدمه بتراخ وهو يميل بحذر إلى يمين الطريق على حافة منحدر تتصل فيه الأشجار في خطّ يلتوي إلى ما لا نهاية، أو بعض ما ميّز في الظلام الدامس، ليس متأكداً تماماً أنه من انحاز يميناً، لما شعر بضغط دفع لا يتحكّم فيه، ترك الشاحنة تميل، والمحرك يخفت صوته، ولا يبقى في هدأة الليل المطلقة، والظلمة الحالكة، سوى الهمس، سوى الوشوشة، ويحسّ ببابه تفتّحه يد لا يراها، وأخرى تسحبّه، وينزل ويدور حوله ثم خطوة، فأخرى، كمن يمشي في منام، بينما هو صاح، موقن من صحوه، يرى قامة شديدة النحول أمامه، ووجهاً مستدقاً برأس طويل، ومن جوفه يصدر صوت رقيق جداً كالخيط، أو الخرير؛ صوت يخاطبه هو ويطمئنه هو لا تخف فأنا، نحن آدميون مثلك، أعني كنا آدميين، وصرنا كما ترى أو يمكن أن تتخيل إن لم تر، لا تخف، نحن الذين كنا ننثّ ونهمس طيلة الطريق، ناديناك فلم تسمعنا، نريدك أن

تعتقنا الآن، نعلم أنك بريء، سائقٌ عُرضت عليه مهمة، وطلبوا منك أن تقود هذه الشاحنة إلى بلدة نون أو نونة أو لا ندري، ساعدنا على إزاحة غطاء الشاحنة ليخرج إخوتنا، فهم هنا داخل توابيت منذ شهور، أنت محظوظ نجوت من تلك العشية، -نجوت من ماذا؟ من القتل في واضحة النهار، أو نسيت؟! - لا، ربما، نعم، وإذا خرجوا من التوابيت أين سيذهبون؟ سننطلق في الغابة، في الجبال، الأرواح تعيش دائماً في الأعالي، بينما تبقى الأبدان في السفوح، نعم، ربما، أزحت الغطاء، بل مزقته ونزعته كلياً، وتعاوننا على إخراج صناديق سمّاها مخاطبي توابيت، كانت خفيفة الحمل، وهم في خفة وبياض الملائكة الذين سمعت دائماً أن لونهم أبيض، ورأيتهم يتوغلون داخل الأشجار، يطلعون الجبل، بعدهم أعود أسوق شاحنتي وأصل أخيراً إلى البلدة، أجد نائب المعلم يسدّ المدخل بجسده، صرخ كالمطعون لما رأى الشاحنة فارغة!

الفصل الرابع

أخيراً، ها أنذا خلف الباب العالي، ما زال الشك يساورني،
حقيقي هو أم من صنّع خيالي؟ والشيخ، هل رأيتُه فعلاً، أم تراءى
لي؟ أضع خطوتي الأولى في بلدة نون، نونة، لست أدري، اسم
كهذا أنا متأكد لم يسبق لي التعرف عليه في خارطة الإيالة العظمى.
حيثما تنقلت فيها تجد من يستبدل الأسماء القديمة، كأنّ هناك خطة
مدبرة لمحو الذاكرة، بل هو تدبير مبيت. مرة تسمع من يقول
يحدث هذا بسبب الاستعمار السابق، مرة أيضاً هي عصبية القبائل،
عادت لتنتقم من المدن، أعيانها وأفخاذها يُحيون أسماءهم، في
الحواضر والبوادي، على حدّ سواء، وينفخون في جمر ثاراتهم.
أريد الدخول بهدوء وتحت الستر، وإن كنت أعلم أنني لن أنجو
ممن سيحشر أنفه أول ما يراني، فضول عام لن يفلت منه أحد،
العادي أمام البرّاني، ينتزع المقيمون في الحواضر والبلدات
المستنبطة، أغلبهم طارئون، لأنفسهم حقّ مساءلتك عن تاريخ
أجدادك، ويريدون تتبع سلالتك وصولاً إلى آدم عليه السلام، رغم
أن الموجود اليوم أخلاط في أخلاط.

تقدمتُ خطوات أخرى داخل البلدة أتمنى أن لا ألقى هذا
العنت، وأعود إلى سيرة الأجداد، كأني أدفع عني تهمة ثابتة من
غير جريمة ارتكبتها. أحد أقربائي في الدار البيضاء ممن أزور،

وكم أستغرب كيف يتحمل العيش في هذا المصنع المفتوح من السيارات والسردين والضجيج، يذكرني دائماً بأنه يفضل حياته هذه رغم قسوتها، على أن يُنظر إليك مشتتاً به في الأطراف، في القرى النائية، ينظرون إليك مثل الثور الأبيض، تبقى برّانياً لأنك ببساطة لست ولد لبلاد. وحيثما ذهبوا يحيلون الدنيا إلى لبلاد وهم يتحسّرون في عيونهم بريق حنين، وما هي إلّا قفر وفقر ومرعى شحيح. وضعي أصعب، أقول له، رغم أصولي الواضحة، لا أخفيها، وأطلعتكم عليها، أجييه، فأنا لست ولد أيّ بلاد. أقول في رأسي أرض الله واسعة، وأسرح فيها، لا بكوني رحالة كما تظن، وإنما هي غواية الحكاية تمنعني من الاستقرار، مثل خبزي، بل هي خبزتي أضطر للبحث عنها بالانتقال من مكان إلى مكان، بينما أنت موظف تنتظر راتبك الشهري مثل أيّ عاجز، أمّا راتبي منها فلا يعدله مبلغ.

منذ أن أرمي كالصياد على حافة النهر خيط الصنارة إلى مَنْ يتحلقون حولي، بالكلمة الأولى، صلوا على النبي المحبوب، يتجاوبون معي، اللهم صلّ عليك يا رسول الله، متحمسين بصدق، أو أحمي الجو حولي، فأضبط الميزان، أتخيّر من بين قصصي وهي أنواع وألوان، أكون قد أرسلت من يتلصص على حلقات الجيران، ما يروون من حديث، طريف، أو من أخبار سالف العصر والأوان، وإذذاك يا سيدي يسرح اللسان، يأتي على ذكر أخبار الإنس والجان، ما جرى إمّا لعثرة أو سيف بن ذي يزن، بين الفياقي والقفار والوديان، بين الفينة والأخرى، أتوقف أجّد الصلاة على النبي العدنان، أبغي تنبيه الغافل وإيقاظ الوسنان، ولا بأس ممّا يتكلف صبيّ جمّعه من أهل

الإحسان، ليس كُديَّةً ولكنها ضريبة الاستماع ويُخور للمكان، وكلما ظهر لي الصيد دنا من الطَّعم زدتُ تشويقاً بالحكي والبيان، تكون الحلقة قد صارت ألفاً من الأذان، قد ألهمتُ شوقها وأمسكت لَهْفَتها من كلِّ عنان، عندئذٍ أحلق بهم دقائق هي كالدهر مغامرات بين المتع والأحزان، وأخيراً أشفي هذا السامع، وأواسي المحبَّ الولهان، وذاك أغويه إن بقي في نفسه شيء من حتى، بأنَّ الحكاية في أولها، وهي تمتدّ على الأقل شهراً، هل غششتكم يوماً يا إخوان، حاشا، ينكرون، إنك في القصص سلطان، كيف، بربك، يا صاح، على ما ترى من حالي، وترحالي بين البلدان؛ كيف ترى أن يكون لي عنوان؟!

نظرت حولي، وقررت بارتياح، هذا هو المكان المناسب لي، في هذه الخطوات الأولى، عند مدخل البلدة. أعني المقهى أراه قبالي. اعتدتُ لدى وصولي إلى أوّل محطة أجهلها أن أبحث عن موقع يجتمع فيه الناس، إمّا ألفاه في السوق الأسبوعي، أو يتّفق لي في المقهى إذا توفر، وأنت حيثما ذهبت هذه الأيام ستعثر في المقاهي تحتار أيها تختار، أختار أخيراً واحدة وأجلس، غرضي وغايتي وأنظر. أصرف النظر عن مَنْ هم حولي، فهؤلاء لا تُرجى منهم فائدة، إمّا ينخرطون في لغوٍ عقيم ذا شأنهم، أو يَنِمُّون في فلان وعلان ذاك ديدنهم، وينتقدون الحُكَّام وتسيير شؤون العباد، وهم ينفخون سجاثرهم في الهواء، وإمّا عيونهم أمامهم مقدوفة كأنها ليست منهم، نعم إنهم ينظرون في الفراغ، إن تمعنت تجدهم دخلوا إليه، ينتقلون في عُرفه، انفصلوا عن ما يحيط بهم، هم في غيبوبة إلى أن يشرع النادل في سحب الطاولات وينبّههم أنه يخشى أن يكرسهم، عندئذٍ فقط يغادرون محتجين أن الوقت ما زال.

وقد جلست إلى طاولة منعزلة عن الجمع. سألني واحدٌ منهم عن الساعة، فتصاممت، ولمّا عاد يُلخّ أجبته بدروشة واستسلام: الساعة آتية لا ريب فيها، تقوم بإذن الله. أثاره وجهي، غريبٌ عن المقهى، وافدٌ لم يألّفه، تكلمّ بداخله هذا صيدي اليوم سأنقل سيرته في الحال لأصحاب الحال، ثم أعود بعد ذلك لأواصل النظر في الفراغ. تبالهتُ أمامه، وانخرطتُ في تلاوة الأذكار، تُسعفني لحيّة خليطٍ بياض بسواد، وجلبابٌ متقشّف، ونعلٌ من الخوص بال، وعلى صدري تتدلى سبحةٌ صفراء يحملها الدراويش، عملت أدعو بالصلاح لأهل البلد الأمين، ولجميع المسلمين، مُنكساً رأسي على صدري، مستغرقاً في الذّكر. لمّا رفعت رأسي وجدتُ الشخص اختفى، جاءني النادل بعده يُخبرني مَنْ كان جارك قبل هنيهة دفع برّاد شاي وهو يطلب منك السماح والمغفرة. فلما سألته عن ماذا؟ قال أنت أعلم يا شيخ. قلت بلغت أوّل قصد، أن أموّه شخصيتي، ولا أكشف عن هويتي من أول الوصول.

خُطّتي بتفصيل، أن أجلس وأنظر. أجلس، وينبغي أن يداخلني إحساس أنني أنفصل عن جسدي وأترك عينيّ وحدهما تنظران: ما همّ ما تقعان عليه للوهلة الأولى. مذهبي أن في الكثرة توجد القلة، وكم من غُفل لا نبصره أنفع من شائع مشتهر بلا قيمة. علّمتني السباحة في الحكايات أن أسلّ الخيوط وأحبك المفكّك؛ أن أخفي وأظهر بحسب مقتضى الحال؛ وخاصة أن أطيل الصبر، هو أوّل ما يحتاج إليه المشتاق ليلبلغ مراده، وأنا هنا في حاجة لاستخدام صبري إلى أبعد تقدير، هكذا أترك عينيّ تسرحان بلا قصد محدّد. بعد ذلك ينقلبان إليّ، فأجعلهما عندئذٍ بعد شبع من المعاينة يتخيّران، أتركهما يمضيان، هما مني، ويتبعان وحدهما

دليلاً، فيتبعانه، على هديه وبشروطه ينتقيان. في المرة الأولى، أفعل مثل الصياد، لكي يصطاد الخنزير البري، يثبّت في موقعه مترصداً، وحين يراه يسدّد ويرمي ليصيبه. في المرة الثانية، أفعل مثل مَنْ يصطاد فريسة فإنه يعمد إلى ملاحقتها إلى أن يوقعها في مرماه. لا يوجد حدّ فاصل بين الموقفين، أحياناً يتبادلان موقعهما، والمشارك بينهما أنّ اليقظة لا تفارقني، فالمسافر عينه على متاعه، إن غفل طارت عينه، وأنا هنا في هذا المقهى، ثانياً، لأقتنص أول فرصة لأجد لي موقعاً في البلدة، وأصطاد ما جئت من أجله، أضيفه لمخزوني من الحكايات، فلاني لا أكتفي بالقديم بضداً بالتكرار، والجديد مطلبي دائماً يُحيي الفؤاد، ويعين على فتح الأبصار، ويسعفك فتنتقل من مصر إلى أمصار.

- 18 -

طال قعودي، استوعبتُ ما حولي، وتكرّر معه ما أرى. جلستُ قبالة ساحة، هي بمثابة منعطف مروري تقاطع عنده طرق وأزقة، فيكتظّ بالمرور. السيارات، والحافلات، والشاحنات، والدراجات النارية والهوائية، وعربات يتنقل بها أشباه معوّقين محترفو شحادة، تراها تختلط ببعضها في فوضى وحيز ضيق قياساً بعددٍ غفير، يتدفّق مرة ثم ينقطع. يمتد شارع طويل إلى أقصى ما تراه العين، من المحتمل ذاك مخرج البلدة. كنت أحمل معي صرة بها ثيابي، هي كلّ متاعي، رجوتُ نادل المقهى أن يحفظها إلى حين عودتي، لن أتاخر، سأقضي سُخرة وأعود الله يرحم الوالدين، فيما سرّْتُ أريد أن أتعرف على هذه البلدة، ذكرت لكم

أنني قصدتها بالصدفة لا غير، لأجدد زادي من الحكايات، وبها أتجدد.

لم أقل كل شيء. تعمّدت إخفاء جزء من الحقيقة، لأذكرها حيث يناسب، وإن ما عدت أثق في أي حقيقة. لم أعد أميز كما ينبغي لأيّ عاقل، تختلط عليّ المراثيات والمسموع من كثرة انتقالي بين الحكاية والحياة، تراوحي بينهما يُنسني، أحياناً، أين أوجد، وبأي منطق أدبر أمري. لم أحفل في البداية، لولا أن نتهني بعض صحبي أنني أحياناً أدخل في الكلام وأخرج، بغير اتساق، حيناً آخر أدخل ولا أخرج بتاتاً، فيتركوني فيه وينصرفون، أسمعهم يودعون بالسلامة عليك، وبالسلامة، وأنا غافل لا أفهم ما حلّ بهم، ما تلك عادتهم، أشهد أنهم قومٌ ظرفاء مهذبون. ألح عليّ هذا المخاطر في المساء الأخير الذي قضيته بساحة جامع الفنا، بمراكش، وبعد أن انفضّ عني جمهور حلقتي قبل الأوان. تركوني ولم أكمل قصتي، لم أنتبه لانصرافهم، اعتدت أن أسيل جفني كلما دخلت في جذبة قصتي، أحسني أسايِفٌ وأعاركُ الفرسان والمصارعين، وأتولّه مع العاشقين، فأنسى حالي، وأحياناً، كما وصفني صاحبٌ لي، أخرج عن محكيّتي، يصدر عني، قال، كلام يضرّ أكثر ممّا ينفع، وقد يودي بك يا عبد الله إلى ما لا تُحمد عقباه، أريدك إن حرصت وتحرص على البقاء هنا أن تحفظ الآتي :

«هذه الساحة لعلمك إذا حفلت بالرواة والحُداة والعطارين باعة أعشاب تقوية الباه، والكذبة من يلحسون صغار العقول بأحمر الشفاه، ومُرْقُصي القردة والشعابين؛ هذه الساحة اعلم حفظك الله تنتشر فيها أنواع من الشعابين أحذرك منها، وإنما يُسمح لنا بالبقاء هنا فيها، تُسمى جامع الفنا، ليجتمع كلّ الكلام

ولا يخرج عن هنا وعن حدّ محدود، معلوم من قبل عند مَنْ يعلم ولا بد له من قفل وقبوء، ما ينبغي لقوّاليه أن يتعدّوا الحدود، أو أن يزيدوا على ما تركه لنا الجدود، لا يُسمح لهم بالخوض أبعد ممّا يلهي العقول ويحفظ لنا دائماً سرّ الإيالة وإبرام العقود، وإياهم من تأويل الكلام على غير وجهه الصحيح وبشغره المليح والعبث في فنّ السرد وتهيج المستمع بأكاذيب المسرود، وحبذا مستملحات ومشهيات تستطاب بها النفوس، لا نريد فيها قلة الحياء مثل العناق والبوس، وشرط أن لا تتجاوز وصف الخدود والتملي، عن بُعد، في لطيف القدود. أزيدك يا صاحبي حكينا وحديثنا هنا يحتاج أن يُنقلَ عن سند، وقبل إرساله تكون توضّأت تبدأ باسم الله الواحد الأحد، يا فتاح يا رزاق يا الله الصمد، تتلوه بالصلاة على النبي ومنه تطلب المدد، وتلتفت يُمّنة يسرة وأنت ستبدأ لتعرف مَنْ معك وحولك، ربما داخلك خير لك هذا من أن تذهب في كمد، أو تصير إلى بدد، اللهم إن تعذّر عليك هذا كله، ولم تستطع النفاذ بجلك، وتمرير قولك أقلّه، قد نفذ ما عندك من جلد، اعلم لا مقام لك بعد، والرواة مثلنا يا أخ العرب لا مندوحة لهم من الاغتراب وترك الولد، وأرض الله واسعة يمشون فيها من بلد إلى بلد».

ما تجاهلت المعنى، فهمت قصده، اعتذرت بالحكاية، قلت: «يا صاح ثِقْ إنني أعلم مبتدأها، وكلما أبحرت معها تلاعبت بي الأمواج، أتُنقل بين ليل داج، ونهار صقيل كالزجاج، أشرب هنا من معين عذب، وغداً من ماء أجاج، يا صاح ما بيدي، قد ضاق صدري بما أحسّ وممّا أرى وهاج، لم يبقَ إلّا أن أبدل هذي الأرض، وها انفضّ عني جمهوري، ملّني، أيضاً، بثّ

أشعر لا بد أن أضرب في الأرض، واسعة، بين صحو ومطر وعجاج، ليقضي الله أمره، ولأرحل حتى إلى أبعد وأغرب الفجاج».

هكذا، فإني، وبعد أن صليت العشاء، عدتُ أصلي للاستخارة أقرأ سورة (أيها الكافرون): ﴿قُلْ يَتَّيْنَهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. بعد السلام رفعت يدي بالتضرع، وشرعتُ في قراءة الدعاء، حضرني ما رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه كأنه يصبُّ في أذني ويهبط زلاً لا يسري على لساني: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم [سميت حاجتي أن أجد لي ملاذاً آمناً وموردَ رزق] خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه...»؛

لما أنهيت استخارتي غفوت قليلاً، جاءني في المنام من قال لي يا سلام، سمعته كما أسمع صوت طُراق السواني في أذني وأنا عائد من الفنا إلى بيتي في درب ضباشي، عليك بالرحيل، ما عاد لك هنا في الخبزة من مكتب، اقصد بلدة نون، نونة، إنك واجدٌ فيها خيراً ومعونة، وعيشاً آمناً، ورَعْدًا، غالب الظن هي بالأسرار مسكونة، كذلك مذكورة في الكتب القديمة صارت اليوم مدينة مدفونة. وبسط الصوت أمامي رداءً أبيض خطَّ عليه ما يلي:

«نونة قرية أثرية تقع على سفح جبل بحوار العقم، منطقة الحداء، بدمار بأرض اليمن، يحيط بها سور عظيم ذو أبواب

وبها مسجد الناصرية ولا زالت آثارها قائمة إلى يومنا هذا، ويوجد بها آثار لسدّ الخانوق وعليه كتابات حميرية قديمة. والنونة في لغة الحذاء هي علامة على جبين الحصان أو الثور، يكون لونها مخالفاً لسائر لون بقية جسده، كما أن النونة قلادة فضية تتزيّن بها النساء توضع على الجبين، وأصلها في اللغة الحميرية. وفي المعاجم العربية هي الحفرة أسفل الذقن، وتعرف عند العرب حديثاً بالغماز. والنونة الآن قرية عامرة بالحياة والسكان والزراعة، ومشتهرة بالآبار، وحولها البساتين مزروعة بالخضار والفواكه بأنواع، وإن كثيراً من مظاهرها وشأنها قد طاله الزوال وتبدّل، وسبحان مبدّل الأحوال.

لا عجب، خاطبت الصوت تمثّل لي طيفاً، إنما كيف تنصّحني بالرحيل إلى مكان دونه عن هذه الواحة المرابطية طول الأرض وعرضها عداها البحار؟ أجاب: لا تغتمّ لهذا، فأنت سترحل إلى موضع غير بعيد، هو في بلاد المغرب، قديم وجديد. أولست أنت من يروي في الحلقة الأزليات، وتغربة سيف بن ذي يزن، أم نسيت كم من عرب اليمن والجزيرة العربية غادروا ترابهم ووصلوا إلى هذه الديار، وحتى لو وُجد من يعاند من بربر بلاد مراكش، فقسّم كبير منهم وفدّ من هناك، وتفرّقوا حيث الكلا والماء، وهم أصحاب تجارة، وأهل صدق وشجاعة ووفاء، منهم جماعة حلّوا حيث أرسلك، فأنشأوا بلدة على شاكلة حصنهم القديم، وسترى عندما تصل إليها أنّ لها باباً يشبه ما كان، والصور المذكور وإن تهاوى مع توالي الأيام، وما بعد هذا أتركك تكتشفه وحدك، صلّ الآن على خير الأنام، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾؛

قمتُ بعدها جمعت أفل قشّي، حزمته في صُرّة، وكتاباً لا يظهر سرّه في القراءة إلّا لي لا يفارقني، وتسلّلتُ في غبشة الظلام من الحجرة التي أكتري مع الجيران في ضباشي، تاركاً المفتاح في الطاقة، لا أريد أن يعلم أحدٌ برحيلي، كيف بوجهتي، فيسيء بي الظنون، أذن الفجر فوجدني في باب ذكالة، سألت بعض المبكرين في المحطة من أين الركوب إلى بلدة نونة، منهم مَنْ أهملني ومنهم من حسّبي شحاذاً، أغلبهم بعد أن قلبت النونة نوناً لعلّهم يهدونني بحلقوا في جميعاً متعجبين. بقيت حائراً وضوء النهار شرع يمرح بين الوجوه والحيطان، لما أحسستُ بيد تمسك بيدي، وصوت يقول يا عبد الله اتبعني، جوابٌ سؤالك عندي، سأهديك إلى طريقك شرط أن تعديني بعد أن تُنهي رحلتك وتقضي حاجتك، أن تروي لي ما علمت وشاهدت، تاركاً لك وحدك ما كابدت، فأنا من مُرتادي حلقتك، وعاشق للحكاية، لو تعلم، مثلك وأكثر، فوعده، أقسمت أن يبلغه إما شفاهاً أو بالتدوين، وتعلمون ما صار بعد ذلك عن الطريق.

- 19 -

من وراء ملتقى الطرق تبدأ البلدة. وأنا أسميها البلدة، لأنها لا مدينة، لا قرية، بمؤهلات وصفات هذين، فيجوز أنها وسطٌ بينهما. اكتشفتُ بسرعة أنني لم أجنّ. أطلقت قدمي في الشارع، أو الطريق العام، سيّان، حيث تمر السيارات وكلّ الناقلات القادمة من خارج، يميناً ويساراً تتفرّع عديد الأزقة، أغلبها مُترَب بلا إسفلت، وتجري فيها مسارب مائية يلعب فيها الصبية وهم يتراشقون

بالحصى، غير عابئين بتحليق البعوض والذباب أفواجاً وطنيناً، هو جزء من الأصوات النشاز تأتيك مختلطة بمنبهات لا تتوقف، ودخان عوادم المحركات.

انحزتُ إلى الجهة اليمنى من الشارع العام، تنهض على جانبيه عمارات متفاوتة عدد الطوابق: ثلاثة، أربعة، اثنان، وأخريات ربع مبنية، أو نصف مكتملة، بنوافذ عارية، تتباين صباغة واجهاتها الخارجية، بين اللون الأصفر، والبني القرميدي، أصبح منتشرأ في مناطق وسط وجنوب البلاد، وشبه الحواضر القريبة من الصحراء. تحت العمارات جميعها متاجرٌ واسعة أو ضيقة تسمى مغازات، أغلبها مغلق مكتوب عليها بالصباغة (للإيجار). محلاتٌ كثيرة أبوابها صدئة لم تجد مَنْ يستأجرها. أمام كل متجر باحةٌ تصل بأخرى حيث يتصل تجمُّع طويل من المقاهي والمطاعم، وخليط بينهما، كراسيها مثل طاولاتها بين بلاستيك وخشب وقصب، وضُقت في مدخلها طاولات تحمل مواقد من طين أو قصدير تنضج فوقها طواجين تنشر حول أماكنها روائح مختلفة من البهارات، بينما أسراب الذباب تحوم، وتحت، وبين الأرجل، تنسرب قطط مفرطة النحول، غير بعيد عنها جراءٌ أهولَ نحولاً، استفحلت في جلدها البُقْع. واصلتُ مشيي في الطريق العام، أرمي بصري إلى الجهة اليسرى لا تختلف إلّا في عدد المقاهي والمشايخ، زيادة على دكاكين بيع الهواتف الجوالَة وشحنها، ومحلبات وباعة مخلات، بينها محلات جزارة علقت بضاعتها سقائظ أو أنصافاً في الخارج، كذلك رؤوس أبقار وأغنام وجوهُها مسلوخة وهي جاحظة العينين، في الجهتين لم يبق فراغ إلّا امتلاءً بدكان أو سدّته تجارة، الأرض لم يفضل منها متر واحد، بُسطت فوقها أفرشة يتصايح فيها نساء

ورجالٌ بالخضار، بالملابس، وبالمواعين، وكان في رأسي شيءٌ جعلني وأنا أمشي أطيل النظر وأدقق في التفاصيل، وعوض أن أياس فضلت مواصلة المشي، همتي أن أعثر على ما يمكن أن يميز هذه البلدة عن غيرها، لم أجده بعد. فكّرت أنني إذا أغمضتُ عيني وأعدتُ فتحتهما سأقول إنني أوجد في البلدات المورغربية النابتة حديثاً، تيفلت، لخميسات، تاونات، شيشاوة وخميس الزمامرة، ما هو إلّا اسم سوق مثل سوق الأربعاء، وسوق الثلاثاء الأولاد، المسماة فيني، تحريفاً عن أصلها الفرنسي Vigny كما يتفنّن أهل المورغريب في ذلك، ويبدعون أحياناً بشكل مضحك.

من قبيلها كثيرٌ في بلاد المغرب الأقصى، بين حضّرٍ ومضّر، أقمتُ بها أياماً أو مررتُ بها مرور الكرام، متشابهة، اكتشفتُ عند سكانها نهماً عنيفاً للحوم، ولم أجد فيها أذنأً واحدة صاغية للحكاية، ولا شيء يُلهم فيها أو يغذّي الخيال، فقلتُ الفرار، الفرار، لا رزقَ لك فيها يا سلام، فهل بعد طول تنقّل وضنّي ترحال تصير مثل الثنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، أيّ حظّ تعيش هذا؟! فكرتني في رأسي لن أحيّد عنها، ما زال على صلاة المغرب وقت طويل، لأواصل المشي. قبل ذلك عوى في بطني الجوع، منذ كم لم أتبلّغ غير كسرات خبز وتين يابس وجرعات ماء، هذا زاد المسافر الولهان بما هو أغنى من الطعام والشراب والكساء والفراش الوثير، يحلم بالصور البديعة وآيات الله في خلقه بالوان. وقفتُ عند أول دكان صادتني رائحة كمون، في الجوف كرسّيّ طويلٌ ومنضدةٌ يجلس رجلان يغمسان في آنية أمامهما ويتهامسان، أصبت إناءً ببيصارة فول بزيت بلدي وزدتُ عليها وثلثت بكأس شاي، شبعت ولما أردتُ الدفع أفهمني البائع أنه وصل،

مِمَّن؟ من أحد الرجلين. نظرت تجاهه فرفع وجهه إليّ عرفت فيه لهيبل، وقبل أن أتحمّس لشكره على الضيافة انسحب بسرعة هو ورفيقه، لم أر الغمد يتدلى من خصره، وإن أنبأتني عيناه وهذا الخفاء الغامض والتهامس، أنه ما زال عند تصميمه، يبحث عن حبيبته عنده أنها مخطوفة، ورأيي الذي علمتّم أنها عاشقة هاربة، أحببتُ أن أسأله كيف دخل إلى البلدة وهل قاسى مثلي الأهوال، أو اجتاحتته الأوهام، وأيّ سبيل سيأخذ هذا المجنون في زحمة العمران لينقذ قصاصه، ياه!

خرجتُ أتبعه، لم أعثر له على أثر، تبخّر في الهواء. فكرت أسأل صاحب المطعم، حسبته رؤيا، ثم خفتُ أن ينعتني بمسّ، ليس في صالحه إذ أنوي البقاء هنا. عدلتُ وانتقلتُ إلى يسار الطريق كنت وصلت إلى منتهاه، ظهر لي بناءً على حاجز كالحائط يسدّ، وللمناورة سرت في فرع مواز، أخذني إلى فرع ثانٍ، وكلما مشيت أرى الأزقة تضيق لا يبقى بينها أكثر من مقدار خطوة أو خطوتين، كالدلهيز، والبيوت قديمة، مهترئة الجدران، بل خربة لا لون لها، منها الآيلُ إلى الانهيار، وفيها أنقاضُ حيطان هاوية وأعمدة مُعلّقة، عجباً، حُزّت من أسفل، ليس من هذه الأبنية ما يشبه معمار البنايات في الشارع العام، لا متجر، بل ولا ساكن صادفت ولا نسوة يتشامتن، لا أطفالاً، حتّى لا علامة لوجود القوة العمومية. الجو هنا رطب، والرائحة بين عَظَنٍ وَعَمَلٍ، وتسمع مثل قطرات ماء تنزل متقطعةً من علوّ بئر، وأحياناً صريرٌ لبابٍ عتيق، وفجأة يفرّ فوقك طائرٌ محلّقاً، وبين قدميك ينسلّ فأرٌ ليغرق في مجرى خفيّ هو مسكنه، إلى أن تصل إلى زقاق فسيح قياساً بغيره، ما زال ما يتبقى من ضوء النهار يعبرُ إليه منعكساً على حيطان مبانيه

وهي عالية، مائلة في شكل أقواس، زُيّنت بنقوش ورسوم لوئها
 حِثائِيّ، واتسعت بينها مربعات ومستطيلات، تشبه الصفحات، على
 كلِّ صفحة كُتبت كلمات، لكن بحروف غير العربية التي تعرف، ولا
 الإفرنجية، بهيئة مسامير وأشكال هندسية مقلوبة، مربع ومستطيل،
 وقفت إزاءها حائراً، تساءلت هل هذه تعازيم، كما أعرف في كتب
 السحر ممّا يُكتب بالذّميّاطي، مثلاً، ولَمّا تعذّر عليّ فك لغزها
 تذكّرت منامي حين عرض عليّ الطيف لوَحَه قرأت فيه بعض أخبار
 بلغة نونة في اليمن وكتابة أهلها الجُمَيْرِيّة، فدارت بي الأرض دورةً
 واحدةً أسأل في حيرة كيف وصلتُ لليمن، أم أني في أضغاث
 أحلام، وجدت أمامي باباً دفعته فخرج لي منه صمصم بن قمقم
 يصيح إلى أين، قلت أريد أن أعبر إلى الجهة الأخرى من البلدة،
 خلفَ الكتابة لأيقن أين أنا، أجاب تحتاج إلى رخصة، ممّن؟ -
 أسأل، أو لا دخول، فرجعتُ على عقبيّ إلى المقهى أكاد لا
 أهتدي، قد غرّبت الشمس، أسرعُ لأسترجع متاعي من النادل قبل
 أن ينصرف، وأبحث لي عن مضجع، ولم أقدر ما ينتظرني، لَمّا
 وجدتُها تنظر إليّ مأخوذة، أم إنني كنت في مرمى بصرها، طوّقتني
 بنظرتها، صرت لها الأسير.

- 20 -

وقعت عيني عليه أوّل ما ارتمى على الكرسي في باحة
 المقهى. بادي التعب، قادماً لا شك من سفرٍ طويل، وجهه مُغبرّ،
 كذلك نعلُه. استحسنْتُ أن سأل عن الحوض فغسل أطرافه ونفضَ
 لباسه، ثم بادر يطلب شايّاً، دون الطعام، ربما لا يملك ثمنه، وإلاّ

فهي الظهيرة ورائحة الطواحين في مطبخنا تفغّم الأنف وتُهَيِّج الشهية. كلُّ متاعه صُورَةٌ إلى جواره يربّت عليها مرّات كوليد. انتبهتُ إليه، نأى بنفسه عن بقية الجالسين في زاوية بأقصى ركن، من حيث يستطيع أن يرى كما يشاء، وغيره يضطر أن يلتفت إليه ليراه. أرخى بصره في مدى الساحة وأبعد في خطّ الطريق الطويل، فيما مَن حوله يهرّجون ويمرجون، وأشدّاقهم تدخل إليها اللّقم. وحده يقطع صمته بجرعات شاي من كأس ينسأه بيده ثم يعيده فوق الطاولة بتناوب منتظم مثل عازف يضرب على آلة. توحى جلستُهُ هذه لكلّ راءٍ أنّ صاحبها ليس بتاتاً على عجلة من أمره، رخيّ البال، حتى وحالُهُ إجهاد تفضحها عينان متورّمتان. لم أره من كُتب بعد، وإن وشى جانب وجهه بملاحة، مع سُمره ذهبَها شمسُ الطريق، فأضفتُ عليه لمعاناً وجاذبية تغريان كلّ امرأة.

ليس الرجال ما يتقصني، ولا أنا مفتقرة إلى غزلهم المتهافت، جوعهم التهم خاصة إلى جسدي، بردفيّ الباهرين، تأكلهما العيون، كلهم يريدون ركوبي هؤلاء البغال من حولي وكلّ من مرّ حولي. في هذا الوافد أحدس، أكاد أشمّ منه ما يغري. لا أستطيع أن أحدّده الآن، وإن جربت البحث، معناه أنني سأغامر كأني سأعشق، أو مني إذا عشقت، يا خوفني عليه، أم على نفسي، أيّ دليل أكثر من تسرّعي. ليس من طبعي ملاحقة أحد، في الحب مذهبُ العموم أن يرغب الرجل في المرأة، حتى يتفاني، ثم ترى، وأرى العكس، من رغبت في رجل أن تسعى إليه، تلهث روحاً وتنهك بدنأً لتتمكن منه، ما ضرّها لو تفنى، فليس كالمكابدة في مثل هذا الحال أجمل، وكلما تمنّع عليها تزيد كلفاً به، وجهاداً للحظوة عنده، لتصبح دون غيرها له وحده، وآخره، وتحبّ أن تراه يبقى على

عِزّه، محافظاً على كبريائه، أو سيهوي عرشه ويأفل نجمه. أمّا إن كان هو مَنْ يخطب حبّها، ويسعى إلى نيل قلبها ومن ثم تذوق لذاتها، وتراه لا يدّخر شيئاً من أجل ذلك، يتحرّق ويأرق، وليضمّ الأرض إلى السماء إن أمكن أو شاء؛ كلا، تُذيقه المِحن، ولن ينال منها إلّا الجفاء والصدود، فإن قرّبه، أو أشفقت عليه، فإنما لمزيد إذلال، وقد تُشرك معه غيره وتلهب أكثر نار هواه.

ظهر لها الوافد شخصاً غير مألوف وجذاباً. فكرت أنّ ثمة طريقتين للإيقاع به إن هي قرّرت أن تفعل؛ إمّا تتحایل عليه فتتركه هو مَنْ يطاردها، وإمّا هي مَنْ يرمي عليه الشباك، عندئذٍ الأفضل أن تتقدّم أمامه، أن تسبقه، تكون هي من يشقّ الطريق ويختار المسار، فيصبح تابعاً فقط، وفي الوقت المناسب تُوقع به، لا يبدو لها كما تراه الشخص المهيأ لأن يقود هذه المعركة، طبعاً تخطّط لها بمفردها، بتجارب سابقة، ولا بأس تضيف بغرورها، أليست هي سيّدة هذا المكان، صاحبة هذا المقهى، ونفوذها أبعد منه إلى الساحة وأبعد إلى بعض رجالها، فهل يستعصي عليها، كم يبدو لا حول له، غريبٌ ربما تقطّعت به السُّبل، ما المقهى مُرادُه، وإنما جاء إلّي على قدميه، وإن تكلف، يتظاهر هكذا شارّد اللب؟!!

هي رائحة الأنثى قريبة، يشمّها سلام كما يشمّ أيّ حيوان أنثاه، وهو الآدميّ، من الخلق الذي اصطفاه الله. قبل أن ينطلق إلى البلدة ليكتشف أرجاءها، أحسّ بعينين تثقان ظهره، وخطوات تتردّد خلفه. ليست للنادل، هما خافتتان، ظلّ ناحلٌ يفضح، يفضحها، شمّ الرائحة. فيما عيّنّها عليه، كأنما تناوشه، فتنزوي إلى ركن ما، يحدسها فيه، أنوثتها تفوح على ما حولها بأقوى من تسترّها، أم هي رغبةٌ كامنةٌ توجّج الحضور، ما ينفكّ يكتبتها، ما

شأنه بها أو بسواها، امرأة واحدة شغلت قلبه وعاشرها سرقتها
 الدهر منه بمرضٍ مُباغت، فأقسم بعدها أن تكون الأخيرة. ثم كيف
 له أن يُعيل بيتاً وهو المتنقل بين الديار، رزقٌ يحلُّ ورزقٌ عند عَلام
 الغيوب. يعلم، نساءٌ كثيرٌ يعرضن عليه الروح والجسد، يعفّ،
 يعذّرن، إنهن يُحببن الحكاية، وهو تعلّةٌ لهن، هو من لحم ويفور
 فيه دم، ولا يقبل أن يخيب ظنهنّ إن لم يجدن فيه خصالَ الفارس
 وبطل الحكاية، مثلهنّ صار ضحيةَ حرفته، تعلق نساءٌ يتفنّن في
 تصويرهن أمام ملاء حلقته، يُعيد خلقهنّ من جديد بما يشتهي وتتمنى
 العين، يروح نياحة عنهنّ بعواطفهنّ ويفضح دسائسهنّ لخطف قلوب
 الرجال، واللعب وراءهنّ، أحياناً يتخيّل أنه من ضحاياهنّ، يرى
 عيونهنّ تغمز في حلقته، كم من يدٍ مدّت له ورقةٌ تشرح فيها
 خاطرها، وأخرى قصدته ليكتب لها تميمةً لعلاجها وهو داؤها،
 وهذه الرائحة عادت تطارده الآن، بعد عودته من جولته في البلدة،
 بل تُحاصره، وقد وصلَ يستعيد صُورته لا يعلم حقاً أين سيبيت.

سأل النادل عن أقرب فندق، سمع خلفه صوتها باستحياء: قل
 له مرحباً به، واقتربت. ها هي ذي منتصبة أمامه. تنحّي النادل،
 زاد: إنها لمعلّمة، فهم إذاً أنها صاحبة المحل، مالكة المقهى. هذا
 نادر. غَضَّ البصر، كما ينبغي له، فرحبت مباشرةً تُخفّف من
 حيائه، عندنا الاتّساع هنا، وجروّت، الاتّساع في القلب، مثل
 موغربي فسيحٍ لِمعانٍ، يكثّر خيرك يا للّا، الخير من الله. شيئاً
 فشيئاً يرفع إليها عينين ترمشان رَعشاً. من تحت إلى فوق قوامٌ
 مشدودٌ، ناحلٌ، ترتدي قميصاً برتقالياً تزنره مضمةً مطرزة، صدرها
 ممتلئ، ووجه أسمر قمحيّ، مستديرٌ، تحير في سنّها لا تحسم فيه
 العين. ابتسمت لي ومشت قدامي أشارت أن أتبعها فسيرتُ عبداً

مطيعاً كالمحمول فوق الغيم، يصعد دُرُجَات تنتهي عند غريفة
سمعتُ صريراً لبابها يُفتح. قالت هنا تنام، حيث في الركن سريرٌ
خشبيٌّ عليه لحافٌ وبجانبه جرّة ماء. استريح الآن، ولا تشغل
بالك، أنت ضيفي، والعشاء على مائدتي، ألف مرحباً، وانسلت
بخفّة غزال، تاركة رائحةً مفعمة بمزيج نَدٍّ ونعناع وياسمين، هل من
ثيابها أم من أنفاسها؟ امتلأت بها الغريفة من دون نافذة فشممتها
بقوة واسترخيتُ، أخذتني سِنَّةٌ من نوم تلاعب بي خلالها الشيطان،
رأيتني أعود طفلاً وامرأة لا وجه لها تُهددني، أولاً، ثم تحملني
من مهدي تؤرجحني فوقها، وتعود تطويني لأصبح تحتها ورغم
ثقلها لا أتوجّع، أحسّ بها خفيفة وألحس وجهها الذي لا أرى
فأستلذه مثل حلوى، ثم أهبط لحساً إلى نحرها، أنزلق إلى صدرها
أقبض على ثديها بجمع يدي اليمنى كُبرث فجأةً ويدُها امتدت تدفعه
إلى فمي صرت أذوّق حليباً حقيقياً يندلق من زاويته، وكانت المرأة
التي ظلّت بلا وجه تواصل في آنٍ هدهدتي، ارتفعتُ في آخرها إلى
أعلى وقبل أن أسقط أرضاً أيقظني المؤذن فاستغفرتُ الله.

- 21 -

«يا سيدي، انت قبل ما تجي كالني السلام، خير وسلام،
شفتك في منامي، هذي كذا أيام، أُرِيد من عام وانا كنت
نُتَسَنَّاك. جدك رسول الله سبقك واعلمني، قال لي جاي عندك
غريب وقريب، وضيف الله. احكِ لي، هو يعاونك، وحتى انت
عاونيه. قولي لي جدك هو السلطان الأكحل، وهو يفهم كلّ
شي، أخواله من أولاد حريز، وحظّتهم ما زالت في أولاد

(
امحمد. اخوتك تفرقوا في البلدان، فأين هي تركة السلطان، كان
يا ما كان، اشكون يثق في الزمان؟! يا حسرة على أولاد حريز،
أهل العز واللوز، هم الزين والزهو والتفنطيز، في ليلة واحدة
يضربوا جربة عام، السي خليفة، الحطاب ولد التتک، بن عبد
القادر، وأولاد القاضي، كلهم كان عندهم اللي يتحرّق ما يتم!
أخوالك هم أعمامي يا سيدي سلام، الدار البيضاء سبينا، فرقت
الأحباب. أولاد حريز عزهم في برشيد، قبل ما تعمّر بمهابيل
قبائل امزاب ولمداكرة ولمزامزة وأولاد سعيد. وقبل ما يتسلّط
علينا الظلم، والكافر، وإخوتنا وأولادنا يصبحوا كأنهم ما كانوا
الغابر الظاهر!.

يعرف قصة السلطان الأكحل، حكّت له إحدى حالاته منها
شذرات، قالت كان للباشا برشيد نصف، وله النصف الآخر،
وكلمته لا تنزل إلى الأرض، السلطان بن يوسف بعّره نزل عنده
وهو في طريقه لمراكش، كان له حرائر وإماء، ومنهن أنجب
العشرات، بنين وبنات، حين كان يحلّ بسوق الاثنين برشيد يا ويل
من يظلم ويُساق إليه، السوط قبل الحبس، يساقون إليه مكتوفي
الأيدي من خلاف، عراةً إلّا من خيش لستر العورة، صالّ وجال،
وامتلك آلاف الهكتارات، حرقها الورثة في رمشة عين، تقول كأنّ
لعنة نزلت عليهم، وما هي إلّا نزوة أولاد حريز لا يقرّ لهم قرار إلّا
إذا أصبحوا صفر اليدين، لكنك تجدهم دائماً أنوفهم إلى السماء،
حتى الحاكمة الكبرى عليها يتكبّرون، ولا يدخلون في طاعتها،
فانتقمتم منهم، جعلت أعزةً أهلهم أذلةً، واضطروا للهجرة، نقلت
إلى بلدتهم الأغراب، وولّت عليها قياداً وباشوات من الأوباش
والأذناب، وصرت إذا زرت ترابها وذهبت لسوقها تراها مرتعاً

للأجلاف والأعراب. إنما هذا حال الدنيا، آتية ذاهبة، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

نعم يا ولدي، من بعد ما ضاعَ المال وبلي العزّ، ضاع حتى العمر، كاد لأحفاد السلطان الأكلحل العديان، أغلبهم مات فقراً، أو قهراً، أو بات فما أصبح. كيف هذا؟ هذا حدث مثله كثير في هذه البلاد. كنت أفهم قصد الخالة، تحكي عن ما جرى ويجري من غضب الحاكم وعليه، وكنت أتابعه عن بُعد، أحدثس أنّ نهايته مشينة، وما حدث في الدار البيضاء والعاصمة وسواهما مغروس كمسمار في رأسي، كيف أنساه، رغم أنّ انشغالي بالحكايات لكي أنساه. يا ولدي، هنيّة لا تنسى، منذ أخذوا أخاها وهي تحرث البلاد بالطول والعرض، تبحث عن عبد الكريم، جاء من برشيد للدار البيضاء وغبر، آخرُ كلام سمعت أنها وصلت إلى الأطلس بنواحي خنيفرة، أنا هنية - هنية؟ خالتك هي خدوج، وإنت ولد السعدية، الله يرحمها هي ورجلها الشريف مولاي العربي الزروالي، ومدّت أصابعها تتحسّس وجهه كأنها لا تراه لتتأكد أنه هو لا أحد سواه، والآن سأحكي لك حكايتي وأنت كذلك يا ولد خالتي يا سلام..

نام ليلته، واستيقظ فجراً وهو يفكر في ما مرّ به في أمسه كأنه حلم عبّر. أياً ما كان فقد جرى بسرعة، بكثافة، وفيه ما يتذكر ويجده واقعاً يحياه الآن في لحظته، في هذه الغرفة التي أسكنته فيها امرأة ليلة البارحة. نعم، اسمها هنية، لم يجدها حين نزل إلى المقهى. وجد فوق طاولة بالركن القصي الذي سبق أن انزوى فيه فطوراً ينتظره، أشار إليه النادل ففهم. هذه المرأة تُحيره، تدّعي

قربته، تحكي له قصة السلطان الأكلح كأنها من اختراعها وهي محفوظة عند أهل برشيد الأصليين، وإن نسيها الجيل الأخير، وتريد أن تتقرب منه، أفلكت منها أمس، فهل سينجح في مقبل الأيام! المكان يناسبه، منه سيعلم سرّها، ومنه سيبدأ في جمع الحكايات التي تنقص مخزونه؛ هل من أجل هذا غادر مراكش أم لأمرٍ كامنٍ في نفسه، فلمَ إذا يُخاطله؟ يناسبه جداً الآن، من هنا تمتدّ كلّ الطرق الغادية للبلدة وتتفرّع، وهذا الصباح الجو صحوّ جداً، وها هو مثل غيمة تنقشع في عينيه فيرى ما غام أمس، الجبل يُشرف عليها من جهة الشرق، قريبٌ منها ومنزاحٌ قليلاً في آن. لمح بالليل نُجيمات في الأعالي، دون نجوم السماء كاللآلي، ساطعة هناك، فماذا في الجبل ليضاء؟ والآن، يختلف حال الوافدين إلى المقهى، هم لا يثرثرون، عيونهم مأخوذة صوب هذا الأعلى، إلى الجبل، وربما إلى التلال المتدرّجة حوله، تحيط بالبلدة إلى أن تكاد تخاصرها كلها ثم تنفتح منحدرّةً سهلاً فسيحاً في أرجائه يوجد البناء، ينتشر إلى بعيد ليتوقف حيث تستعيد المرتفعات سلطة الجغرافيا. كذلك حين تحرك ليعاود اكتشاف البلدة، من حيثما ينتبه، فالعيون مشدودة لا تزال إلى تلك الأعالي. يظهرون مترئين، منهم من يحمل ناظورات ليرى أحسن أو يتثبت. آخرون يقفون بأبواب دكاكينهم ووكالاتهم غادروها ووقفوا يتطلّعون، فهمدّت الحركة، وعمّ صمتٌ لا يشبهه إلّا أذان المغرب في شهر رمضان.

انتبه، وحده يمشي في الشارع العام، شرطة المرور ذاتها أوقفت دوريتها وانهمكت كالجميع، فإنهم جمدوا، عيونهم ذاهلة، باكية، وسحناتهم ذابلة، أنا الحيّ الوحيد بينهم؟ تأكد من لحمه،

ساخنٌ، من الهواء يخرج من أنفه، شهيقٌ وزفير، بينا ما حوله جماد. ودارت في محفوظه قصة مدينة النحاس مرة أخرى بعد أن ناوشته وهو في حضرة الشيخ يمتحنه ليسمح له بدخول الباب. مدينة النحاس تقع في زمن ألف ليلة وليلة، ومن بنات خيال شهرزاد، رواها عشرات مرات، من شدة إعجاب الجمهور بها أنها تسحره فيُصبح السامعون جماداً لا يقطعه إلا قرقة قراقب فرقة كناوة، تؤكد للساهي أن في الساحة حياة. ليست المرة الأولى تختلط عليه فيها الحقيقة بالخيال، وقرأ من القصة لما وصل الأمير موسى وصحبه إلى موضع هو جبل:

«رأوا مدينة لم ترَ العيون أعظم منها، قصورها وقبائها زاهية ودورها عامرات وأنهارها جاريات وأشجارها مُثمرات وأنهارها يانعات وهي مدينة بأبواب منيعة خالية مدة لا حس فيها، ولا إنس يُصفرّ البوم في جهاتها يحوم الطير في عرصاتها وينمق الغراب في نواحيها وشوارعها ويبكي على من كان فيها».

فوجد بعض شبّو لا كلّ الأوصاف، رغم أنه لم يزر البلدة كلها، ولكي يختبر أهلها عن حقيقة حالهم، جرّب أن يكلمهم فما ردّوا، ثانياً وثالثاً، ظلّ حائراً يتنقل بين الأزقة والأحياء فلا يلقي من يردّ له الجواب.

انتهى به السير إلى مقهاه، ومع وصوله عادت الحركة إلى سابق عهدها. ارتقى على أوّل كرسيّ صادفه. على رأسه وقفت هنية، خمنت حاله، دفعت بالجواب قبل السؤال، أنت وحدك من لا يعلم هنا، الآن أطمئن أنك حقاً غريب هنا، ولكنك ستثير حولك ألف سؤال. هو يوم الصمت الخميس من كلّ أسبوع، وطقس مقدّس هنا أن يمتنع ساكنة البلدة مدة ساعتين عن أي نشاط

ويتوجّهوا بأنظارهم صوب الجبل. مثلك جرث في الأمر أول ما وصلت إلى هذا التراب، تسرّعت فقلت هل هؤلاء يعبدون الأصنام، فعلمت أنهم متعلقون بسِرّ خفي، هناك، فانظر، ماذا ترى؟ قلت شيء منتفخ كالقبة في أعلى قمة الجبل. هذا بالضبط ما تتجه إليه الأنظار؛ ثم ماذا ترى أيضاً؟ - لا شيء، أو ما يشبه الطيف، يتموّج، يأتي ويذهب، بين الرمادي والألوان، ويتشكّل بين الجماد والأنام، أو هو ربما خيالي يولّد لي الصور كما رأى الصغار والكبار قديماً في بلاد الموغريب ملكهم محمد الخامس في القمر، أوحى لهم بذلك رجال المقاومة، ليحمّسُوهم ضد استعمار فرنسا، بينما الملك منفيّ في جزير مدغسقر؛ انظري كيف: خذي بطاقة عليها صورة من الصور، وشوفي فيها دقيقة وهزّي عينك للسّما بالليل النهار غادي بيان لك الوجه هو هو، وحتى أنت يمكن نشوفك في القمر إذا التقينا في العشية ولعبنا هاذ اللعبة..

انتبهت، عليّ أن أراجع عن كلامي فلا تفهم أنني أستسلم لإغرائها، ولكن أين هي؟ تلقّيتُ فلم أجدها، ناديت النادل لم يجب، باحة المقهى فرغت كما امتلأت، هل عدتُ لرؤيا مدينة النحاس؟ أنا في بلد لا يستقرّ فيه شيء على حال، وهذا لغز يحتاج إلى مفتاح، قلت أعود من جديد إلى خط الطريق العام، وما هي إلّا خطوات فيه ظهر لي طابور مديد، آخره ينتهي إلى ساحة المنعطف، أمّا أوله فلا يحده البصر، وإن بدا وهو أفقيّ يصعد ثم يلتوي ناحية المشرق، ما دمتُ هنا لا خيار لي في الانضمام إلى القطيع، لم أكُن الأخير فيه، سرعان ما التحق بنا وافدون يسرعون كأنهم سيلتحقون بقطار سيغادر، وقطارنا واقفٌ، ثابتٌ، جامدٌ، فوق السكة في محطة غير مرئية، لا يُسمع لمحركه زفير، عجلاته محكمة

الشّد إلى السكة، والمسافرون هادئون تماماً، مستسلمون، جالسون في مقاعدهم، أعني أنهم واقفون في الطابور، التفت الذي أمامي فإذا هو النادل:

- أنت؟

- هو أنا

- آس كنتير هنا؟

- وانت؟ - صمت.

- باين انت غشيم!

- واعلاش احنا واقفين؟

- هذا راه طريق الموسم، آس سمّاك الله؟

- سلام.

- موسم للالا نونة أسي سلام.

- ومن بعد؟

- كلنا عاملين الصف باش نوصلوا إما غداً أو بعد غد

ونزوروا المقام.

- المقام؟!

- نعم - مقام للا نونة.

- ومن تكون هذي نونتكم؟

جاء صوت هنية من خلف النادل:

- أشش، إياك يسمعك شي حد، هي مولات لمكان، بحال

للا عيشة البحرية في أزّمور، وللا شافية في مولاي يعقوب،

ونعيمة المعطاوية في ثلاث سيدي بنور، ، وكل واحد ونيته، كلّ

من قصدها حاجته مقضية؛

أسمع هنية تتكلم مثل فقهاء جامع لفنا :

- كل من دار النية حاجته مقضية، وأرنا الفال .

دفعْتُ يدي في جيب جلبابي أبحث عن نقود، لا مال لي،
أسعفتني هنية، لا تحَف، أخبرتني هي لا تطلب مالاً ولكن تختبر
الضمائر، ثم إنك لن تراها، ما أسعده مَنْ يسمع صوتها، فإذا
سمعتها فكلّمها وقلْ حاجتك، سيبلغها وسيطّ لا نراه - إنما من أين
جاءت للآ .؟ - شش، وبّخني النادل، يحسب أن يُرجعني إلى
الصواب، آه، كيفاش، الأحق وحده مَنْ يسأل من أين جات
الدنيا أو الخالق سبحانه؛ واش إنت أحق؟!

الفصل الخامس

اطمأن الوسيط عندما وصلت الشاحنة الأخيرة من الموكب، وإن لم ينتبه بعد أنها فارغة من محتواها. أخبر المعلم لمباركي بوصولها، فطلب منه، هو من عيّنه مشرفاً على العمال أن يسرع في حفر النفق على امتداد الطريق العام. بعد وقت وجيز عاد إليه المشرف يستنجد، يا معلمي، لا سبيل لمواصلة العمل، أمامنا يا المعلم صفت من البشر بطول كيلومتر، ويزيد، يقف حائزاً بيننا وبين عبور الطريق، وهكذا فهو يعرقل عمل الحفر.

ما العمل والواقفون مغرورون في أماكنهم، لا نعرف كيف نكلّمهم لنتفاهم معهم، أو نرحّزهم من موضعهم. سمعناهم يقولون كلاماً غير معقول ولا هو يُعقل. يُعلنون أنهم من حيث هم في وقفهم واصطفافهم بهذا الاتجاه يقصدون زيارة وليّ أو وليّة صالحة لهم في الجبل، وما من أحد أو قوة على الأرض قادرة أن تردّهم أو تُثنيهم عن هذه الزيارة، يا معلمي، لذلك هم في الطابور مصطفىون وياقون. هكذا، إذا؟ أيّ ورطة، هي. فكَرّ لمباركي في مأزقه، هل هو في حاجة لأن يزيد على ورطة مهمة لا يعرف هو نفسه كُنْهها الاصطدام بالسكان، والمسّ بمعتقداتهم، بغرائب يجهلها، ما كلّمه لا المكلف، ولا أصحاب السلطة نبهوه لها، وماذا يفعلون هنا إذا كانوا هم أنفسهم لا يقفون في الطابور، هم

وأعوانهم ومخبروهم، ليتعرّفوا على هذا الخلق، ويتسرّبوا إلى دماغه ماذا يعيش فيه، هل مسحورون ويا ترى بأيّ سحر؟! أيّ مقام هذا الذي لأجل زيارته يقطع الطريق العام في البلدة كلها، الحاكم العام وحده يمكن، يجوز، بل ينبغي أن نقطع الطريق العام له، ونقطع دابر أيّ كان إن اقتضى الأمر لكي يمر. مذ انطلق موكب شاحناته وأخذ يخوض في الطريق إلى أرض هؤلاء القوم وهو يرى قباً متفاوتة الأحجام، مبعثرة، ناثئة، معلقة، عن قرب وبعد، إن سألت هي لحدود من تثوي فيها، تزدحم الأجوبة: اسم سيدي، وسيدي، ومولاي، ولّلا، وبنت لّلا، لفقهاء ووليات حقيقيات أو مصطنعات، بحسب معتقد أهل المنطقة ونوايا الأتباع، يقيمون حولها ما يسمونه مواسم، كلّ موسم هو حفل كبير بطقوس وبهجة. يعلم الحاكم العام لا تفوته نفسه أن يرسل لهؤلاء السادة الأولياء حين تُقام ذكراهم ويحتفل بمواسمهم وفوداً في موكب مخصوص، فيفتح لهم الطريق. يحضر أعيان القبيلة ومريدو شيخ الزاوية ليستقبلوا الموفدين ويتلقون منهم ما يحملون من هبات ومال وفير، هم من أركان الحاكمية يسعون لما يحتاج إليه سيدها وعمادها الأكبر من كسب ولاء عشائرها ولطمأنة الخلائق أوان القلاقل بكتابة الرّقى والتعاويد، وهؤلاء يبادلونه سخاء بسخاء، فبعد وضعهم رزم المال، منها مبلغ يُسمى، ومبلغ يُدسّ في جيب أمين الزاوية وقيدوم من يتسمون بالشرفا، وتكون ذبائح قد نُحرت، خرفاناً وثيراناً سيطعم لحمها الزوار والضيوف، وما تبقى يوزّع على الفقراء، وسواهم من المشردين الذين يطوفون عادة من موسم لآخر، ويستطيعون جمع العام إلى العام آكلين، شاربين، هم أيضاً ينضمون وقد تخمت البطون إلى الحلقة الكبرى التي تحيط بأستار

الضريح ترفع الأكف إلى العلي القدير بالدعاء للحاكم العام، أصلاً
وفصلاً وإلى يوم القيامة، وأن يعمّ الخير على يديه العباد والبلاد.
ينصرف الموفدون يعتبرون أنهم أدوا واجباً مقدساً، فتروج تجارة
الموسم، وهاك الخيل، والبارود، وبالليل حتى مرتع بغاء.

أيقن المعلم لمباركي أن لا مخرج له من الورطة إلا إذا
استعان بالسلطة المحليّة، أسرع يستنجد بمن خصّوه بالاستقبال
الرائع، فصّدّوه تبعاً، أشاحوا عنه كأنهم ما عرفوه ولا ذاك
الشخص الذي تبادلوا بينهم النظرات مخافة هيبتة أو مقام من
أرسله. سقطت هيبتة إذاً، وعلى مَنْ يعول إذ تخلّى عنه مَنْ في حكم
ممثلي العاصمة هنا، وأيُّ سلطة في هذه الديار إذا لم تَعْلُ كلمتها،
ترسل رجالها بالهراوات، وإذا اقتضى الحال بالبنادق، وتفَضُّ أي
نزاع في الحين والحال، تقول إنه منطق المفيد والصّح، وهذا رأيه
أيضاً، آلاف الرجال يعلفون طوال العام ليتدخلوا من أجل الحسم
فيه وتسقط كلمتها، تعبت بها العامة والسوقة، ها، ويضيع كلّ
شيء، أضيع أنا أيضاً! السلطات المحليّة هذه المرة كان عندها
كلام مختلف. أخبره قائد حامية الجندرمة، هو وقايد وزر
الداخلية، بأنّ المفوض المركزي الذي تتبع له هذه المنطقة،
يحرص الحرص الشديد على أن يؤدّي محكوموه شعائهم وأن
يتبعوا معتقداتهم على الوجه الذي يحبون، المهم أن يبقوا ممثلين،
وأيّ مسّ بهذه المعتقدات التي لا تحرك فيه ساكناً، يهيجهم، إياكم
التحرّش بهم، التعليمات أنّ الإيالة أضحت مرجعاً لهذه الشعائر
يقصدها العرب والعجم والبوذيون والوثنيون، وعبدّة الشيطان،
أيضاً، كلهم يعود علينا منها خير عميم، نحن هنا نعمل بما تقول به
العامة، إن وجدت قوماً يعبدون الحمار فعليك بالحشيش، وأنت

تريد زرع الفتنة! . رغم هذا حجتهم وجد عند خُدام السلطة حلاً
ماكراً، فتوى منا ستنطلي على هؤلاء المغفلين، ولا تستطيع أن
تتهمنا أننا لم نمدّ لك يد العون، لا بد أن ترفع في الأخير تقريراً
لصالحنا نطلع عليه، وسترى أولاً ثمرة عملنا؛

- شوف أسيدي، بالحيلة يمكن أن نفرّقهم بعض الوقت
لتنجز الأشغال، ولا تتأخر أنت عن تنفيذ مهمتك التي نقول إنها
من صميم أمن وصلاح الحاكمية، وبإيعاز خفيّ منا. سنرسل
الليلة مَنْ يصعد إلى الجبل، ستكون الأجساد قد تعبت من طول
الوقوف، والأجفان تغمض وحدها من النعاس، سينادي المُنادي
يا أهل لبلاد أنا مَنْ ترسلني إليكم للاً نونة كلّ عام لنقل طلباتكم،
هي تُعلمكم موسمها هذا العام سيتأخر عن مواعده فهي غارقة في
الصلوات والتعازيم والدعاء، عسى أن يستجيب المولى لبعض
حاجاتكم، والنساء خاصة، فإن كان لها حظوة عندكم حقاً
وترتجون بركاتنا عودوا إلى بيوتكم واطمئنوا فإنها ستُنادي عليكم
قريباً جداً، وإنها لتشعر أنّ شيئاً خارقاً سيحدث لها ولكم جميعاً
بإذن الله، وبلدكم سيعمّها الخير والنماء، وتصبح مركز علم
وتجارة وسياحة إن شاء الله؛

وكذلك كان، ما أن طلع النهار إلّا وخلا الطريق العام كلياً
من الغاشي، تعجّب، اختفى مَنْ كانوا في الطابور أمس؛ بأيّ سحر
تفرّق طابورهم، وهل جاءهم النداء الذي خُيّل إليهم أنهم سمعوه
من الجبل، أم هطل وابلأ من السماء؟! عزّوا هذا إلى إحدى
كرامات للاً نونة، يعلمون ويوقنون تريد بهم خيراً، وردّوا
موافقين، مسلمين، مستسلمين، المثلّ السائر عند أهل الموغريب
أجمعين: (كلّ تأخيرة فيها خيرة).

جری هذا كله تحت نظر سلام، يراقب من مجلسه في الركن القصي بمقهى هنية ويحاول أن يفهم ما لا يفهم. نَبْهَتْه فِطْنَتُهُ بِحَدُوثِ شيء غير عادي، إنما لا خيط منه ليمسك به، فزاد هذا يشعره بدخول الخيال في الواقع أكثر ممّا يجب، وخروج هذا من ذاك، رغم أنه متعوّد على هذا التحول، ويطلب من جمهوره دائماً كشرط للاستماع إلى حكاياته أن يتلاءم مع التحول والمسح، والآن، ها هو يمسك برأسه بين كفيه، متحيراً أهى دوخة عابرة تطوف به كلما أشكَلَ عليه أمر، أم الدوخة يسببها ما يدور أمامه ولا يفقه فيه شيئاً، وكيف. وحبذا لو هنية تركته لحاله، تأبى إلا أن تتدخل في ما لا يعنيها، وتزيد طينتها بلة تتظاهر بالإشفاق عليه: ما بك يا ولد خالتي العزيز، يا لكبيدة، أنت في عار النبي، هذي عين ضربتك، أعرفهن الجارات الحاسدات، يردن لي أن أبقى وحيدة ليستحلين شتمي بالروّاسية، الله يستر بكلّ ما تملك تعيش هي ورأسها مثل الجن، وهن الجنيات راقبتهن كلما تظهر قامتك من أول الطريق يخرجن رؤوسهن بعد أن كحلن العيون وسوكن وطلين وجوههن بالغبرة الرخيصة مثل فريضة، ولولا أنني أخرج لهن يروني مقبلة عليك وزيتي وقامتي لهروّلن يحسبن ستفتح لهن الأحضان، العوجات، العاقرات، الساحرات، بأزواجهن يراودن رجال الأخريات؛ خمسة في عينيّ الشيطان، وأسرعت إلى مطبخها جلبت منه أعشاباً فيها لمخينة ووضعتها على جبينه بعد أن تحسسته، نعم أنت فيك السخانة، وجلبت كذلك حليباً ساخناً مع فليّو ومرددوش، ورافقه النادل إلى الغرفة وبخّرتة بالحرمل والجايي المكايي، ستعرق وفي الصباح، تقول، وهي تُمدّده على السرير ثم تأخذه إليها بكلتا ذراعيها البضين، وهو: يا بنت خالتي لعزيزة واش أنا صاح أو كنت في منام!

نعم، نام، بينما قضت هنية جزءاً من ليلتها في ما ارتأت أنها المناسبة لتحزم أمرها، وتُخضع لها سلام هذا الذي يتأبى عليها ولم يبقَ إلا أن تعمل له عمل النساء في هذه البلدة. لا تريد أن تقتله أو تضبّعه، غايته أن تصيِّره أرطب من الحرير، ويدور في أصبعها مثل الخاتم، وإذذاك تنصرف للأصعب، فطريقها شاق وطويل، وسلام ربما يكون عوناً وسنداً. كانت قد أعدت للمناسبة. الوقت ملائم، هي في الليل، وفي ليلة مقمرة من بداية الشهر القمري، كشرط أول للعمل. جلبت لعدتها الأعشاب اللازمة للخلطة التي ستصنعها من نباتات الجبل. تناولت من قفة منها أول شيء زهرة بلعمان، وزهرة الريحان، ضمت إليهما نبتة أليلي (الدفلى) سبق وأن لطختها بدم بهيمة، وزادت السدر، لا بد منه يثبت عقد السحر. ثم جلبت صرة تحتوي على نباتات ذكروا لها أن الجن يسكنها منها الحرمل مع نبتتين أمازيغيتين هما (أفساس) و(أيورمي) وزادت النعناع منصوحاً به لعلاقته بالكبش وعلاقة الكبش بالخصوبة، فمن مصلحتها أن يكون سريرها دافئاً مع سلام، فيستسلم لها في كل الأحوال. جمعت هذه الخلطة وصبت عليها سائلاً كالمرق أضافت إليه قدر أصبعين من عسل متخثر كالدم، عسل يُدعى أزيز، وطفقت تعجنها وهي تهمهم بتعاويز حفظها لها عطار يهودي من آيت عتاب، ثم اغمسي هذا العجين بأصبعك في فمه وسترين يا هنية من أكون!

اخترقت خيوط النهار الأولى الغريفة العليا ففتح عينيه. فركهما مرات ليتأكد من يقظته، وأنه ودّع حقاً ليلة أمس، ما جرى له فيها، كيف له أن يسترجعه على حقيقته، أو بمقدوره ذلك. لم يفتن لشيء، وإن مصمص شفثيه وهو يتعجب من طعم حلو من أين

أتاه. أَوْعَبْتُ به وهو نائم، وهذا بقية من طعم شفيتها يرتشفه هذا الصباح في يقظته. لا، هل حدث ما كان صمّم أن يتجنّبه، فالرحالة مثله لا ينبغي أن يتورّط في غرام ولا يقترن بزيّجة، ما فيه يكفيه. إنما هنيّة، ومنذ وصل وهي تهاجمه بالغواية، نعم، لم يرَ ضيراً في قرب بريء منها، وأيّ براءة مع امرأة شهوتها فوّاحة وغوايتها تلعبها أقوى من أيّ مقاومة؛ هل هي شرّ لا بد منه؟ يتركها أم يهجرها؟ «كيد الشياطين ولا كيد النساء»، بعض ما كان يطرز به حكايات رواها في جامع لفنا عن نساء ألف ليلة وليلة، مثل واعظ، وإن في كلّ مساء عقب انتهاء حلقة يجذّ واحدة من جليسات حلقة بالمرصاد، لم يعرف أبداً هل لحاجة أم لتسفه أقواله، وتؤكد منطق وكيد الحكاية. أنت الآن في حال مختلف، والحلقة وراءك، لن تنجذك الحكاية لتعود إليها وتناور أو تختبئ في شعابها، وتختلق وتزيّد من رأسك أمام الجمهور الساذج، المتعطش للعجب. إنها هنية لم تصادف مثلها في كلّ ما رويت من قصص النساء، فهيت لك.

لا حيلة يا سلام ولا حلّ إلّا بتدبير منك، هذا ما انتهى إليه وسواسه، لولا أن لا مال معه. اهتدى أن يُقنعها بأنّ بقاءه تحت سقفها مثيرٌ للشبهة، ليس من الحلال في شيء؛ الأفضل لهما معاً أن يتباعدا، فهو ذو حرفة، سيّدعي هذه الحرفة. اعتاد أن يعتمد عليها وقت الشدة، عندما تبور بضاعة الحكي، كذلك غيره يفعل في جامع لفنا. في فصل الشتاء تفرّغ الساحة فينتحون ركناً يضعون بساطاً يعرضون فوقه أعشاباً متفرّقة، وينتظرون الفرج، سأفعل مثلهم. الدكان موجود، يكفي أن ينتقل إليه، فقد تدبّر أمره تحسّباً لظرف طارئ. رغم عزلة عن وسط البلدة سيّغري، يقع في خرائب

نونة القديمة، والمهجورة، هي واسعة، سيتحدث الناس قائلين في ما بينهم إن هناك مجنوناً اختار أن يفتح تجارةً في موضع مهجور، البناءات هنا تداعت من قديم، والعنكبوت والجرباع وحدهما سكانها اليوم، الإنسان والعمران يذهبان وتبقى القوارض والحشرات والخيوط تلهو مستأثرة تمرح في الأمكنة حرّة بلا سلطة ولا رقيب.

إنه ليجتاج مؤقتاً لهذا الخفاء، ولا بدّ لعمله كي ينجح ويثير الدهشة والغرابة، فيتفوق على زملاء الحرفة، من أن تكتنفه الأسرار. سيثير اعتزاله من حوله. سيزيد من لغزه بين القوم هنا، غريب ويزيد غموضاً بالعزلة. لن يتفهّم أحد حاجته، فحيثما حلّ وجد العري والفضيحة يتقدمان، ومن حوله يتبارون في إشهار أوضاعهم، لا عيش يحلو لهم من دون هذا الإشهار، لذلك تراهم يزدحمون في النهار، ضوضاؤهم ولغطهم يعلوان تحت الشمس، حتى في المساجد يلغون، إلى أن يسمعوا تنبيه الإمام وهو ينبري لخطبة الجمعة يذكّرهم بعد قراءة الحديث الشريف بحُكم من لغا: «أنصتوا رحمكم الله أنصتوا يغفر لي ولكم الله»، وقد لا يسمعون. لن ينجو من الفضول، من القيل والقال، هو أدري بهذه العقول، وسُرّي عنه فجأة، استحضر من محفوظه الحديث الشريف يواسي به نفسه، ويبثّ باسترجاعه رجاء، ويغطي خوفاً عابراً من أن يكون مصرّاً في إيمانه، أو ضعيف النية، مؤمن هو لا ساحر أو مشعوذ، الحكاية تسحر النفوس، ولا تحرف إلّا ضِعافها عن الطريق، بل تفتح أبواب الأمل وفسيح الآفاق؛ هو مؤمن وهذه محنة أخرى يُختبر فيها إيمانه، جاءه الحديث دليلاً ومنقذاً: «عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قاربوا وسدّوا واعلموا أنه لن

ينجو أحد منكم بعمله، قالوا يا رسول الله: ولا أنت، قال: ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمة منه وفضل».

سُيُخَّر نَادِلَ الْمُقَهَى وَهْنِيَّةٌ كَذَلِكَ لِلإِشَاعَةِ، خَبِيرَةٌ فِي النِّمِّ عَلَى مَنْ حَوْلَهَا. سَبَقَ أَنْ أَعْلَمْتَهُ بِشَطَارَتِهَا مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ، حَدَّثَتْهُ مِنْ لِسَانِهَا، قَادِرٌ أَنْ يَلْدَغَ، قَادِرٌ أَنْ تَذُوقَ مِنْهُ إِمَّا سَلْسَبِيلاً أَوْ زَعَافاً، كَمَا تَشَاءُ، يَا وَلَدَ عَمِّي. لَمْ تُمَانِعْ فِي أَنْ تَقْرُضَهُ الْمَالَ لِيَفْتَحَ تِجَارَتَهُ الْخَائِبَةَ عِنْدَهَا، زِيَادَةً فِي الرِّهَانِ عَلَى صَيْدِهِ. شَرَحْتُ لَهُ فَوْقَ هَذَا بِنَاءً عَلَى عِلَاقَتِهَا بِالْعِطَارِ الْيَهُودِيِّ، أَهَمُّ الْأَعْشَابِ الْمَطْلُوبَةِ لِبُضَاعَةِ الدَّكَانِ، الْمَتَوَفَّرَةِ فِي السُّوقِ مِمَّا يَلَاقِي الْإِقْبَالَ، وَسِوَاهَا الْمَفْقُودَةُ فِي الْبَلَدَةِ، مِمَّا تَبَحُّثُ عَنْهُ النِّسْوَةُ بِالرِّيقِ النَّاشِفِ، إِنَّمَا لَا تَتَوَرَّطُهَا أُذُنِي مِنْكَ، إِيَّاكَ أَنْ تَتَوَرَّطَ مَعَهَا يَا وَلَدَ عَمِّي، لَمْ يَكُنْ فِي حَاجَةٍ لِهَذَا التَّحْذِيرِ كَالْوَعِيدِ بِشَرِّ مُسْتَطِيرٍ سَيُصِيبُهَا، غَيْرُهَا طَافِحَةٌ تَخُونُهَا، وَهِيَ حَسَابُهَا فِي رَأْسِهَا، الْقَرْضُ وَالْأَعْشَابُ وَالْعِطُورُ لَيْسَتْ سِوَى ذَرِيعَةٍ، وَسِوَاءِ هَذِهِ فَطَرَتِهَا أَمَلَتْهَا عَلَيْهَا أُمُّ مِنْهَا ذَكَاءٌ، فَأَنَا سَلَامٌ شَحَذْتُ عَلَى هَذَا الْمُبْرَدِ، خَبِرْتُ مِنْ أُخْرِيَّاتٍ لَكَ يَا هْنِيَّةُ مَكْرَهْنِ، سَاءَ لَتْنِي فِي لَيْلَةٍ سَابِقَةٍ عَنْهُنَّ فَتَحَاشَيْتُ كَيْ لَا أَثِيرَ غَيْرَتَكَ الْحَارِقَةَ، مِمَّنْ أَدْمَنَ حَلَقَاتِ رَوَايَاتِي، يَأْتِينَ مَنَظَّمَاتٍ، يَجْلِسْنَ مُطَرِّقَاتِ الْوَجْهِ أَرْضَاءً، تَحْسِبُهُنَّ قَاصِرَاتِ الطَّرْفِ، يَسْمَعْنَ الْقِصَّةَ عَشْرَاتٍ، وَيَكْرُرْنَ الْمَجِيءَ لِمَا هُنَّ أَدْرَى بِهِ، مِنْ أَجْلِهِ، أَوْ يَكُنَّ نَاصِبَاتِ شَبَاكُهُنَّ لَصِيدٍ يَعُولْنَ بِصَبْرِ وَدَأْبٍ وَلَا مَلَلٍ، مَهْمَا طَالَ الْوَقْتُ سَيَقَعُ، وَيَفْتَحُ هُوَ لَهُنَّ سَبِيلَ التَّيْسِيرِ بِكِتَابَةِ حَرْزٍ يَتَوَسَّلْنَ أَثَرَهُ يَفْعَلُ، تَقُولُ عَيُونُهُنَّ، وَأَحْيَاناً يَفْصَحْنَ بِلَا وَجَلٍ، مَا دَمْتُ لَنْ تَقَعَ فِي الْحَبَالِ، سَاعِدْنَا عَلَى تَدْبِيرِ الرِّزْقِ، وَهْنِ يَغْمِزْنَ إِذَا أَرَدَتْ الْعَرَبُونَ تَأْخِذَهُ الْآنَ. لَا تَقْلَقِي يَا هْنِيَّةُ، الْمَهْمُ أَنْ يَسْتَقِرَّ الدَّكَانُ،

ويلعب الملعوب، عليهن وعليك، أيضاً. من هنا سيتفرغ بجد لرصد أخبار البلدة وجمعها، وينتقل في مرحلة ثانية إلى تدوين حكاياها. ودّ لو علّق على باب الدكان يافطة يكتب عليها: «بائع الأحلام»، رآها تسمية تناسبه جداً، عنده وفرة منها للبيع، للإيجار، وهو مستعدّ أن يشتري لمن يعرض، لِمَ لا، بحسب الزبون، بحسب الطلب، وبكلّ الأسعار، هو مَنْ سيحدّد قيمة السوق. لا يهمه في شيء أن يغيّر التجار بالحمق، هذا سرّه وحده. لينتقل فوراً إلى التنفيذ، التجارة ليست حرفته، لكنها الآن وسيلة، طريقة، حيلة، ليحقّق مراده، ثم عليه كذلك أن يكسب قوته ليبرّر الدكان.

أيام فقط، وأقبلن عليه. من فم لأذن. صرن يصلن مُنْهَكَاتٍ. متورّمات الجفون، من أرقّ. ويَعُدْنَ إليه مَرَحَاتٍ، مورّدات الخدود، قُضِيت الحاجة يا فقيه، وما هي يا ترى؟ ششش، كل واحدة تكتّم على صاحبها حلمها ولا تبوح بنشوتها، والأخرى تقلي لها السّم أن حلمها أبهج، وحاجتها أنفع، وسِرُّ نجاحه معهن أنه بعد سماعه ما ينخّص على كلّ واحدة، يعمّد فيصوّر لها نقيضه ويهدد أمامها الأمانى؛ يوحى لها أن همّها سينقشع بعد ليلتين وثلاثة أيام، وهكذا مثل جداتها في عهد الاستعمار، سترى صورة محمد الخامس في القمر. وجد في هنية خير معين. لم يقطع الصلة بها، دأبت تجلب له أخبار نساء البلدة: جفاء هذه مع زوجها، خوف تلك من ثانية أو ثالثة ستقتحم عليها مضجعها، وماذا حيلة مَنْ لم تنجب الذكر ويؤرق عليها هذا عيشها، فالتى قلبها بعد عينها يسرقها، وهي في عنق رجل، وآخر يغربها كلّ يوم، ويحها كم تخاف أن تستسلم، وكيف لها أن تقاوم جاذبية وفحولة مَنْ بات

يظهر لها حتى في منامها . مقابل هذا تحمل إليه هنية حكايات الأزواج كذلك، وما يعتبرنه أسراراً دفينه، بينما هو رائج، وما هي بلواهم، وما يشغلهم فيتحصّروُ لهمّ عليمًا بأسرار المضاجع . هكذا تأتي له أن يجمع كما مثيراً من حكايا البلدة، كان يدوّن أغلبها في دكانه ليلاً على ضوء الشمع، غير مزود بالكهرباء، إذ خرابة نون لم تصل إليها بعد خدمات البلدية . وقد استحسن هذا، فلا السلطة ستنتبه له، ولا طاف به مقدم الحومة ليأخذ النصيب، ومخبروها لم يتشّموه بعد .

واطمأنّ لهذا الحال زمنًا، لولا أن بدأت فتنة تشتعل في البيوت وتنقذ مثل شرارات: زوجات ناشزات يعصين أزواجهن، لا يُطعن في الفراش، وبكلّ الأوضاع كما يلحّ الأزواج وهم كالشيران في هياج، ورجالٌ، هؤلاء يقصدونه مستترين في هيئة متسولين أو معوقين، يبثونه شكواهم وأوجاعهم، جلها مع ضعف الباه، وما يتسبّب لهم جرّاءه من حرج، بلغ حداً أنّ سيدة اتخذت لها عشيقاً تُدخله إلى البيت على مرأى ومسمع زوجها، وتأمّر الزوج، الذي صار مغلوباً على أمره، أن يهجر الدار في أوقات معلومة، اللهم إن أحبّ أن يُسفي الغليل بالفرجة عليهما من الطاقة فهي لا تمنع، فما كان منه إلّا أن وصف له قراءة كتاب «الروض العاطر في نزهة الخاطر» و«رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه»، ووصفة من خلطات هنية من أعشاب الجبل، تؤخذ كلها إمّا في ليلة مقمرة أو قبل طلوع الشمس والشفاء معها ثابت بإذن الله؛ وكان هذا قبل أن تدور على سلاّم العشّاب الدوائر، ويضطر لإغلاق دكانه، حامداً الله أن فلتَ بجلده .

.. فإني وجهت مرةً زائراً جاء يطلب نصحي في أفضل النساء بما ورد في «العقد الفريد» لابن عبد ربه، يحمل جواباً عن سؤال لعبد الملك بن مروان، كتبته له في رقعة: «خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين، درماء الكمين، مملوءة الساقين، جماء الركبتين، لقاء الفخذين ناعمة الإليتين منيفة المأكمتين بداء الوركين مهضومة الخصرين ملساء المتنين فخمة الذراعين رخصة الكفين ناهدة الثديين كحلأ العينين زجاء الحاجبين لمياء الشفتين بلجاء الجبين..» ويحك، أنكر بن مروان، وأين توجد هذه؟!، قال: تجدها في خالص العرب أو في خالص الفرس».

مضى يوم، فسمعت طرقات بباب دكاني، دفع الرجل يده إلى صدري، طرحتني أرضاً يعنفني ويصرخ في وجهي أريد أن أسترده مالي، أنفقت كل ما أملك في ماخور البلدة ونواحيها ولم أجد من فيها من النعت إياه واحداً في المائة، وتحدثني صاحبات البيوت بمال قارون، ليس في بلدتنا، هنا، إلا شليحات ضامرات، دقيقات السيقان كالمعزات، مطلوباتك ونعوتك لا توجد. ثم إني في يوم آخر، وجاءت إلي امرأة تخفر في حياء، حسبتها من طالبات الحاجة لتميمة تقيها من العين، ولم أكن أرى ما يمكن أن يحسدن عليه، أو خلطة أعشاب منها ما يرفع الغمة ويعلي الهمة، وفيها ما تؤمن العاقر أنه يسخن ماء الرجل فيساعد على الإنجاب؛

طلبت أن تختلي بي فعندها سِرُّ لا ينبغي أن يخرج عن اثنين، وحتى الهواء لا يلتقطه، ولم أشك فيها عجفاء بعد أن أسقطت حايكاً تلتف به، لا تحرك جداراً فكيف بإنسان، مرحباً آش حب

الخاطر، أكلمهنّ ما استطعت بلغتهنّ، أمازيغية الأطلس المتوسط،
 فيتهللن، وأنتقل إلى التلاوة ببعض الآي الكريم، فينحني يقبلن
 يدي، يلتمسن البركة من ولد النبي الذي جاءهن من لّلا مكة ليشفي
 المرضى ويُفرّج الكرب، أستغفر الله أسحب اليد وأنكر أيّ مقدرة
 إلّا ما حباني الله من تقوى وصدق وحسن نية، أستغفره، كذلك
 فعلت هذه المرأة قبل أن تجهش بالبكاء وتنهال عليّ بالشتائم، ماذا
 فعلت بي يا ظلام، الشكوى بك لله، لا أفهم، فيزيد تقرّعها لي،
 وتعلن صراحة أنني خرجت عليها، ما معنى الخروج عليك يا امرأة،
 وتنكر أيضاً، أنسيّت ما فعلت بي، جاءك زوجي يشكو لك سوء
 العشرة بيننا، أنا أعرف منك بسببها، من غير الزوجة أدري ببعليها
 في مضجعها، قلت له شفاؤك عندي، هات البياض وتعال غداً
 بألف ريال تجد وصفتك الساحرة ستبدل ليلك نهاراً وجحيمك
 نعيماً، وكمل من راسك يا شايب يا عايب، يا غدار، يا فقيّة الغش
 والمُنكر، وأخرجت من شونها رقعة، هذا هو الدواء يا دجال، أنا
 لا أقرأ ولكني من كثرة ما رجلي قال الكلام المكتوب وأعاده
 أصبحت كالبيغاء حفظته غيباً: «عليك بالبيضاء العطرة، اللينة
 الخفرة، العظيمة القاع، المُشهية للجماع، إذا ضوجعت أنت،
 وإذا تُركت حنت؟! تذكرت أنني استخلصت هذه العبارات من
 «تحفة العروس ومتعة النفوس» للتيجاني، كتبها فعلاً للرجل ليتسلّى
 بها ويحلم إن شاء، لا وصفة دواء، والآن، انقضّت عليّ المرأة
 الغاضبة لا أتركك إلّا تطأني، وتستمتع بي أنا البيضاء العطرة، وهي
 عجفاء، اللينة، وهي خشنة، المشهية للجماع، وهي منقّرة، إذا
 ضوجعتُ، سأجمع عليك الموتى قبل الأحياء، هجرني زوجي
 بسبك فقم مقامه أو أفضحك!

وحتى تكمل الباهية، كما تقول العامة، وقفت عليّ في اليوم التالي فرقة من القوة العمومية. جعر رئيسهم: «الباتانت!» لم أفهم، عاد يصرخ: الرّخصة، يقصد رخصة مُزاولة التجارة. ارتبكت، هل سيصدّقني لو قلت إن تعشّابت^(*) مهنة شكلية وأني في الحقيقة بائع أحلام، سيعتبرني أضحك على ذقنه، ربما زاد عليها: والحوث في البحر، هل تبيعه حتى هو؟! سيكون محقّقاً تماماً وأنا المغفل، رغم أنّ الحاجة إلى الأحلام ربما تكون بقدر الحاجة إلى الطعام والماء، قائد الجندرمة نفسه جاءني متخفّياً ليشتري حلماً، ينتظر الترقية منذ أعوام، لم يَبْح بطلبه، ذكر فقط أنه يريد أن يستيقظ ذات صباح فيجد نفسه في مدينة العاصمة، في مكتب واسع وبأثاث فاره، وكلمته لا تنزل الأرض، في العاصمة يتقرر مصير البشر، أمّا في هذا الثلث الخالي فها أنت ترى، وقهقهه، ها، ها، ها، نعيش كالبقرا!

إنما هذا البغل مع كتيبة لمخازنية، بالبنادق فوق أكتافهم، وعيونهم حامية كالجمر، ماذا يعلمون عن الحلم، كيف يفهمون هذا الهُراء مني؟! فكرت، لو رشوته أفضل لي وله، الرشوة عملة صالحة ورائجة جداً في بلاد الموغريب، لو أستطيع أن أبعده عن حرسه وأنفرد به، أوحيتُ له فتبعني إلى الداخل، دسستُ في جيبه المعلوم، هذه بركة الشريف، قبل وظلّ واجماً، لكن هذا سيُعفيك فقط من لخطية، أمّا الباقي فلا يد لي فيه، جاءت شكايات كثيرة للقيادة، النساء قلن عنك تبيع أعشاباً مغشوشة، ولا تنفع، والرجال اتهموك، زوجاتهم خرجن عن الطاعة بسببك، وحاشا في الدين

(*) مهنة العطارة.

قالوا ما لا يُقال، هل أزيدك أو يكفي، دسستُ في جيبه معلوماً آخر، فخفَّ وجومُه ولكنه تأسف يا سيّ سلام، يا لفقيه، مَنْ قال لك أنا فقيه؟ أعرف، فقيهٌ وعشّاب، أنا أحتاج كذلك إلى ما وصفته للمعطي قابض السوق، يدعو لك صباح مساء، حكى لي أن النّحس زال من بيته وكلّ شيء الآن بفضل بركتك على ما يُرام، سأحتاج إليه لأندخّل فتسقط عنك لخطية، أمّا الطامة الكبرى فهي أكبر منّا جميعاً، وأخذ بيدي يخرجني من قعر الدكان، مشينا بعيداً عن فرقته في الزقاق الخالي والمعتم، عَطِنُ بالبرودة والعَمَل، انفرج عن منصةٍ ترابية اعتلينها تشرف مباشرة على الجبل وعلى جانبيه تنفرش وتنحدر تلالٌ مُحدودةٌ وكثيفةٌ بأشجارها الخضراء، أطلال النظر وهو يتفقد المشهد أو المشاهد الأثخانة، سألني أخيراً إن جئت إلى هنا سابقاً قلت لا، لم أكتشف هذا الموقع، ولا زدتُ خطوات عن دكاني، أنا كما تعلم غريب عن هذه الديار، فكيف؟.. وماذا عن مَنْ اشتكاك، تتجسّس عليه من هذه المنصة، بل وحاولتَ تسلُّق الجبل، أنا؟ - من؟

- وأزيدك يا لفقيه، هل تعرف ملكَ مَنْ هي هذه المباني، هذا الزقاق وهنا في دكانك؟

- هذه خرائب، من عهد قديم، يسكنها الفئران والعقارب وما شئت، إنما هي ملك أصحابها.

- آس من أصحاب، هذي أرضُ أهل نونة، في اليمن، ونحن في الأطلس!

- ها أنت قلتها بعظمة لسانك: نونة، هي صاحبة المكان.

- لا مالك له، أصحابه هم الجان!

- لا، انظر إلى الجبل، هناك، إلى القبة الخضراء، ربما

الغيم الآن يحجبها، لَمَّا تصحو الشمس سترها أفضل، إنما فات
الفوت، خَصَّكَ تهزُّ قلوْعك، سَأَسْكَتَ عن الباتانت، وعن شكَاية
الرجال ولعيالات، أَمَّا الباقي فأكبر مني وحتى من القايد،
بالمُناسبة يطلب منك العشبة المَعْلومة، إنما أنت لماذا تلاحق
الحاجة نونة، تدعي أن لك حساباً معها، وتريد أن تسحر لها،
و...؟

- 24 -

لا مزاح مع هذا الكلام، قال هزُّ قلوْعك، يطلع النهار وأنت
لست هنا، العَسَس سيحضرون، أنا نَبْهَتَكَ! رغم وحشة هذه المباني
فقد أَلِفْتُهَا، وطرَدْتُ الخوف منها، وتعايشتُ مع الكائنات التي
تعيش فيها، الخفية منها، أيضاً، حينما تغرق في الظلمة، الأشباح
التي ترافقني حين يدلهم الليل وينقطع الحس، لا بشر هنا والطيور
في وكناتها، فتشعر هي أيضاً بالوحشة وتطلب الأنيس، منبوذة هي
وغريبة مثلي، وكلّ غريب للغريب نسيب. تُرافقنا باقة نُجيمات
تتلاّأ من عليّ، وظلالُ نور شمعتي يرتعش منشوراً في حيز ضيق ننظر
إلى بعضنا والصمت بيننا سلطان، ثم ففي قلب الليل أسمع مثل
حركة تدبّ، وهمهمات، بل وأصوات، مثل ما نسمعه يعلو ويخفت
في بيوت الجيران، قرقة أو همساً، نتضايق أول الأمر ثم نغفو
عليه، نألفه لدرجة أننا نحتاج إليه كلّ ليلة لننام. كانت أجفاني
ستطبق لَمَّا تجاوب إيقاع أهازيج، لا من حلم آتية، فأنا بعد صاح،
ولا تُعرَف من ذاكرة محفوظي، أغنية، ربما لحن يطرق الرأس بلا
ميعاد، ويخرج مُدندناً على اللسان ليوافق إحساساً ما، وكنت بلا

إحساس لحظتها سوى شاغلٍ اضطراري، العثور من مطلع الفجر
عن مكان يؤويني، أنا وبضاعتي المغشوشة، بقينا مستورين وقتاً
هنا، ربما نُفَضَّح أول ما ينجلي النهار، ونُطْرَد من هنا.

لأُقطع الشك باليقين، غادرت لحافي المفروش دائماً في ركن
داخلي بالدكان وسرتُ أقتفي مصدر الإيقاع:

أدفع بيدي شمعة تشقّ قليلاً جلمودَ الظلام، يمتدّ في زقاق هو
ذاته الذي مشيت فيه عصر اليوم مع قائد القوة العمومية.

انتهى بنا إلى المنصّة الترابية، اعتليتتها تغوص أصابعي في
ترابها تندي ليلاً. كلما صعدت فيها عدت أترحل.

يدٌ خفية هي تدفعني إلى تحت، ثم، من خفاء، يدٌ أخرى
ترفعني إلى أعلى، إلى أن استوى جسدي فوقها.

عيناي غمرهما نورٌ وضاءٌ من قوته أغلقتهما للتو، تاركاً سمعي
وحده بين الأهازيج تترنّح ذات يمين الجبل ويساره.

كنت قبالة الجبل، عند سفحه، والتلال المتدرّجة، أسمع من
كل تلٍ فيها رنينٍ إيقاع:

هنا ضربٌ بندير، فوقها رنةٌ وتر، أعلاها رجُعٌ أُكفّ، تقدّحها
حرارةٌ تصفيق.

ويشكّل الرنينُ كلّ دفعةً واحدةً في هزةٍ مجتمعة، حين تسمعها
فهو الجبل إذاً زلزلةٌ ويسطع منه، قلّ فيه برقٌ يُضيء في لمح البصر.
تجلّت لي معه عندئذٍ خريطة كبيرة هي منصاتٌ تدرّجت فوق
التلال.

كلّ منصة فرقةٌ راقصاتٍ وراقصين، جلايبُ بيضاء وشدّ صُفر،
وقمصان ومضّماتٌ مزركشةٌ بطرز الصقلّي، حول خصور ممثلة،

تهتزّ أردافهنّ والأيدي تتشابك، يهزّزن على الإيقاع إمّا في حيّز القدمين، أو يتقاطعن.

كذلك مثلهنّ ومعهنّ يتقاطع الرجال في نصف دائرة ويتقابل أو توازٍ أو يصنعن دائرة، بتماسك قوائمه مرةً الأكتاف، وأخرى الأيدي، ثم الأكتاف، وتُستعاد الحركة كالدورة، إلى الأمام، إلى الخلف، إلى..

هذا إذاً هو الحيدوس، لم أكن قد شاهدت منه إلّا نُسخاً مشوّهةً في بعض المواسم، كم اشتقت أن أرى وأسمع رقصة (أحيدوس) الجماعية على حقيقتها وهندستها الجسدية وإيقاعها المنسجم، وطقوسها كاملة، وفي ليلة لو أسعف الفصل مقمرة.

نسيت أين أنا. أغوص بأصابعي في الطين المبلّل بالندى، وأصعد إلى علوّ، فما هو أعلى. أقرب من الحفل، أو العرس الذي يشهده الجبل، أنغامه تملأ أذنيّ، والأهازيج ملء السماء. حيّرتني تنهبي، من يُقيم عرساً بهذا البذخ لا بد من عِلّة القوم، من كبار أعيان المنطقة. حتى إني لمّا بلغتُ أقصى ما يمكنني الوصول إليه في صعودي إلى العلوّ. أحاطت سياجاً أسلاكٍ شائكةً بما دون ذلك ممّا يرتفع فوقني ولن أطوله لا بقامتي ولا قدمي. ربما روحي وحدها، أحسستُ بها جناحين نبتا على ظهري وهما يوشكان على الطيران. زغبهما أملس، خفيف، أتلمّسه لأختبر قدرته على التحليق، هناك، فوق ما أرى، خيّل لي أنني أرى، أشحنهما برغبتني، بأمنيّتي الحارقة، أزودهما بما لم أعد أملك من طاقتي، وها أنذا إلى من أهوى أطير؛ إني أرى، أجل، وكذلك كان..

خطفَ بصري في أعلى تلٍّ وسط فرقة أحيدوس وهي في خضم حركاتها الراقصة المصفّقة، يضرب بالبندير، وهو يمشي

ويجيء أمام سرب الرجال والنساء، يضرب ويؤثر لهم فتتهتز
الأكتاف، وتتأرجح القامات، أمام، خلف؛ خلف، أمام، وموحا
والحسين أشيبان.

والله هو أشيبان، لو رأيته من قبل في الحقيقة ما صدقت،
وها هو بخطواته الراقصة، المرححة، تحت بصري، وبضرب بنديره
ترافقه الأكفُ أسمعهما فأقول إني أحلم وأصدق حلمي، أنا بائع
الأحلام، يحصل لي أجمل حلم لا يُقدَّر بثمن، وأين؟

في هذه الأطلال وبين خرائب نونة المنسية، هداني حدسي
إليها، بالأحرى فقري، وتُعطي هذا البهاء كله في ليلة ظلماء، هدية
وداع قبل أن تهز قلاعك، ممن؟

لك أم لغيرك سيّان، فلن تجد مثل هذا الحلم في أيّ بلد آخر،
تحسّ به يدغدغ لحملك، يسري فيه خدراً، وجسدك الذي منك
ينفصل عنك، يداك ارتفعتا وقفزتا فوق السياج الشائك تتبعهما
قدماك، مثل طائر لا يقبل بنهاية التحليق إلّا في القمة تنزل وسط
حلبة الرقص؛

خلافاً له تصفق بيديك لا بجناحيه، وتتسرّبل بجلباب أشيبان
تسكنه لتصيره، وإن لم تملك خِفّته، ولا طواعية أطرافه يراها تمشي
أمامه، فيتبعها خِفّة تذهب به على خُطة رسم خِفّة وتستدير، أيهما
يسبق الثاني، هو، أم البندير، أم أنا، وقد حللت أخفى منهما،
صرْتُ أطيّر؟!

جناحي أم أنا، أم كلانا نحلق في دوائر ضوء يتبع موسيقى،
هي مركب صوت حزين،

يغني بأمازيغية المنطقة، مزيج تفجّع ولحسرة، من جوارحي،
وكانه يخرج من حنجرتي:

«إر قفا سن عما س أرضا أذريذرقف/ وركيغ بورحساب إاور
أذنخطف»
«كنت منيعاً، هيهات للحب أن يخطفني/ ما كنت أحسب أن
القلب ينخطف».

تكاثرت الدوائر، ومعها اتسعت رقعة الضوء، منه انبثق الطيف
الذي سرت أتبع وأنشد:
«أزين نليف أنو انقس كذتوين/ تتاغ أربي ذناش انغوين»
«جمال حبيبي شعاع يؤلم عيني/ آه يا إلهي لو يكون من
نصبي».

وصرت أدور حول الضوء، أرى الصوت شاخصاً فيه، أتيه في
أشكال جماله، تيهني هواه:
«إيرا كيغ أذريغ مشا روخ اذهويغ/ ذمشند نرضا كميغ
أتعذبيغ»
«من أجلك أذرغ المكان جيئة وذهاباً/ جئت طالعاً فوجدتني
هابطاً».

أحسستني فعلاً أهبط قد هيض جناحي، لم أعد أقوى على
الدوران، منتهى طاقتي أن أسترجع توازني، وأسترده بعض وعيي،
كأنما قلت مني زمام عقلي، اختلط علي ما حولي.
الحق، شغلتنني نشوتي عن بقية حالي، فما ذقت أعذب ولا
رأيت أبهى ممّا أنا فيه طيلة أمد ترحالي. ثم وأنا أتلّمظ لذتي،
طمعت أن تدوم، وساء لثني كيف لمثل ما بدأ إثر برقي خاطف في

ليلة داجية كهذه أن يدوم. فلو أني أردتُ أن أدوّنه على القرطاس،
أيّ الكلمات ستأتي أقوى وأنفع وأدقّ لوصف شكله، وضَمِّ
متفرّقه، ورسم صفاته ونقش بدائع صنّعه، ثم استشفاف معناه،
وتوقيع مغناه، وتوليّف أضرب صنّعه؛ أيّها يا تُرى يصلح ويكون؟
هذا تحدي الكتاب الذين استغرب لهم كيف يؤلفون الروايات
والقصص، ويدخلون عليها كثيراً من الخيال، أو ما يقولون إنه خيال
يلتقطونه من الحياة، لا أفهم كيف يُقنعون مَنْ يقرأهم بأنه يعيش في
الواقع الحقيقي، كيف يمكن أن تجمعه الكلمات، والله العظيم إن
هذا يحيرني. إنما مشكلتي أكبر من هذا ومنهم، فأنا جمهوري
يجلس أمامي، يحيط بي في حلقتي، في ساحة عمومية عارية، الله
فوقنا والأرض نفترشها ونقف عليها تحتنا، كلما نطقت بكلمة، أو
نقلتُ واقعة، أو أنطقُ مخلوقاً، أو ذكرتُ معيياً، طلبتُ المغفرة
والستر، فما لا يصيبك قد يلاحق دُرَيْتَكَ. لا يكفي أن أحكي
للناس، وناسُ هذه الأيام لا يقبلون أيّ كلام، دخلوا إلى المدارس
وتخرجوا من الجامعات، يحتاج أن أسلب عقولهم وأحلّق بهم في
سبع سماوات وأرجلهم تغوص في الوحل، فلا يُعيّرونني أني
أستخفّ بعقولهم، وألهيهم بالتخاريف، يتطلب مني هذا في كلّ مرة
تدبير حيلة، وهذا امتحاني كلّ مجلس، إن أفلحتُ كسبتُ وذاع
صيتي، وإن أخفقتُ ضاعَ رزقي وشأهتُ سُمعتي، ومَنْ انفضَّ
مجلسه منا نحن أهل الحكاية لا حيلة له إلّا تبدل المكان، ما أنا فيه
الآن، ما أسعدهم الكتاب يضعون ما يشاؤون في الأوراق، يُقبل
عليها مَنْ يحب أو يُدبر عنها في أسوأ حال، ولا يسمع لوماً ولا
تقريعاً، وقد يعرضُ له سوءُ كالمرأة التي طلقها زوجها، جاءت به
إلى حلقتي فأشبعني لكماً قالت له هذا مَنْ حكى لنا كيف على المرأة

أن تتمتع على زوجها أياماً وليالي ولا تتركه يظفر بها إلا بعد أن
تروّضه مثل شهرزاد بعشرات الحكايات، وأنا فعلت ما قلت، فبئس
العاقبة والمصير.

- 25 -

- هزّ قلوبك!
- فأين هو أشيبان؟
- هذا حيسان، أفق، لا تدوخ علينا يا ولد الـ..!
- رأسه بين كفيه، بعد أن استلقى أرضاً، أم الأغلب وقع عليها
خبطاً. ثم غطى عينيه بيديه يتقي ضوءاً مشعشعاً. لم يميز، ضوء
نهار أم تُراه مصباح مسلط على وجهه، وما حوله ظلمة لا يرى من
يختفي بداخلها، تثقبها أصوات متداخلة، منها ما يبلغه الآن، لا
يكاد يعي معناه بالضبط، يكتفي بأن يُحيله على عبارة تحذير سمعها
من قبل، وكان قد فهمها وقرر أن يمثل لها قبل أن ينتقل إلى جنة
الليل؛ أمس:
- قل الحقيقة، اعلاش انت هنا؟
- أنا هنا على أحيدوس، أشيبان، الجبل، كان عرساً عظيماً
ليلة البارحة، ما أسعده هذا العريس، والعروسة، بارك الله لهما،
ما تمناه كل أم لابنتها.
- أنت مصمم، تتبale علينا، قلنا لك أفق من الدوخة، أنت لا
تسمع، رأسك قاصح، نحن الذين نحول البشر إلى بلهاء، ومهمتنا
هي أن نهرس مثل هذه الرؤوس!
- اهتزّ المصباح الكشافُ المسلط على وجهه عقب ضربة قوية

من مجهول يحتجّ على كلامه؛ ضربة طرحته أرضاً وجعلته يتأكّد أن الموقف جدّ في جدّ:

- هذا يضحك، يحسب نفسه يضحك علينا..

في الركن صهريج بأنبوين. قال الأول للثاني:

- أي الأنبوين نفتح ونصبّ عليه منه ليفيق تماماً من دوخته،

وهباله؟

نظر إليه نظرة مأكرة حمّلها معنى مضمراً بينهما، وأجاب:

- أترك لك الاختيار بما تراه يناسب الموقف.

بدل أن يبادر لتنفيذ ما اعتاد عليه في هذه المواقف، يتلذّد عادة في أدائها بسرعة، عاد ينظر إلى زميله في المهنة، علامة تردد وحيرة، ينقل بصره بين الرجل والصهريج، ثم إلى مصباح عالٍ تحته مروحة تدور بحركة بطيئة، أوماً إلى صاحبه بإشارة:

- ما رأيك أن نستعمل -ونظر إلى فوق- عوض سائل

الصهريج..؟

أجابه صاحب بالنفي، بحركة تقول:

- قطعاً لا. لنستعمل معه اليسير، الأهون، أولاً، ثم نرى.

انظر إلى جسده الهشّ، تظنّه لا يقنات، ثم علينا أن نخشى العواقب، زيادة عن أنني سمعت بأنه سخّار!

- سخّار - فزّ الثاني من مقعده - تقصد يمكن أن يرمينا

بمصيبة، خاصة تلك الطامة العظمى؟!

- لا أعرف، إنما كلّ شيء ممكن، وهذا واحد من الأسباب

التي قادته إلى هذا المكان والموقف الحرج الذي هو فيه، شوف، عيناه تدوران وحدهما بينما لا ينظر إلى أيّ اتجاه!

- وإذا، نمرّ إلى الصهريج. إنما لم تجبني، أيّ سائل نرشه به، الماء، أم الماء الآخر؟

انعكس ضوءٌ خارجي اقتحم القاعةَ سريعاً على الجدار المقابل لسلام. كانوا هم في الجهة الخلفية منه بينما على الجدار عُلقَت صورة مؤطرة ببرواز مُذهب. صورةُ شخصٍ بادي المهابة، وجهه لا عابسٌ، لا مبتسمٌ، جبهته عريضة، قليلُ شعر الرأس بصلع خفيف. يرتدي سترةً سوداءَ وربطةً سوداء كذلك، على قميص رمادي منقط، خيِّطَ فوقه حرفان رمز اسمه الشخصي ولقبه. حرفان يتلَوْنان، كلما قرأتُهما عينٌ انقلبا مختلفين، فيصعب عندئذٍ التخمين باسمه. عيناه نظراتُهما إلى بعيد وفي الوقت تظنّهما موجّهتين إليك، أنت بالذات. لم يوفر له الانعكاسُ الخاطفُ ما يسمح بتأمل الصورة كلّها بدقة، جمّعها إليه مجملّةً فقط. أعادته النظرةُ خصوصاً إلى ذاكرته البصرية: أي الصورة ذاتها، يمكنك أن تراها معلقة في مكاتب إدارية، على حيطان ولافتات، في مناسبات وأماكن مختلفة، من كثرتها لا يحدّد مواقعها بالضبط. ما لم يمنع ذاكرته من أن تستأنف نشاطها باسترجاع عديد صور منه وبأزياء مختلفة بحسب الفصول. تبين له قبل ذلك أن ملامح الوجه الصارمة لا تتغير، في هيئة قناع ملصق بثبات؛ صورةٌ مألوفة لديه، إذاً، بينما تعذّر عليه كيف يفهم معنى وجودها في مثل هذا المكان، وفي هذه القاعة المظلمة، المخصّصة لنوع فريد من الضيافة والتكريم.

هكذا خاطبوه عندما رموه أرضاً داخلها: مرحباً بك ألفقيه، زارتنا البركة، سترى أنّ بركاتنا أغلى وأنفع من التي تسوّق، هي

وأعشابك السامة في دكانك، نقصد جحرك السري. هنا في حيز يضيق ويتسع بحسب الاستعمال، فهم أنها جدران خشبية متحركة، لا يرى مَنْ يتحكم في الحركة، ولن يمكنه تذكر مضيفه أين هو، من أين دخل، طبعاً إنْ هو غادر المكان بسلام. الأصوات نفسها في الحيز تقترب وتبتعد، تسمعها وشوشة، وهمهمة، وواضحة، ومبهمة، جهيرة وصدى، صدى يتردد، تتبعه حتى لتظن أنك أدركته، ثم يأخذ يتشاءب، يبتعد، يفنى رويداً، رويداً، يسمع فيه أصوات أشخاص يسألونه أسئلة لا يفهمها، ويتكلمون لغات لا هي عربية، أمازيغية، ولا أجنبية، فيها نبرات الطير، والحيوانات البرية والأليفة، وأصوات سمعها في الحلم، فجعلته يفكر أنه في حلم بينما ما زال يتلمّظ متعة ليلة البارحة البديعة، رفقة راقصات أحييدوس، آه، ما أسخى حركاتهن وأطرافهن، بأذرعهن البضة، وأوراكن الممتلئة حتى إن الأرض تحت أقدامهن تُصدر دمدمة على وقع رقصهن، وهو في المنصة يكرع صوت مغنية طروب، ولا يفتأ يردّ عليها بصوت ذكره بحنجرتة، وطاله العجب كيف أتقن لغته:

«الليف أنو ذ لعود نشدان افران انس - أنتا دنيا نش ذ لحياة

انس»

«حبيبي كالعود أنا أوتاره - حبيبي كالدنيا وأنا فيها الحياة».

- كفاك تبالها، محتداً صرخ الرجل الثاني الذي فاتني أن أخبركم أنه يقضم طول الوقت حبوب شجر الصنوبر الوفيرة في المنطقة، وينظر إلى الساعة قبل أن يُخرج من جيب سترته موزة، ثم بعد دقائق موزة، أسترى النظر إليه شاغلي من يدس الموز في جيبه،

وكيف لا يشبع، ولماذا صاحبه لا يشترك معه في هذه الهواية، هي معروفة لدى القردة، والقروود منتشرة في الجبال التي تحيط بنا، ...و

- نحن نعرف مَنْ أنت، تكذب على المقدم والسكان تقول إنك عشّاب، مرةً، وبائع أحلام وأوهام مرة، متى كانت الأحلام تُباع يا نضاب؟! . الله وحده يعلم من أين جئت لتضحك على الشعب الثّوني المسكين، وَضَع ثِقته فيك، أَكَلَت مَحْه نساءً ورجالاً بتخاريفك، أنت فقط واحد دَجّال، والدَجّال في هذا البلد، أنت رأيت صورة حاكمه العظيم، نحرقه حتى العظم بعد أن نسلخ جلده وننزع لحمه نرميه للذئاب. . فتعال للمعقول وقرّ.

- أنا غير عشّاب مسكين، وفي الليل أحلم مثل كلّ الناس، هذا ما كان!

صعقه صوتٌ من قلب ظلام الغرفة وقد انطفأ النور تماماً، أنت تتجسّس منذ باب الخميس في مراکش على القافلة، وأكثر من هذا نقول لك أنت بدأت خطتك من الدار البيضاء، بدأتها منذ شاركت في التحريض على الإضراب العام والمسّ بالأمن وتخريب المرافق العمومية.

ضربَ صدى صافرات إنذار سمع سَلام، شبيهة بتلك التي تعلن أذان الإفطار لشهر رمضان، وفي الخارج كإطلاق نار لبنادق، ربما آخر صدى لقذيفة مدفع، فصمّ أذنيه وجسمه يهتز كنباض، والأصوات تحملق في جوف الظلام، قال آخر، ما تقوم به يؤكد أنك دجال وتحاول أن تسحرنا، ولكن هيهات، اعترف أنك أنت

مَنْ هَرَبَ مِنْ دَرَبِ الْبَلَدِيَّةِ، فِي كَازَا، كُنْتُ مِنْ كِبَارِ رُؤُوسِ الْفِتْنَةِ فِيهَا؛

- هَا، تَقْصِدُ الْفِتْنَةَ الْكُبْرَى، عَلِي وَبَنُوهُ، نَعَمْ أَنَا مَوْلَاهَا،
حَتَّى أَنْ أَصْحَابِي الْمَقْرِبِينَ يَلْقُبُونَنِي وَلَا فَخْرَ بِسَلَامِ الْفِتْنَةِ... أَمَا
إِذَا كَانَ قَصْدُكَ فِتْنَةَ الدَّارِ الْبَيْضَاءِ، مَارَسَ 1965، نَعَمْ أَنَا مَوْلَاهَا
وَزَعِيمُهَا، وَأَنَا مِنْ شَهْدَائِهَا الَّذِينَ رُمِيَتْ جَثَثُهُمْ فِي الْبَحْرِ قَرَابَةَ
شَاطِئِ عَيْنِ الدِّيَابِ، أَيْنَ كُنْتُمْ أَنْتُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، هَا، الْآنَ
عِنْدَكُمْ شَجَاعَةُ الْكَلَامِ مِنْ جَوْفِ الظَّلَامِ؟!

انْفَجَرَ صَوْتُ فِي الظَّلَامِ مِنْ جَدِيدٍ، وَقَدْ عَادَتْ بَقْعَةُ الضَّوءِ
تَسْلُطُ عَلَى وَجْهِ الْمُسْتَجُوبِ. أَصْبَحَ يَرَاهُ الْآنَ بِلَا مَلَامَحٍ مُحَدَّدَةٍ،
قِطْعَةٌ جِلْدِيَّةٌ بِهَا ثِقْبَانِ أَعْلَى وَخَطٌّ نَازِلٌ فِي الْوَسْطِ، بِمِثَابَةِ أَنْفٍ،
وِخْطَانِ أَفْقِيَانِ تَحْتَهُ كُنَايَةُ عَنْ شَفَتَيْنِ، انْظُرُوا، هَا هُوَ يَتَسَيَّفُ،
يَتَلَاعَبُ بِوَجْهِهِ، مَنْ يَعْرِفُهُ مِنْكُمْ، سَتَظُنُّونَ لَيْسَ هُوَ، أَنَا أَخْطَأْنَا فِي
الْمُتَّهَمِ، شَخْصٌ آخَرٌ غَيْرُهُ وَهُوَ بَرِيءٌ، يَا لِلْمُسْكِينِ، تَعَوَّدَ عَلَى هَذِهِ
الْأَلَاعِيبِ فِي جَامِعٍ لَفْنَا عِنْدَ فُقَهَاءِ سَوْسَ فِي تَارُودَانَتِ، فِي زَاوِيَةٍ
تَحْنِصَالَتِ، أَنَا جَدِي حَنْصَالِي وَقَارِي الدِّمِيَاطِي، خَطٌّ لَا يَفْكَهُ إِلَّا
الْجِنُّ أَوْ مَنْ يَشْبَهُهُمْ، وَهَذَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ، لَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ
أَتَى، لَا يَفْلَحُ، وَالسَّحَرُ سَيَنْقَلِبُ عَلَى السَّاحِرِ، هَكَذَا قَالَ
جَدِي، اللَّهُمَّ، اللَّهُمَّ أَنْ يَكُونَ هُوَ الدَّجَالُ عَيْنَهُ، وَلَيْسَ مِنْ نَشْبَةِ بِهِ،
وَنَظَرَ إِلَى صَاحِبِهِ يَسْتَفْتِي رَأْيَهُ، فَلَمْ يُعْزِهِ هَذَا انْتِبَاهًا، فَمَا كَانَ مِنْهُ
إِلَّا أَنْ اقْتَرَبَ مِنْ أَسِيرِهِ، وَعَيْنَاهُ تَحْدَقَانِ فِيهِ. قَالَ لِصَاحِبِهِ الَّذِي
انْتَقَلَتْ إِلَيْهِ عَدْوَى بَلَعِ حَبَاتِ الْفَسْتَقِ وَأَصَابِعِ الْمَوْزِ يَكْرِعُ مَعَهُمَا
قَنَانِي بِيرَةَ حَلَالٍ، وَهُوَ يَتَجَشَّأُ بِصَوْتِ مُمَطَّطٍ، مَسْمُوعٍ، بَيْنَ كُلِّ

موزة وتاليها، وثالثها، ورابعها، ويا أنت إن هناك شبهاً بينه وبين الدجال ويختلفان؛ اسمع: يُقال في وصف صفاته ما يلي:

«إنه رجل شاب أحمر، قصير، أفحج، جعد الرأس، أجلى الجبهة، عريض النحر، ممسوح العين اليمنى، وهذه العين ليست بناتئة، ولا جحراء، كأنها عنب طائفة، وعينه اليسرى عليها ظفرة غليظة، ومكتوب بين عينيه (ك ف ر) بالحروف المقطعة، أو (كافر) بدون تقطيع، يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب، ومن صفاته أنه عاقر لا يولد له».

أكمل سرد الصفات، فتوقف الصاحب عن البلع ودنا من سلام بحذر، يقلب فيه عينين فاحصتين وهو يهمهم: هو، ماشي هو، يمكن هو، تقريباً هو، ماشي هو، سبحان من يخلق من الشبه، نعم، القَصْر هو هذا، وكذلك الجبهة، والقفا عريضة، إنما العين لا، ثم اقترب أكثر كادَ يلتصق بوجهه وعيناه على جبينه، ظهر له صافياً غير مكتوب عليه (ك ف ر) ولا (كافر)، أصحابي إن بعض الظن إثم، فصرخ فيه الذي قرأ الصّفات، يوبّخه متى عرفت الفرق بين الإثم والبرّ، وأنت تعيش في الحرام، وهل أنا من يتسلل إلى بيوت المُحصّنات ليلاً ويهدّهنّ بالفضيحة إن لم يستسلمن لشهوته، هنّ بريئات من كلّ ذنب يا عدوّ الله، من؟!!

لا يخامرني شك، فإن لم تكن فيه صفات الدجال، ربما أخفاها، فهو ساحر، أي يستطيع أن يتقلّب بين الأشكال والألوان كالحرباء، هل رأيت الحرباء يوماً؟ دعنا من هذا، واسمع. أخبرني عمي المتصلّع في العلوم الفقهية، وخط الدمياطي على الخصوص بما يلي:

قبل خروج الدجال بثلاث سنوات يحدث جذب وقحط شديد

فتمنع السماء مطرها وتحبس الأرض نباتها كما أخبرنا بذلك الصادق المصدوق صلوات الله عليه، حيث قال: «وإن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد، يصيب الناس فيها جوعٌ شديد، يأمر الله السماء السنة الأولى أن تحبس ثلثَ مطرها، ويأمر الأرض تحبس ثلث نباتها، ثم يأمر السماء في السنة الثانية فتحبس ثلثي مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله، فلا تقطر قطرة، ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء، فلا يبقى ذات ظلف إلا هلك ما شاء الله، قيل: فما يُعِشُّ الناس في ذلك الزمان؟ قال: التهليل، والتكبير، والتحميد، ويجزئ ذلك عليهم مجزأة الطعام» [صحيح: رواه ابن ماجة، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (7875)].

- ولكن يا صاحبي، انبرى له أكل الموز الثاني، بنيّة أن يُصَحِّحَ ويعدّل الكلام:

- ولكن، هذا لم يحدث في السنوات الثلاث الأخيرة كما تعلم. جاءت فيها الصّابة، وعَمَّ الخيرُ بلادَ العاصمة شمالاً وجنوباً، وامتلات المطامير زرعاً، وتناكح الخلق وتناسلوا كالأرانب.. هذا الحديث على رأسي، لكن ما جاء فيه لم يحدث بعد، وهكذا فالرجل ليس هو الدجال، هه!

لم يبدُ على صاحب الأول أنه مستعدّ ليستسلم، قرّر أن يقارع الحُجة بالحُجة، فأخرج من جعبته حديثاً آخرَ سمعه من عمه فقيه الدميّاطي، هذه المرة لن تُحاججني وتُلاججني، لأن ما ستسمع

حدث أو هو في الطريق، هل سمعت عن فتنة الدّهيماء، من علامات ظهور الدجال:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ثم فتنة الدهيماء [العظيمة المبيرة] لا تدع أحداً من هذه الأمة إلا لطمته لكمة، فإذا قيل: انقضت، تمادت وزادت يصبح الرجل فيها مؤمناً، ويمسي كافراً، حتى يصير الناس إلى فسطاطين، فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، فإذا كان ذاكم فانتظروا الدجال، من يومه، أو من غده»؛

- هه، عليك الآن أن تختار، هه!

- لا أحاججك ولا أعاند يا صاحبي، أخاف إن فعلتُ أن تُكفّرني، وقد كثرَ المكفّرون، وأنا أطمع في ترقية قرية لأغادر هذا الجُحر الذي رموني فيه، وما فعالي إلا لطرْد المَلل، أو افقك، شريطة أن تفعل به وحدك ما تشاء،، اللهم أن تكون عندك حجة دامغة، صاعقة، هه.

- عندي الكلام البتّار، فإن لم يقنعك أنا مسلّمٌ أمري، ونترك الظنين إلى حال سبيله في الحال، ماذا تقول، هه؟ اسمع يا صاحبي:

عن أم شريك، أنها سمعت النبي (ﷺ) يقول: «ليفرنّ الناسُ من الدجال في الجبال»، قالت أم شريك: يا رسول الله فأين العرب يومئذ؟ قال: «هم قليل» [صحيح، رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (4096)].

- صدقت يا صاحبي، بل العرب أقل من القليل، وإذن فسَلَام هو...

ولكن، وأنا أخرج تدريجياً من نومي أو حلمي، أحسستُ به طال، أطلقت صرخةً أعلى من الصوت سمعت الجدران تشققَتْ لها، ومثلَ كؤوس تتكسر، هي بأيديهم وهم يشربون منها دهاقاً ويقهقهون بتقطع: قه، قه، قه، قه، قه، قه، وعطشٌ من نار يحرق جوفي صرخت بسببه أطلب ماء! ماء! والهواء يخفّ في الغرفة، وينحبس فيكاد تنفّسي ينقطع، أصرخ: إني أموت! أموت! موت! تعود القهقهة مصحوبة بكلمات تقلدني: إنه يموت! يموت! موت! ومن بينهم انبرى أخيراً واحدٌ فيه كثيرٌ من ملامح الشخص الذي صورته على الجدار في برواز مذهب، وتبدّل كسوته بحسب الفصول ويبقى وجهه صارماً مثل قناع ثبت إلى الأبد؛ انبرى من وسط أصوات الظلام وواجهني مباشرة، وأخرج من جيب سترته بطاقة بيضاء وقرأ منها ما سمعته كقاضٍ يُصدّر حكمه على شخص لا يعلم ما هي تهمته:

أما بعد، إنه بحسب القرائن التي بين أيدينا، وبعد معاينة قائد القوة العمومية وشهادة شهود عيان على رأسهم المدعوة هنية، فإن خطأ ما جعلنا نخلط بين الشخص الذي ظننا أننا نبحث عنه، أي سلّام العشاب، وعُثر منذ شهور على جثته في مزبلة بدرب البلدية مع المحرّضين، وأحرقت في عين المكان، وبين شخص آخر انتحل هذا الاسم، وتسلّل إلى بلدتنا، بعد أن لاحق قافلة الشاحنات، وهو يبيّئ أسوأ النيات، وتمّ إلقاء القبض عليه ليلة أمس عند سفح الجبل بخطط للهجوم على قبة للآونة، هي أيضاً يلاحقها من سنوات، فحقّ عليه القول، لنحرقه للأبد، ناراً!

نارا! رأسي وسط الحطب مشتعل بإيقاع أحبدوس، أخرج من
لحمي، روحي تصرخ نارا!

- 26 -

اقتلع هنية من نومها طرق ملحاح على باب غرفتها هزت
ضلفته هزاً. اليوم هو الاثنين، والساعة على حائط غرفة نومها
السابعة، ميعاد فتح المقهى بالضبط، لكنه ليس وقتها. النادل علوط
وحده من يصل إلى المقهى باكراً. ينظف البلاط. يغسل ما فضل
من أواني البارحة، ثم ينتقل إلى ترتيب الكراسي والطاولات،
وبعدها إعداد مواعين الإفطار، لزبائن يتوافدون، قلة من ساكنة
الحي، والغالبية من العابرين والوافدين على البلدة إنا يوم السوق،
أو لقضاء أغراض. منهم من يمضون الساعات جالسين لا يفعلون
شيئاً، ينظرون في الفراغ، في لا شيء، أذهب وأجيء أمامهم،
وبينهم، فأجدهم كما تركتهم، أو لأنه ليس لديهم أي شيء.

- للاً هنية، يا للاً. . . كاد علوط يرتمي عليها وهو يلهث -
هو هنا، راه جابوه، ما عرفت، حي هو أو ميت!
كان ظاهر الصدق في قوله، وفي حال تعجبه. حين وصل قبل
ربع ساعة إلى مدخل المقهى، وضوء النهار تجلى في صباح
خريف، وجد في نهاية الباحة وعند الباب الزجاجي المشبك
بقضبان الحديد كومة خيش؛ كومة من حجم متوسط. كان
سينخطاها، لولا أنه سمع أنيناً خافتاً، متقطعاً، لم يتبن مصدره في
البداية. أنين أم أنفاس متسارعة تختنق. الهر الكبير هناك مسترخ

يتدفقاً بخيوط الشمس الأولى، ويستريح لا شك من مطاردة فئران موقع يعرف مسالكه وحدوده جيداً. لا يموء إلا إذا تضرّ جوعاً، وهذا لا يحدث أبداً، إنه هرّ للآهنية. يقترب علوط من كومة الخيش بحذر، بعد أن تفلّ في شونه علامة أنه يستعيز من إبليس، يطرده إن كان داخل الخيش. تلمّس بكبير حيلة الشيء المكوّم، فتحسّسه صلباً في موضع، ورخوياً في آخر، وواصلت يده تتلمّس الكيس من زوايا مختلفة. سمع صرخة ألم حين دسّ أصبعه في الداخل، تولّى إثرها هارباً، ثم ما لبث أن اصطنع الهدوء، فقد خرق أصبعه عينَ إنسان. أصبعه لزجة، تحت يده الكتلة تتملّمل، من أو ما فيها يُهمهم كالمختنق أو من فمه مختوم، الخطر هنا، خمن، يفتح الكيس أم يغفل عنه. وماذا لو أنه سحرّ رماه حاسدٌ على المقهى، بالأحرى صاحبته. قبل أيام عثر جارهم صاحب الطاحونة على رأس كلب مَخيط الفم وُضِع له خصيصاً لتهجيريه من الحي، وليستولي منافسٌ على طاحونته.

تمزقت الكومة وحدها، فاخرقتها يدان. اندفع منها رأسٌ، رأسٌ لوجه يعرفه. هو ذاتاً، لا غيره. إنه جليّس الطاولة المنعزلة في أقصى باحة المقهى عينه. من ينفرد بنفسه، منزوياً لا يبدو مستعداً لأن يقترب من طاولته أحد، عزوف عن كلّ مخلوق.. علوط لا يزيد معه كلمة بعد صباح الخير، عندما يضع على طاولته طلبه المعتاد: براد شاي. تردّد قبل أن يُعيد وهو ينظر مرة مضاعفة إلى الخيش ليتأكد أنه لا يُخطئ، لا يخرج فيها صورة الرجل من رأسه، كما يحدث له غداة سهرة يكون قد دخن فيها ذاك العشب الذي يرفعه إلى السماء السابعة، كما حدث له ليلة أمس، ويحتاج معه إلى وقت

طويل لينزل من فوق السحاب والغيوم تغطي رأسه والبلدة معه، كان يحسبها ستمطر صباح اليوم، إذ الفصل ممطر، عدا ندى يبلل ذؤابات الشجيرات فوق الجبل، ما زال الغيث بعيد المنال. لا شكّ عندي الآن، هو جليسٌ لمُعَلِّمة، لم يبق إلا أن أُعَلِّمها بهذه النازلة. هرول صاعداً إلى غرفة نومها، وها هي على إثره تسترها فوقية نومها فقط، ورأساً معاً وقفاً أمام الرجل تحوّل جسداً ممدداً، لولا أن عينيه نصف المغمضتين ترمشان لعدّاه جثة هامدة. تعاونوا على حمله، هي في المقدمة نحو غرفتها. لونه أبيض بلا دم، وعلى وجهه آثار كدمات، وحول قدميه بقية حبلٍ مقطوع. انهمرت عليه أسئلتهما كالسيل، كمّن يكلم شخصاً بوعيه وكامل قواه:

- من أين جئت يا رجل؟

- من فعل بك هذه المصيبة؟

- ولماذا تُورط نفسك في.. هذا البلاء؟

صوتها يصله متأخراً، صدىً، ومختلطاً ما زال، مع تهديد أصوات عبرت إليه من قبل في سُدف الظلام، وصورٌ متموجة لأشباح تسحبه من دهليز ما، إلى الزقاق الذي يقود نحو دكانه، يتعرّف عليه من عمود ترفرف فوقه رايةٌ لونها بَهَت، يتوسّطها رسمٌ لحرف نون. بينما انطفأت أضواء الجبل، وانقطع إيقاع الموسيقى، وتوقف كلّ صوتٍ وجسّ آتٍ من علياء. هما رجلاه يراهما تُقيّدان، وأيديّ تحشره حشراً داخل كيس من خيش، ومع الدفع يسمع عظامه تتفكّك، تنسل منه. - ولكن، مهلاً، ما هذه الرائحة الزّفر منك، كان يفوح بالكحول، كنت سكران إذاً؟!

تخترق الرائحة خياشيم هنية، فتنفّر منها إلى الوراء متقرّرة من رائحة كحول نفاذة.

ببطء وفي تباعد متمايل عن ما جرى، تعود إليه الصورة متأرجحةً، مترججةً في ما يشبه لعبة أيدٍ تتقاذفه، أصحابها يعشون بأطراف جسمه، مرةً يدغدغونه، تارةً يجسّون، يقرصون مواضع حساسة من لحمه، قد جرّده من كلّ ثوب، خفيف على كلّ حال، إلّا ما يستر عورته. أخيراً، يذكر، هما يدان أمسكتا بوجهه ويدّ ثالثة مُدّت إلى فمه تفتحه غنوةً على وسعه، ورابعةً تمسك بقنينة بها سائل أبيض، حسيبه ماءً، فإذا وقد عبر بحلقه، جرى على لسانه، تذوّقه مُرّ الطعم، تحرّك رأساً في جوف معدته، واستنفر أحشاءه، بعده قاء وتلّطّخ بما ظلّ يسيل لزجاً على صدره العاري. قدماء أيضاً كانتا عاريتين وموحلتين.

- كنت في الجبل، إذأ؟! ما شأنك وهذا الجبل - انتبهت هنية إلى القدمين-؛ هكذا إذأ رموك حافياً. منذ وصلت إلى بلدتنا، واخترت الجلوس في خلوتك، وعيّنك على الجهة الشرقية حيث الجبل لم تفارقها ولا فهمنا لِمَ بصرك منجذب إلى تلك الجهة، وأيّ سحر دُبّر لك يا مسكين، وكم بخّرت مكانك في غيابك فما نفع، ففهمت أن السّحر مرصود هناك حيث تنظر، ولا حيلة لي في الوصول إليه، أو أصير جماداً كما حذّرني فقيه استشرته في الأمر. مثلك كنت فضولية ثم فهمت من الفقيه الروداني، ومن جبراني، أيضاً، أن هناك بالتجربة أماكن لا يجوز الاقتراب منها، الجبل أحدها، لا بله حتى النظر إليها، فهو خاص وحصر على يوم الزيارة، وما أدراك ما يوم الزيارة!

- واش كتسمعني أو عامل موة حمار؟!

يسمع ولا. مع صوت آخر ظنه تسلّل إلى أذنيه ليلة أمس

يَحْمِلُهُ إِيقَاعُ نَقَرَاتِ الْبَنْدِيرِ، وَرَجْعُ التَّصْفِيقِ الْمَصَاحِبِ. صَوْتُ
نَسْوِيٍّ وَإِنْ أَجَشَّ، تَخَالَطُهُ بَحَّةٌ، يَنْسَحِبُ خَافَتًا، فَمَا يَبْقَى مِنْهُ أَقْرَبُ
إِلَى الصَّدْيِ، أَلِفُّهُ، أَوْ كَانَ لِي أَلِفًا، وَأَنْكُرُهُ، لَا أَتَعَرَّفُ عَلَيْهِ فِي
آنَ، يَعُودُ؛ أَسْمَعُهُ يَنْطِقُ بِكَلِمَاتٍ، كَهَاتِهِ:

- «مَرَّةً أُخْرَى أَلَا تَتُوبُ، افْتَرَقْنَا مِنْذُ سَنِينَ، وَمَا زِلْتُ
تَتْبَعُنِي، أَلَا تَتُوبُ؟! أَنْتَ لَا تَعْرِفُ مَنْ أَنَا هُنَا وَلَا أُرِيدُ أَنْ
أُؤْذِيكَ. أُرَاعِي أَنَّكَ سَبِطُ النَّبِيِّ، فَارْحَلْ رَبِّي يَهْدِيكَ».

ثُمَّ سَمِعْتُنِي كَأَنِّي أَخَاطِبُهَا بِمِثْلِ مَنْ يَتَوَعَّدُهَا:

- تَسْتَطِيعِينَ خَدَاعَهُمْ كُلَّهُمْ، إِلَّا أَنَا، مَنْ أَيْنَ أَتَيْتَ بِهَذَا
الْإِسْمِ، نُونَةً، وَفَوْقَ هَذَا لَلْأَنُونَةِ، لَا يَوْجَدُ إِلَّا مَكَانَيْنِ بِهَذَا
الْإِسْمِ فِي الدُّنْيَا، وَاحِدٌ لِأَصْحَابِهِ الْيَمِينِيِّينَ، وَالثَّانِي هُوَ الْوَادِنُونَ،
تَسَمَّى بِهِ بَلَدَةُ كَلْمِيمٍ بَابِ الصَّحْرَاءِ فِي بِلَادِ الْمَوْغَرِيبِ، وَإِلَيْهِ
يُنْسَبُ الشَّيْخُ إِدْرِيسُ نَقُورِيُّ الْوَادِنُونِ، الْفَقِيهَ فِي عِلْمِ الْأَسْمَاءِ
وَالْأَنْسَابِ، يَوْجَدُ مَزَارُهُ عِنْدَ مَدْخَلِهَا، وَيُتَبَرِّكُ بِوَرَعِهِ لَسِيرَتِهِ الْعَطْرَةَ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. سَتَزْعَمِينَ كَعَادَتِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ مِلْكٌ أَوْ
كَانَتْ لِأَحَدِ أَجْدَادِكَ كَمَا هُوَ كُلُّ تَرَابِ الْمَوْغَرِيبِ، تَسْتَدْلِينَ بِخَرِيطَةِ
الشَّرِيفِ الْإِدْرِيسِيِّ، وَأَنَّهُ وَهَبَهَا لِلْمُقَاوِمَةِ وَجَيْشِ التَّحْرِيرِ فِدَاءً
لِلْوَطَنِ، فَاتَكِ أَنْ تَضِيفِي هَذَاهَا أَيْضًا لِطَارِقِ بْنِ زِيَادٍ(!)، مَرَّةً
تَنْتَسِبِينَ لِمَوْلَايَ إِدْرِيسِ الْأَوَّلِ فِي زَرْهُونِ، وَأُخْرَى لِإِدْرِيسِ الثَّانِي
بِفَاسٍ، فَتَدْعِينَ أَنَّكَ فَاسِيَةٌ مِنْ قَاعِ لِقَوَائِعِ، تَعْطِينَ الْبَرْهَانَ بِيَاضِ
الْبَشَرَةِ، بَيْنَمَا نِسَاءٌ يَجْعَدْنَ شُقَرُثَهُنَّ كَالْعَاجِ، وَيَا لِقَدْهِنَّ الْمَغْنَجِ؛
تَخَافِينَ أَنَّ أَشْكَكَ فِي أَصْلِكَ، وَخَبَرْتَ مَعْدَنَكَ وَفَصْلَكَ، جِئْتَ إِلَى
هَذِهِ الْبَلَدِ الْوَادِعَةِ بَعْدَ أَنْ حَاصَرْتَكَ حِكَايَاتِي، وَتَحْتَالِينَ عَلَى قَوْمِهَا
بِمَا لَا بَدَّ أَنَا كَاشِفُهُ، الْيَوْمَ أَوْ غَدًا.

- واش كتسمعني، أو غادي تبقى تهترف وحدك إلى يوم
القيامة؟!

من صوته ينبجس صوت ليدفع عنه تهمة الهرف، ينبّه هنية
لخطلي ما تقول، ويعلمها بما لم تعلم، فلا ينطلي عليها قول مَن
تدّعي نسباً بوادي نون، لا تعلم عنه شيئاً، فأليك الخبر:

«أول ما يجدر معرفته، ممّا وثّقه المؤرخون والباحثون
الشقات أنّ اسم نون يمكن ربطه بمكان محدّد هو نوفوس
(Novios) دالة على نول، ذكرها بطليموس بين مصطلحات أماكن
أخرى. وفي حديث لسترابون عن بعض الأنهار ذكر نهر نولوص
(Nulos) إشارة لنهر النيل مع إفادته بأنّ النيل ينبع من إحدى جبال
موريتانيا السفلى (أي المغرب الأقصى) قرب بحيرة تسمى
نيليس، في هذا إشارة لعلاقة بين النيل ونول. ويُستقى من عديد
مصادر أنّ «نول» و«نون» قد يتطابق لفظهما، وكان لهما ارتباط
وثيق بالماء والثروة المائية في الحضارات القديمة. وفي قاموس
ابن منظور وردت «نول» بمعنى الوادي السائل. زِدْ هناك مَن يربط
اسم نول باسم «لمطة» القبيلة، بالأمازيغية تُلَفُّظُ: «إلمبضن» نول
وإلمبضن، إذن، كلمة مركبة من اسمين هما نول ولمطة، وذهب
ياقوت الحموي أنها مدينة في جنوب المغرب وهي حاضرة
لمطة. وزاد المراكشي قائلاً إنّ تكاوست ونول تعتبران عاصمتين
للجزوليين واللمطيين، وليس لأيّ أجنبي الحق في الاستقرار
فيهما».

ثم وهو ينبّه هنية بدّت شبه غافلة عن ما يسرد عليها من
معلومات وأخبار، فأني آتيك الآن بالخبر اليقين، ربما منه اشتقت
صاحبة الجبل سرّها وصنعت كذبتها، فأني سمعت في مدرسة بن

يوسف في مراكش من عالم متبحر في التاريخ على صلة بالفرنسيين، ما نقله يقول عن كتاب قرأه لسيدة فرنسية ذات علم مثله وأكثر؛ لعل اسمها في ما أذكر هو Odette du Puigauveau تقول:

«نظام القرابة من الأم هي عادة اجتماعية كوشية في منطقة درعة. وحسب بعض الوثائق اليهودية التي نشرها كانيفوسي يُشير إلى أن منصب الملك التي كانت تتقلّده النساء في الأساطير المحلية ما زالت تحتفظ بذكريات الملكة يكو (Yagwwa) والملكة «غجيجة» و«نونة»، وهي نصرانية في قلب البحر أيّ جزر الكناري، والتي تركت اسمها على أنقاض مدينة أكادير نونة، قرب تلوين، وكذلك في تيزي تناروميت على السفح الأيسر لوادي أساكا وقد أطلق اسم النصرانية على إقليم نون كله»؛

أما آخر ما يمكن أن أفيدك به، وهذه المرة اعتماداً على روايات شفوية لا كتابية كما سبق، فإنّ المنطقة التي تنسب إليها نونة، وتدّعي ساكنة الجبل أنها مهدها ومن محتدها، فإنها كانت «عبارة عن بحيرة واسعة، سميت «وادي نون» كان يقطنها يهود، بهذا ذكر أن أصل التسمية عبري، أي «إله السمك»، وهو ما يتعارض من الناحية الجيولوجية والمناخية مع ما نعرفه اليوم وقريباً عن هذه المنطقة الصحراوية، أو يتناقض معها، التي ذكر أكثر من مؤرخ أنها كانت مجالاً خصباً لرعي الإبل في الصحراء، بلغ حداً أن نُسجت حولها أسطورة سمتها بـ«وادي النوق»، وهذا ما عُرفت به كلميم سوقاً كبيرة للإبل، باعتبارها عاصمة وادي نون». [معلومات من الباحث المحجوب الكماز]

عند هذا الاسم توقفت في الرواية، لأسمع من جديد صوت هنية يقطع كلام من اعتبرتها أو تخيلتها الحاجة نونة؛ لا أعلم إذا هنية زادت لها لقب الحاجة، أو هو من وضع العامة، جريباً على عادة أهل الموغريب في تسمية كلِّ مَنْ بلغ الكهولة أو أكثر، وإن كنتُ لا أتفق معهم ولا أظنُّ صاحبتَه، بلغني ممَّن اقتربوا منها، طبعاً من وراء حجاب، أنها تقول للشمس إمّا تضوي أو أضوي أنا، فلا يتفق هذا، وما حاجتها بلقب للوقار تراها في جبلها الوقار بعينه، وهذا عين الصواب أو ستساوي مع هؤلاء، أقصد مَنْ هم هناك في سفح تلك البلدة وبين تلك المساكن العشاء - ما علينا من هذا.

المهم، هنية بعد أن سقتني عصيرَ برتقال، وكمّدت وجهي بمنديل ساخن، جلست عند حافة سريرِي تنوح كأنها زوجتي أو أمي تبكي على حالي وستشيّعني بعد قليل، وهي في نوبة نوح العذادات، بينما هي في ظني تنوح على حالها وتنعى مصيرها، هق هق فيما ترميني باتهامات لا أفهمها، فأنا ابن خالتها مَنْ هجرها ورمّاها، هق هق، وأنا مَنْ تخلّى عن حضنها، هق هق هق، بل وتركها بلا نفقة، إيببي، وبلا والي ولا تالي، أوييلي إيببي، أنت اللي ساكن قلبي صباح وعشية، وشاغل بالي، في صبحي، ونهاري، هق هق أوييلي طول ليالي. وما هي إلّا تنقلب من حزن وغم، إلى كائن مارد، زُرعت فيه أرواحُ الأبالسة والشياطين، قد اشتدَّ عودُها، وقداها تضربان الأرض، تهتزّ تحتها برقصها أو دكّها على موسيقى تدور في رأسها، لأغنية تُعزف على لسانها، الله

يعلم هل من تأليفها، أم من محفوظ غناء مشرقني لا نعلم كيف
وصل من أقاصيه وفيافيه إلى ربوعنا، تهزج به هزجاً أو هي تشدو
كما تشاء:

«اللي ماله أول... شي أكيد ماله تالي»
حبيبي تمسكن لي مامني... وسكن خيالي
ويوم قلبي آمن صدّ عني وهون... ولا همّه حالي
اللي ماله أول... شي أكيد ماله تالي»

وصل علوط بعد غيبة قصيرة يتفقد شغل المقهى، سمع الطابق
العلوي فوق يهتز فهرع قلقاً يستجلي. قلقْتُ أكثر منه، لكن خور
جسمي منعني من الوقوف لتهدتها أراها تنخرط في جذبتها أكثر:

«يا ليته يعزّني مثل ما أنا أعزّه.. ويسهر ليالي
حياتي حزينه وحالي الله يعينه.. على ما جرا لي
اللي ماله أول... شي ماله أكيد تالي»

صارت تمشي في خطّ واحد وتعود إلى مبتداه. انقلبت من
الخط وطفقت ترسم بخطوتها الراقصة دائرة وفي الدائرة تدخل،
ورأسها، شعرها انسكب عليها وهو غزير، حتى غطى وجهها، فما
عدتُ أرى إلا غابة سوداء، عيناى تثقلان تكاد أجفاني من وهني
عليهما تنغلقان وأنا أخوض، هل تائهاً أم هارباً، في الغابة،
تطاردني السّباع والتمور، والقردة تتقاذز بين أعلى الأغصان، بعضها
يرميني بحبات الصنوبر، ومنها ما يصيبي بقرفه يكوّره عمداً ليقدفني
به، وهي تتضحك وبأيديها المشعّرة تشير إليّ مقهقهةً، ساخرة، لِمَ
صرت أضحوكة بين هذا المسخ، وشعرها ما انفكّ ينسدل، صرت

أراه ماءً يتدفق غزيراً، سكوباً، شيئاً فشيئاً يهدأ يتسلل إلى سمعي
خريراً، ثم صاحباً، لجباً، كسفين شعرها يمحّر عاباً...
فتعالت من حولي الأصوات: نداءً بالأسماء من هنا، آخر
على البضائع من هناك، وأنا جالسٌ في مراح وسيع، لا، أنا في
ساحة فسيحة لا يضاهيها اتساعاً وجلبةً غير ساحة جامع لفنا،
والأصوات أعرفها، قلةٌ منها طارئ، أما المعلمون الحكواتيون،
فهم لم يتبدلوا، بنسعيد أمين لحلايقية، الخبزاي، حسن السّاط،
وعبد الرحيم المّكوري، حلقتة الأكبر والأبهر، أسمعه عن بُعد
بسم الله والصلاة والسلام على خير الأنام، يفتح الحلقة:

«بسم الله نبدا كلامي، بأحسن الأقوال، ونكون مسافر
وسايح وجوّال، على مدينة البهجة الباهية، مراکش الصافية
الزاهية، ساحتها العامرة، لوحة فنان من خيال الخيال، راسمها
سبحان من جمع المجمع فيها، لحلاقي كيف الشفنج في قلب
الشفنّاج، لحلاقي وأصحاب العصير حايطين بها كيف الباقوتة في
التاج، المهم مجمع ما مثله مجمع اللي ما جا لجامع لفنا ما
شاف حاجة في الدنيا، وهاد القصيدة بقلم عبد الرحيم الأزلية».

ترك بينه وبين عمرميخي مساحة أمتار متّفق عليها لحسن
الجوار ونبذ التنافس، ومثله عبد الحكيم الخبزاي، يصلني تقليده
المغنّج لأغنية «كلي جولي» بالفرنساوية، يتمثل لي كما هو بقشابتة
البيضاء النظيفة ذات الكمين القصيرين، وطاقيته المراكشية بيضاء
كذلك، مطرّزة، مزاحة كثيراً عن الجبهة فتكشف أول الصلع، إنما
الطف ما في الخبزاي أصابعه يراقص بها مثل حركات نعيمة
عاكف أو تحية كاريوكا نغمات أغنيته المفضلة تنشرح لها أسارير
وجهه كاملة بابتسامة بشوش ما تلبث أن تصعد إلى عينيه المخفيتين

دائماً بنظارتين سوداوين، سيقول كلٌّ مَنْ يشهد حلقة إنهما تتحكَّمان في الأصابع على إثرها يتلوى الجمهور من الضحك. لا تسَل عن مولاي أحمد حَمَقَة، أسمعهُ يرسل لازمته للافتتاح:

«أهيا خينا، قَرَب لعندنا، تلقى الخير والهنا، تسمع وتسافر وتحلم وتطلع لسبع سماوات طباقاً وترجع لجامع لفنا»

ثم يسترسل حين يجمع حوله العشرة الأوائل:

«اللي ما شاف يجي يشوف، واللي قال لعصيدة باردة يدير يدو فيها، ألخوا، المحبة دوا والعشرة صعبية، واللي ما حضا راسو هزو الما وطار فالهوا...»

حين يطمئن إلى اكتمال حلقة يطلق لسانه على هوى السامعين، ولا يبالي:

«هذا زمان ما تعرف ساسو من راسو، اللي القا الريح فالهبال آش يدير بالعقل... غدا تولِّي حتى إنت وزير الثقافة وعلاش لا وزير الأسالة والمعاسلة، وحتى الأوقاف إلى بيتي [بغيتي]!».

أمام هذه القامات التي تسيطر على المكان، يقصدها الموغربيون قاصيهم ودانيهم، ساءلتنى نفسي أين يمكن أن تضع قدمك، وبِمَ ستبهر مرتادي الساحة هم بالقصص متخمون، ورؤايتهم من جهابذة الحكواتيين، ما أنت إلّا فقيه بضاعته قرآن كريم وحديث نبوي شريف، وبعض أذكار، والتسبيح بحمد الله الواحد القهار، وهؤلاء قوم يبعثون التسلية والتفلية وعجيب الأخبار، لن ينفعني معهم سيفر ألف ليلة وليلة وسيدنا علي والغول، محفوظة هنا جارية على السنة الكبار والصغار، لم يترك لك مَنْ سبقك إلى هذا المكان

حظاً من حكايات الأولين وغرائب السالفين، بينما ما يجري في الحاضر لا يبعث على الدهشة، وقائع وحوادث مبتذلة، وأيام باردة أخبارها متداولة، رجالها مُذَلَّون، حتى وهم كبار يُهانون، جلهم يباعون ويُشرون، وكما لا همّة لهم، فلا طعم ولا رائحة لنسائهم، رغم أنّ مقالات السياسة أصبحت بأيديهم، ومقاعد الرئاسة تتبدل بين عشية وضحاها بحسب هوى مضاجعهم، وصرن يتصرفن في الرعية والبرية على قدر ما ملكت أيمانهن، فالرجال يا حسرة اليوم مملوكون، فماذا بقي لي لأحكي عن الناس، اللهم الغارقون في البؤس، المنبوذون، لا يعلمون أين يولون وجوههم مع تصارييف الأيام، وها عددٌ منهم يقترب مني، يبدأ يتسّج، يحيط بي أخيراً كالسوار؛ عجباً أراهم أقبلوا من الحلقات الأخرى، انفصلوا عنها تباعاً، وكلّ ما يُحكى فيها يُغري، والعجب على ألسنة الرواة يسري كالماء في النهر يجري، نعم كثير منه أدري، وعند الراوي دائماً خاتمة الحكاية حلّ عقدة السرّ، فماذا جرى يا ترى لينفضّ مجلسهم صاروا من امتلاء إلى هجر، ويَمّ سأشفي غليلهم وجلّ ما أحبه وأسره في النفس لأحكيه كيف سبيلي به إلى الجهر؟

قلت لكم إننا كنا في عصر يوم صيف. هو عصر يوم قانظ، والأجساد مثل النفوس فيه عطاش. نظرت إلى وجوه وشفاه من التحقوا بمجلسي، وفي غفلة مني تكوّنت بهم حلقتي، فرأيتها متورّمة، متشقّقة، أنفاسها زيادة على صهد العصر تصل إليّ ساخنة، العروق في أعناقهم نافرة، والسواعد مع الأيدي أبقاها حلم الحكي مشدودة عوض أن يرخيها، أي ورطة يَمّ يمكن أن أنفعها أنا الفقيه البوهالي أو بَمّ أسببها، ولَمّا زدت أحرق في الوجوه، وتلفحني

الأنفاس حارة كاللهب علمت أن ما يريد الخلق حولي شيئاً آخر ما
ألفوه وملّوا سماعه من عبر تُستخلص من سير وقصص من عبر
عجزوا عن فهم حاجاتهم ويبغون ما يلبي الوطر.

كان الوقت بعد صلاة العصر من يوم الجمعة في شهر صيف
حارّ لعام لم أعد أذكره، وربما هو عام هجم فيه حرس على الحاكم
العام في قصره المنيف ليستولوا على رياسته فتغلب عليهم بمعجزة
ما زال سرّها خلف الأستار، لا يعلمها غير الواحد القهار، وبعض
الحجاب ممّن شهدوا الحاكم العام يقصّ في موضع قفر بسيفه البتار
رقاب كبار جنوده الأشرار،

نادى المنادي بعدها بـ «نصب الخبئات والإكثار من
الحفلات بإعذار أطفال جميع الحارات وتزويج البالغات وحتى
ما دونهنّ من عزبات ولا بأس من اتخاذ العوانس والأرامل
عروسات وتُنصب الموائد في الحواضر والقرى بالمشات فوق كلّ
مائدة خروف وسبعة طيور وفواكه الموسم من تفاح وبنان وبوعويد
وصبار ولتجر المشارب مجرى الأنهار وكله يتم على إيقاع تغريد
الأطيار وغناء ورقص جميع الفرق الفولكلورية وأفضل فرق
الشيخات ونخصّ بالذكر حلابية جامع لفنا عليهم أن يعقدوها
كلها ويطربوا الناس بأجمل الحكايات لا بد نكون في قلبها،
وسيرتنا وعملنا بطولتها وقولوا لهم قالكم الحاكم العام الله
يرضي عليكم أنتم وتركتكم وامشوا في الأرض بأخبارنا وأمجادنا
بأحسن الروايات...».

فلم يبق لي خيار لا بد لي من تلبية النداء العاصمي السامي

لحاكمنا المنصور بالله، وبما أنّ القوم أمامي مساكين عطاش وقلوبهم لهفى وأجسادهم متشنجة فكّرت لا ينفع إلّا حكاية تسري عنهم وتفسح لهم في الخيال وينبغي أن تتفتّق الآن من البال دفعاً للوبال وجلباً لحسن المآل وبيننا أنا في هذا الحال حائر بين القلق وحرقة السؤال ظهرت هنية والوقت يعتم صرنا في العشية في دائرة الحلقة نظّلت كالجنية وبرخاوة فتحت ذراعيها كبرُغم مدّتهما إليّ يا روعي يا قلبي يا ضوّ عيني أنت كلك هنا الدنيا دايرة بيا آجي يا حبيبي خذني لك أنا هي هنية عاشقاك وأنت اعشقني وحاجتك مقضية أظنّ كنت أسمعها من عمق بعيد بينما تترأى لي قريبة جداً، بل إني أمسكت بيدها ولمست خدها فسّر النّظار لمرآنا هكذا اقتربت رؤوسهم ينتظرون ماذا سيحدث بعد وأنفاسهم الساخنة لاهثة وأصابعهم تتلوى فعل الثعابين بين أيدي مُرقصيتها في جامع لفنا من أفواههم بدأت تصدر أصوات كالضحك تدعوها هيّا هيّا وتلح شطحي لنا شطحي شطحي يا زينة السمية تلح وتعيد آجي سيري وآجي يا لّلا هنية والماء يقطر من جباههم من وجوههم من مسامهم وهي في وسط الحلقة تتهادى بينهم وتمعن بحركات ماجنة في إغوائهم وأنا أنظر مثلهم لا أحرار صنيعاً رقي يتحلّب مثلهم حتى خفت أن أصل إلى حدّ..

وها، ها، ها هي ذي استوت مرة ثانية في هيئة مختلفة عن السابقة ترتدي قفطاناً أصفر تكسوه دفيئة خضراء بخطوط طولية سوداء وتبدّلت وهي سمراء البشرة إلى صهباء تورّد خداها وتصفّد جبينها عرقاً ومثل حصان على أهبة الانطلاق في سباق حرّكت رأسها وجمحت فانحلت أجمة شعرها فإذا هو سالف طويل اشراّبت رؤوس النّظار الحلقة خفت أن يمسكوا به ويجرّوها إليهم من شدة ما

تنفث أفواههم من شُبِق وجاءت هي بالخلّ رأت الموقف أصبح
جِدّاً ستضيّعني وفي الوقت ستفسد الحكاية ويخرج رواد الحلقة من
الحلم إلى الواقع وما هي غرائزهم تبين عن ذلك إن لم تبادر
ستحوّل أعضاؤهم جميعها إلى عضو واحد هو عندهم المفيد
وأكثرهم يَفِد إلى الساحة ليتزوّد له بأسباب القوة والمنّة وفي الحين
سُمِع مولاي بِيَه العشاب يقول إنه متخصص في مرض القلوب
والأبدان معاً أوّل علاجها عنده نصحُ الخلق بدفع الكرب والهم
والغم وترديد ما يذهبها بالأحاديث والأدعية، أولها عنده ما جاء
في سنن أبي داود، عن أبي بكر الصديق، أن الرسول صلى الله
عليه وسلم قال: «دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا
تكلني إلى نفسي طُرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا
أنت» ويتبعها ليشدّ إليه الأسماع وأنا أتمنى أن يزيد كي ينصرف
عني هؤلاء الأوغاد؛ قال، قال محمد بن زكريا: مَنْ ترك الجماع
مدة طويلة ضعفت أعصابه، وانسَدّت مجاريها، قال ورأيت جماعة
تركوه لنوع من التقشف فبردت أبدانهم وعُسّرت حركاتهم ووقعت
عليهم كآبة بلا سبب. ولما التفتوا قال أحسن أشكال الجماع أن
يعلو الرجل المرأة مستفرشاً لها بعد الملاعبة والقبلة، وبهذا سميت
المرأة فراشاً ولكي يتمّ لكم هذا فانجذبوا إليها كلّاً وجزءاً بالبصل
والثوم وحبّة البركة والحلبة والزنجبيل وجوز الطيب بذر الكتان ولا
تنسوا الخسّ وشرب لبن النوق الممزوج بعسل النحل وأكل رأسين
من الكرفس يومياً وكذلك المداومة على أكل صفار البيض على
الريق وكثير كثير غير هذا إنما يكفي لهذا اليوم وفي هذه العلبه مدّ
يدَه بحقّ مختصرٍ من كلّ ما ذكرنا ثمنه قليل وفائدته جليّة تأخذه
وتعود سيّضيء كلّ لياليك ما أسعدك سعد السعود وفي دقيقة كانت

بضاعته قد نفقت تهافتوا عليها تدافعاً وخطفاً، حدثت بهم يتهيؤون
للانقضاض على هنية التي وقد نظرت إليّ ونظرتُ إليها بعين الجد
أخرجها من هلوستها وأنبهها للخطر المحدق.

انتهزنا فرصة تدافعهم فأمسكتُ بيدها أحطتها بإزار وانسللنا من
فجوة سُقت في الحلقة ساعدنا على الهرب اكتظاظُ الساحة وقرعةُ
نواقيس السقائين وضربُ طبول فرقة كناوية تلهيهم، والأصوات
ضاجّة ناشرة لباعة أنواع رديئة من أطعمة بكلّ الأسماء ولا طعام،
يتجمع عليها الآدميون والحشرات في آن، على قذارتها تُثير في
النفس الشهية، فتأسفت لولا أني برفقتها كنت مضغت معقودةً ونقائقَ
خاصة تدغدغ الأنف برائحتها يُذيعها دخانٌ يعلو كالحرّيق ويهيج
معدتي لا أعلم متى لم أذق الطعام. وكأنّ هنية أحسّت بجوعي
فمشت وهي تتقدمني تفتح في الزحام طريقاً وحدّها تعلم أين يقود لم
يُفتها أن تُطمئنني اصبر هي سُمط موائد حافلة بالأطعمة والأشربة
تنتظرك، ومثلها حدائق غناء، غمرت إلى جسدها ظهر لي فارهاً
سترقل فيها كما تشاء، وانسلت تأخذ شمال الساحة نحو حي بن
صالح ثم السبتيين أتبعها أعمى وهي تقودني. عطشنا فشربنا من
سبّالة وانحرفنا إلى حي أسول. هنا أسرعنا الخطو كأننا نهرب ممن
يطاردنا إلى أن بلغنا زاوية سيديقالم واقتربنا من الأسوار. بعدها بان
لنا نخيل عين إطي أغلبه استأصل حرّقه المضاربون العقاريون ليلاً
لتنفيذ مشاريع جشعهم. ولما أشرّت لهنية إلى شارع فارغ بين
شارعين مكتظين بالعربات المارة كي نبتعد عن العيون والزحام،
جفلت، وعودلت، واستنكرت: أويلي هذا راه شاره الجن وحدهم،
علاش هو خاوي؟! وشّم. فشمّمت ريحة الجاوي المكاوي أو تهيأ

لي امتلأت خياشيمي برائحة غامضة على إثرها انتشر الظلام أو هو لون أسود فاحم سرح فيه بصري وخيرٌ لماء شلالٍ يتدفق من علو هائل وأنا تحته . هل أنا مَنْ كنت في العلو الشاهق على شفا هاوية وتحتي سالف، سالف طويلة لامرأة أعرفها، هذه هنية كيف وصلت إلى شلالات أزود بعد أن هربت منك في باب تاغزوت تسللت من تحت قفطانك لما حضنتني في رياض العروس وقصدت قبور الشو ومن هناك خبّائي مسافر في أمتعته وأخذني معه إلى تنسيفت ثم زدته مالا فوصل بي إلى بني ملال، قلت الحمد لله أني عدت وحدي كما كنت وفلّكتُ من إثم الغواية . ولكنك واهمٌ، فأنت مَنْ تبغني تقتفي أثري، تشدّ على حرير سالفي؛ أنا لونجة يا سلام، كيف تفلت من سطوة زيني الهبّال؟! ألم يخبرك أحد قبلي أنّ شلالات أزود ما هي إلّا سوالفي ضحيت بها ذات عمر لما انقطع المطر أعواماً في هذه الأرض وقحط الزرع وجفت الضرع، وأنا، وإن كانت أُمي حريزية، في الأصل أبقى ملالية لا تنسى أصلها . نمت وتحسّرت على ما رأيت فحلمت، حين صحوت فاضّ الماء ونبت الزرع وفاح الورد وعُمرت الأسواق، وامتلاً الليلُ بيوح وقبلات العشاق، هكذا تراني كم ضحيت، فاترك الغابة، وافعل من أجل حبّنا ما تستوجبه منك حرارة الأشواق يا . . .

تسألني ماذا نفعل وكيف نفلت من جمهور الحلقة بعطشة الحارق ورغباته الجائعة؟ هه، فاتني أن أخبرك أنهم تعقبوا أثري بعد أن أفنوا في طريقهم كلّ امرأة تُشبهني وليست أنا، اعتبروها نسخة، حيلة مني، كي أردّهم على أعقابهم خاسرين وما ارتدّوا، وصلوا أخيراً إلى هذه البقعة لم تكن كما تراها الآن بعينيك،

تَبَرَّجْتُ لَهُمْ مُسْتَعْرِضَةً مُفَاتِنِي، انْظُرْ - شرعت تنضو عنها القفطان الأخضر - فسال لعابهم، وَفَحَّتْ أَنْفَاسُهُمْ، وَأَصَابَتْهُمْ رَعْدَةٌ أَوْ ضَرْبَتُهُمْ جَائِحَةٌ، وَلَمَّا ظَهَرَ لِي تَحَوُّلُهُمْ مِنْ آدَمِيِّينَ إِلَى مَسُوخٍ غَيْرِ مُشْهُودَةٍ، أَحْسَسْتُ بِالْخَطَرِ أَحَدَقَ بِي، قَدْ خَرَجْتَ عِيُونُهُمْ مِنْ مُحَاجَرِهَا وَانْفَصَلَتْ عَنْ وَجُوهِهُمْ فَوَقَعَتْ أَرْضاً كِرَاتٍ صَغِيرَةٍ طَفَقَتْ تَكْبِرُ وَتَكْبِرُ، وَكُلَّ كُرَةٍ تَنْبِتُ لَهَا أَعْضَاءً لِتَصْبِحَ فِي هَيْئَةٍ تَلِيهَا الْكُرَةُ الثَّانِيَةُ، فَالْعَاشِرَةُ، تَجَمَّعَتْ حَوْلِي كَأَنَّاتٌ غَرِيبَةٌ، هَائِجَةٌ، مَائِجَةٌ، تَصَحَّبُ، تَخْفِقُ، تَشْبِقُ، تُبْقِبِقُ، وَجَلُودُهَا دَبِيقَةٌ، لَزْجَةٌ، سَائِلَةٌ، بَيْنَمَا كُلُّ أَصْبَعٍ فِي يَدٍ هُوَ يَدٌ تَمْتَدُّ نَحْوِي لِتَنْضُو عَنِّي، لَا ثِيَابِي، تَهْلَهَلَتْ فِي طَرِيقِ هَرُوبِي، وَإِنَّمَا جِلْدِي، انْظُرْ هَذِهِ الْخَدُوشَ عَلَى لَحْمِي، اقْتَرِبْ لَا تَخَفْ، فَهَذَا اللَّحْمُ الْبَضُّ كُلُّهُ لَكَ، وَلَمَّا لَمْ يَبْقَ بَيْنَنَا سِوَى بَضْعَةٍ أَشْبَارٍ أَوْ أَقْلٍ، لَا أَدْرِي كَيْفَ انشَقَّتِ الْأَرْضُ لِتَصْنَعَ هَذِهِ الْهَآوِيَةَ الْعَمِيقَةَ خَلْفِي سَقَطُوا فِي جَوْفِهَا وَبَقُوا وَقْتًا لَا أَذْكَرُهُ يَقْتَاتُونَ بِالْبَرَاغِيثِ وَالْجَرَايِبِ وَالْعَقَارِبِ، وَلَمَّا عَطَشُوا وَكَادُوا يَهْلِكُونَ اسْتَغَاثُوا وَتَشَفَّعُوا بِجَاهِ النَّبِيِّ وَالصَّالِحِينَ وَانْتَحَبُوا وَبَكَوْا حَتَّى جَفَّتْ جَسُومُهُمْ، وَنَظَرْتُ فَإِذَا هُمْ خِيُوطٌ، بِقَايَا دِيدَانٍ أَكْثَرَ مِنْهُمْ هِيَ أَكْلُ عَظْمِيَّةٍ لِأَجْسَادٍ نَاحِلَةٍ، حِينَهَا لَا أَخْفِيكَ انْفَطَرَ قَلْبِي حَزَنًا، وَاسْتَغْرَبْتُ لِمَاذَا فَعَلْتُ بِهِمْ هَذِهِ الشَّنَاعَةَ، أَنَا الَّتِي كَمْ دَاخَلَهَا الزَّهْوُ بِخُسْنِهَا، تَتَبَاهَى بِغَوَايِئِهَا لِكُلِّ وَسِيمٍ وَرَجُلٍ فَحُولٍ، فَمَدَّدَتْ لَهُمْ سِوَالْفِي لِتَتَّخِذُوهَا مِرَاقِي، تَعَلَّقُوا بِهَا يَصْعَدُونَ وَيَجْهَدُونَ، وَبِمَا أَنَّ شَعْرِي نَاعِمٌ يَفْلَتُ مِنْهُمْ فَيَنْزَلِقُونَ، يَكْرُرُونَ وَيَفْشَلُونَ وَيَسْقُطُونَ إِلَى الْقَاعِ مِنْ حَيْثُ صَعَدُوا كَادُوا يَهْلِكُونَ جَمِيعًا، لَوْلَا سِوَالْفِي صَارَتْ مَاءً غَدَقًا، هَايَ، هَايَ، سُبْحَانَ اللَّهِ، شَلَالَاتٌ دَافِقَةٌ، فَنَهَلُوا أَطْفَافَ غُلَّتِهِمْ، ظَلُّوا يَشْرِبُونَ وَيَزِيدُونَ مِنَ الشَّرَابِ،

استعذبوا الماء فنسوا أن يصعدوا، وكلّ مَنْ يشرب من هذا الماء إلّا
ويزيد، كما يتضاعف طعامه ويكثر خيره، وتزوّد هذه الأرض بما
يفيض عن حاجته، فكيف لو ذقت مائي، لا أعذب، زلال، سائغ،
سلس، سلسيل، فرات، قراح!

لما أردت أن أنزلها إلى الأرض من علياء أحلامها، أو
أوهامها، لأقول لها لست في حاجة إلى كلّ هذا الخيال كي
تجمعيني بك تحت سقف واحد، فأنا أعلم منك بمصيري أين
سيقودني، أمّا شلالات أوزود، فلست في حاجة كي تنسجي عنها
أسطورتك، هي ماؤها حباؤه الله هذا التراب وأهلّه، وفاء عليهم
بالظلّ الوارف، زادهم في الرزق، فتوبي إلى الرشيد خير؛ أردت،
لولا سبقتني إلى الكلام بتوزيع الأنغام، وصوت هو لها واجتمعت
فيه أعذب وأشجى الأصوات، يصعد من جوف تحت، وبين اندفاق
الشلالات، وفوق أعلى التلال، وينساب بين منحدرات أوزود،
الصاعدون والنازلون بالمكان يديرون رؤوسهم يتساءلون ترى من
أين ينبع هذا الغناء وأين يصبّ، لمن ولمّ تشدو به، وله تشكو
عطشها المغنية بهيجة لإدريس:

«الما يجري قدامي . . قدامي . . قدامي،

صافي مثل البلّار،

بالله عليك يا الهارب،

ما ترجع حتى تجاوب،

قلبي في حبك ذائب،

فيه عجائب وفيه مصايب بالله عليك

مكوية بالنار . . وعطشانة»

أتلّفت مثل رواد منتزه أوزود، مع فارق أنني أحسّ بي المعنيّ
بينما هم لم يعتادوا سوى على اصطخّاب تدفق ماء الشلال، لا
على هذا الصوت الجارح، المذبوح، يئن ويبوح:
«نموت وهو حدايا، نموت،

عمره ما عرف دوايا،

مكوية بالنار

وعطشانة!»

في ديجور الغابة عثرتُ بحجر فوقعت على رأسي الذي لم يُعد
رأسي، لما سقطت في مهوى عميق ظللتُ أسقط فيه وهو لا ينتهي
وأريد أن أصرخ وصرaxي في جوفي دفين لا يخرج إلى أن رأيت
الصبح يكاد ينبج ويدّ بلون الحليب تمتد إليّ ينادي لسانها لا تخف
أعمري نعال إلى حضني أنت من هجرني وعرض نفسه للخطر كلّ
هذا بسبب جلوسك في خلوتك تنظر إلى الجبل فسحرتك تلك
القرطيفة وها أنا جئت لأنقذك مالك عني بديل:

«واللي ماله أول . . شي أكيد ما له تالي

ماله تالي . . ما هتالي . . ما له تالي»

وهي لا تفهم كيف أترك دفثها وما تعرضه عليّ من عيشة
رضية، وهل مثلها أحدٌ يرعاني كما تفعل، أتركها وأنجذب لسحر
تلك الشمطاء المدعاة نونة، التي في الجبل، تأكل الرجال ولا
تشبع، ويُقال والله أعلم أنها خُشى، ويلى، لم يبقَ لي إلا أن أشك
أنك تخلط النساء بالرجال؛ هكذا يا سلام تنسى عشرة أولاد حريز،
الزين والركزة واللوز! أظنّ أن لسانها وعقلها فلتا معاً أكثر، صارت
تنوح تُعدّد من أجل خويا مصطفى، لو استمع إليها لما حدث
المكروه، وها هو اختفى وأنا أبكيه، طُفت البلاد لأحظّ هنا، رأت

الشوافة أنني سألاقيه هنا، إمّا هو أو رائحته، أو ترائبه، كيف ترائبه؟ نعم يا بنتي أنت محظوظة إذا وجدت ترائبه، وإلا مئات سرطهم الحوت في البحر، قالت لي اقصدي الأطلس، بعد خنيفرة، تنزلين أخيراً في بلدة نونة، قلت لها أول مرة أسمع بها -هي قديمة وجديدة- تقصدين الحاجة نونة، الوصول إليها صعب، مدة أسابيع أو شهور أحياناً، أنصحك بالصبر، مثل غيرك ستجدينهم في طابور طويل يجتمع كلّ أسبوع، انضمّي إليهم، لتكوني نيتك صالحة أولها هات هذه الدمالج، سلّتها بيدها من معصمي وقرأت عليّ تعويذات، ودعت لي بالسلامة، وأن أخرج قبل الشروق وأدخل بعد الغروب، لا أحد يجب أن يعلم بسري، كلّ مَنْ سألَكَ عن مرادك تظاهري بأنك مجذوبة وإنّما جئت تطلبين البركة من سيدة أهل هذا المكان، هه، هه، صارت تمرّق ثيابها، هه، هه، كلّ هذا الشقاء وتأتي أنت لتفسد عليّ سعيي، مثلك لا أحبها، ها أنذي هنا من عام ولا أستطيع الوصول إليها، وكلّ ثلاثاء أدخل في الطابور، أنا مثلك لي حساب معها - حساب؟ أنت تخرفين يا هنية، أفقتُ من شبه غيوبتي، أنا لا أعرف عمّن تتحدثين.

- 28 -

في هذه الأثناء كان المعلم لمباركي يحقّر عماله لتنفيذ المهمة التي قادته إلى هذه البلدة، ما عناه اسمُها في شيء، لغيره أن يسميها، المهم عنده هو ما تكلف به، وبقرار سام من الحاكمية العاصمة، بإنجازه فيها، ولا دخل له في أهدافها. اللهم أنه أخطأ كثيراً قليلاً في تقدير صعوبتها، يتأكد الآن بعد الوصول أنّ بدايتها

لم تكن هينة، كذلك عملية النقل من وإلى التي استسهلها مُحاور وموفد العاصمة. ليست الطريق من مراكش وصولاً إلى هذه البلدة المزروعة بين الجبال المشكلَ الوحيد، إنما هذا الطريق -لا يسميه شارعاً، فكل هذه البلدات فيها طريق طويل تمرّ منه السيارات والشاحنات والحيوانات، ويسمّى فيها شارعاً- الممتد في الوسط الذي هو شريان الحياة ولا ينقطع فيه السير، وهنا بالضبط يجب أن تنفذ المهمة، هذا ما أفتى به مهندسٌ جيولوجي التحق في اللحظة الأخيرة بالقافلة على متن سيارة خاصة، نقلته من جهة لم يعلن عنها، بعد دراسته للمكان، وأخذ عينات من التراب، وحفر في مواقع محدّدة، وقام بقياسات، لا مناص من الحفر في اتجاه الشارع طويلاً، وحده يُفضي مباشرة إلى المدخل الطبيعي للجبل، ليمتد الحفر في مغارة، هناك سيبدأ الورش، وينبغي أن ينتهي، وعكسه سيؤدي إلى انجراف التربة ويتعذّر تنفيذ المهمة، هذا إن لم تنقلب إلى فضيحة.

لم تكن هذه المشكلة الوحيدة التي تواجه المعلم لمباركي، فإنّ متطوعاً فضولياً، ككل مصائب البلدات الهامشية، نصّب نفسه ينوب عنه، وذهب يذيع بين السكان أنّ صاحب المشروع الواصل إلى بلدتهم سينكبّ على أعمال حفر للبحث عن كنز مطمور هنا يعود إلى عهد النبي سيدنا سليمان، من ضمنها عقود وقلادات زينت جيد ملكة سبأ، جلبها معهم اليمانيون التّونيون الذين وصلوا إلى هذه الناحية منذ ما لا يذكر أحد، وبقيت لهم خرائب في الجهة الخلفية شرق الجبل، ويتطلب استخراج الكنز من بين أمور أخرى اصطحاب عشرة أطفال وفتيان زوهرين يوضعون رهن إشارة المعلم، وسيكافأ أبائهم بحسب قيمة الكنز، لهذا فكلّ من له ابن

يقطع راحة يديه خطّ متّصل بشكل عرضي، أو لسانه خط مفلوق على شكل طوليّ كأنه مقسوم إلى قسمين، ويختلف شكل عينية ببريق خاص، ويتميّز بتمزّق خفي في منتهى الجفن، فلينقله عاجلاً إلى مقرّ القيادة الإدارية لعرضه على لجنة الاختيار، وأن يوقّع في عين المكان والزمان على وثيقة تُخلي من المسؤولية اللجنة في حال تطلّب تقديم الولد ذبيحة (فدية) للجنّ يشرب دمه ويسمح بخروج الكنز، وسينال مكافأة كبيرة.

صاروا بالميّات تجمعوا صفّاً ممتداً أمام القيادة، ما همّهم إذا مات الأولاد، فلوسهم على الأقل ستنتفع بعدهم، خير من أن يتكدّسوا في البيوت عاطلين، كانوا من قبل يرسلونهم إلى القشلات للعمل جنوداً فيجلبون آخر كلّ شهر حوالات، واليوم لا حاجة بهم، الأحسن أن يشرب دمهم الجن بمقابل ولن يصل، لن يفعل، كيف وكلّ زوهري هو أخو الجن تمّ استبداله لحظة ولادته بواحد من أبناء البشر، لذلك لا يخاف الزوهري من زبانية الجن الذين يحرسون الكنز، ومن لا يملكون العلامات المطلوبة حضروا بدورهم واصطفّوا يطمعون في هذا العمل يعلنون لولا أنهم طردوا هم وآباؤهم الجنّ من هذا التراب ما أمكنكم أن تستوطنوه، وانظروا إلى وجوهنا كيف هي مثلومة، وأجسادنا، صاروا يتعرّون يكشفون عن جراح غائرة، ومواضع بها أثر عظم عميق، ولحم ناقص، وجاء شخص طويل القامة، أعرج، أبرص، ذراعُه اليمنى مبتورة، احتج أنه أولى بالمعروف، هو زيادة على هذا يعرف كتابة الحروز وله خبرة في رسم المخطوط والجداول المخصّصة للتعايزم والرقيّ ولمن شاء فهو عارف بجلب الحبيب، ألزمهم أن يُخلوا له موضعاً أو يرميهم بالسحر الأسود.

وسوس بعد ذلك من وسوس في أذنهم، لا ينقص إلا هذا،
أن الحاكم العام، بجلالة قدره، سيحلّ هنا، من لم يسبق أن رآه
أحد، في البر ولا في البحر، ولا تخيله في المنام، ولا سبق له أن
غادر محكوميته الكبرى، قد رقى إلى سامي علمه بؤس أحوالهم،
وتردّي أوضاعهم، ومن ليّته أرقّ أرقاً شديداً، وصار الشّهاد له
رفيقاً، وزاد همّاً أن ضاعت شهيتُهُ للطعام، وفستت معدّته تعاف
أيّ طعام، دعك من أنه لم يعد يقرب أيّ واحدة سواء حلال
ومحظية، أو ما ملكت يمين، ونعكّر مزاجه أيّما تعكير، وانعكس
ذلك على تسيير شؤون الحكم وكلّ ما يخصّ العاصمة من حزم
حكم وقوة تدبير، لذلك أمر أخيراً بأن يجمع حوله الفقهاء وأهل
الفتاوى من كلّ دين وطائفة والسّحرة وخدام الجن، فانفقوا جميعهم
أن شفاء العاجل هو في أن يتخلّى ولو لمدة شهر عن غطرسته،
رغم أنها من أصول الحكم، وسوط لزجر الدهماء، إنما لا بد
تُسايسهم لرفع البلاء، أما بلغك، هي اليوم «أرض جذباء، أسهم
حمراء، ودجاج مصاب، ونفوق إبل جهماء، ومعيشة في غلاء،
كله بلاء من رب الأرض والسّماء...» فتح فاه المغلق أبداً وزأر
كما يفعل إن تكلم كالأسد، هل من دواء؟ أجابوا بصوت واحد يا
وارث سِرّ البرية، فارس السهل، القاهر في الجبل والبيداء، منبع
الضياء، أن نشمّر عن السواعد ونرفع الأيدي نبدأ الاستغفار، ولا
بأس أن ترسل إليهم في خربهم ومزابلهم وعشوائياتهم ما يسدّون به
نصف الرّمق فقط، حتى لا يتناولوا عليك وعلينا، فإنّ الشّبع يورث
الطمع، سننقل من اللحظة أمرك، فأعدوا بطاقات التعريف
واصطفوا للحصول على مأذونيات لسيارات أجرة، صغيرة وكبيرة،
ونقلات من العاصمة إلى تمازيرت، بعد هذا، توافد على لمباركي

كبار أهل البلدة ومن ضواحيها يطلبون وساطته ليزكيهم للحصول على تأشيرة الحج يخافون أن تأتي ساعتهم قبل أن يطلع سهمهم، ذهبوا إلى قائد حامية الجندرمة وهذدوه إننا مهتمون ومحقرون، تأخذون الرشوة وتتوسطون للتأشيرات، وسنخبر صاحب البلاد بأفعالكم، فما كان من رئيس الحامية إلا أن أرسل لهم القوة أخيراً ونزلوا فيهم ضرباً وسلخاً.

إلا عمال الحفر، لن يستطيع التجاوز مع هؤلاء، أيام تنفيذ المشروع محدودة، وهو يخاف أن تفوح الرائحة، هم لا يعلمون ماذا بدأوا ينقلون على أكتافهم، فيهم من توقف عن الحفر والنقل، كان شرط تشغيلهم، هم والسواق خاصة، أن لا يسألوا عن ما يحملون ومكافأتهم مُجزية، الحفر صعب، هذا ليس تراباً ولا حجراً ما نضرب هنا، احتجوا واستنكروا، إن الفؤوس تغوص، طبعاً تغوص يجيبهم الوسيط، لا، إنها تنغرز في ما يشبه اللحم، تخرج رؤوسها عالقة بها بعض الرمم، كأننا نحفر في مقبرة موتاهها دُفِنوا من وقت قريب جداً، هل جُنتم، هذا طريق عام، وإذن، تعال احفر بنفسك وسترى، شاغلهم الوسيط بزيادة الأجر وببُهتان أن بعض العائلات لا تجد شبراً لموتاهها في المقبرة البلدية وترفض نقلهم إلى أخرى نائية وتأتي هنا ليلاً فتدفنهم وهذا هو السر في ما تجدون.

الموتى؟ عن أي موتى تتحدث يا سي لمباركي؟ هكذا نبّهه قائد الحامية العسكرية الذي ظهر للمرة الأولى في المشهد، نحن لا نسميهم هكذا إذا كنت تقصد أولئك العصاة الذين نقلت في شاحناتك، أين هي أولاً، وأسرعاً يتفقدانها، وجداً واحدة فارغة ما

أصاب القائد بحالة عصبية فصرخ أين هي، أين هي؟ ناوره المعلم، لا تقلق، أرسلناها إلى مدخل الجبل، الثانية ها هي ذي، مشمعة بالبلاستيك، حولها عاملان ينتظران، أخبرهما أنّ عملهما سيبدأ ليلاً، عندما ستصرف هذه الجموع، سأله العامل القريب ماذا نفعل بالجثث في النفق، تقصد الهياكل العظمية، استدرك القائد، الله أعلم، أنا خدام والسلام، وأنتم أصحاب الكلمة - أي كلمة؟ - العارضة - آس من عارضة؟ إلى المعلم لمباركي: أوقفنا عارضة كبيرة في الطريق، تحت، سدت علينا الخدمة، ونزل حفرة وتبعه المسؤولان، سارا في ممر أسطواناني علقت بأطرافه قطع قماش التصقت بها أصابع وآذان، ومن سقف الممر تتدلى خيوط شعر، سودّ وبيض، بعضها مسنون كأسلاك، وكلّما تقدّموا سدّوا أنوفهم اتقاء عطانة وبنانة جيفة، أرجلهم تتخبّط في وحل، ووحل عجين، كلما سحبوا يعلّت أقدامهم ثقلت تحتهم كأنما بقوة اليد تمسك بالرّسغ لتجرّهم تحت، قال العامل إنّ زملاء له سقطوا هكذا مرات، وتركناهم خلفنا، سأل القائد هل هذا معقول، واصطدم رأسه بالعارضة، ها هي أسيدي؟ فعلاً، صدّتهم قطعة قصدير كبيرة تحول دون ما يوجد أمام الأنبوب، إلا نتوء صغير تمرّق فيه الفئران والصراصير متسابقة، لتعود متسللة بين الأقدام، كان قائد الحامية ينير ما حوله بمصباح وقع على خربشات وكلمات، اقترب منها فإذا كُتب:

«هنا لائحة عُصاة أعدموا صباح 1 نوفمبر من سنة 1973، صبيحة عبد الأضحى، أعطي الأمر بإطلاق الرصاص عليهم على الساعة السادسة صباحاً و38 دقيقة، وهم المتابعون في قضية «مولاي بوعزة» أو ما يُعرف بملف «عمر دهكون ومن معه»،

وجاءت لائحة أسماء: عمر دهكون، يونس مصطفى، آيت يزيد
لحسن، حديدو موح، أمحزون موحى ولحاج، بيهي عبد الله
الملقب فريكس، دحمان سعيد نايت غريس، عبد الله بن محمد
آيت لحسن، بارو مبارك، بوشعكوك محمد، حسن الإدريسي،
موحا نايت بري، تفجيسيت لحسن، أجداني مصطفى، محمد
بلحسين، الملعب هوشي منه؟

فما كان من القائد إلا أن أخرج مسدسه وطق طق، يطلق النار
على الأسماء، وهو يهتف: عاش الحاكم العام! وصفق المعلم
لمباركي، بينما بلعت العامل لُجة وحل ودم.

الفصل السادس

.. ورآه سَلام عن بعد. وحده في الصبيحة يأتي مقبلاً من أقصى الطريق العام، يدير ساقيه بتراخٍ، ظهره متقوس ويداه تقبضان على مقود دراجته الهوائية. وحده يمشي في طريق مفتوحة، خالية، وهو في وضع مَن في نزهة، لا شيء ينتظره، يتمثل له مزهواً، رخيّ البال، كأنما الدراجة تقوده لا هو يمسك بزمامها، فيغبطه على متعة هاربة منه الآن، مذ ترك الساحة مجمع ومرتع الحكايا، وقرّر أن يخوض في طريق أطول وأبعد، ليجتمع له ما لم يحصّله راوٍ من قبله، وماذا لو صار مرجعهم، وإليه ينتهي سَند الحكاية، ولْيُمَضِّ في تفاؤله، في بحثه اللجوج، ليلبغ إلى ما لا يعلم، إلى مجهول يحسّ أنه كلما اقترب منه غاص في ظلامه يتكاثف أين منه صحو هذا الصباح في شارع طويل، شارع يستحلي ما يسبح فيه من صمت، ما أَلطفه بعد يوم وليل من الزحام والضجيج، ما كان غارقاً فيه حسب ما شاهد بنفسه، أو بما لن تكفّ هنية تنكره زاعمة أنها تهیؤات ليس إلّا، تلمّ بك، عليك أن تكشطها من دماغك، وتنفّر لما جئت من أجله هنا، ثم لا بدّ ستعيد عليه السؤال الذي لم تتوقف عن طرحه، وما فتى هو بدوره يتجاهله: هل تعلم حقيقة ما الذي جاء بك إلى هذه البلدة، أم هو نصيبي جئت تُكمله، لتؤكد؟ ولم يكن له بُدّ من مسيرتها،

بما يضمن له البقاء في أمان واطمئنان، من نواح عديدة، لبعض الوقت، رغم أنه وجد مبالغاً وشططاً في ما ترويه.

عندما أصبح راكب الدراجة على أمتار فقط من باحة المقهى، تحول يدور في دائرة صنعها في الفراغ المتاح ودخل فيها يلعب، انقلبَ طفلاً يلعب، وإن أحببتَ فهو شاردُ اللب، يبدو وحده يهمهم بالكلام، ثم ينزل عن سرج الدراجة ويستأنف الركوب، وأخيراً، إذ اكتشف وجود سلام يجلس في الزاوية القصية من باحة المقهى، فيتوقف وينظر إليه باهتمام، وهنا استقام طويل القامة، نحيفاً، بارزاً عظم الصدغين، يرتدي كسوة زرقاء هندام ساعي البريد، تشهره إشارة على عروة سترته، هي والبيري الخاص بالسعاة. كلّ ساع يعرف جيداً سكان منطقته، حيّه، وأحياء أبعد قليلاً، أحياناً، يعرف القاطنين واحداً، واحداً، وفي هذه البلدة بالذات، تعداد سكانها محدود، ومراسلاتهم، هي كذلك من القلة، بحيث تُعرف ما إن تصل إلى أصحابها، وهؤلاء مرموقون، ويُخشى جانبهم، هم في عُرف باقي الساكنة يتلقون رسائل من خارج هذه الزاوية المحشورة بين الجبال، شبه المقطوعة عن الدنيا، لولا أنها أصبحت بين عشية وضحاها على كلّ لسان بعد حوادث مولاي بوعزة في شهر مارس سنة 1973. لا يعنيه من البريد أو يشغل باله سوى تلك الرسائل التي تصل من عاصمة الإيالة العظمى، يكفي أن يُقال فلانٌ جاءه بريد من هناك لتفتح الأفواه وتنتفخ الأشداق أو تتهامس، معها يفتح قمقم الشائعات، تنطلق معها خبيرات وأكاذيب وافتراءات، سرعان ما تجتاح أركان البلدة كريح صرصر، يجتمع حول جمرها أو رمادها حسب أهميتها كبار القوم وأذئابهم والصغار، يتفرقون بين دكاكين الحلاقين وحمامات النسوة، ويوم السوق الأسبوعي يوم

مشهود، يحملها أهل المضر في أقفافهم وشواري دوابهم قد حزموها داخل صُرَر مُحَكَّمَة في صدورهم حتى إذا عادوا إلى قرون جبالهم وقفار بواديهم تنادوا على أهلهم وفقه الجامع وعرافتهم بالحضور وبعد بسملة وعوذلة واستغفار فتحوها بأيدي ترجف، وقلوب ترعش خوف أن يقفز منها ما يضرهم، فهم بحُكم عشرة تحكّم العاصمة فيهم وسيف الحواضر على رقابهم، لا يأمنون شرها، أقصى يدارون.

يعلم ساعي البريد أنّ أخطر جهة يهتمها موضوع الرسائل القابعون في مكاتب القيادة الإدارية وراء ستائر، لا يستقبلون أحداً ويروّج عنهم أنهم في اجتماع دائم، حتى قيل إنّ زوجاتهم يزرنهم عند الضرورة وللضرورة أحكام سالكات أنفاقاً حفرت بين منازلهم ومبنى القيادة، والله أعلم دائماً، فيما الأخطر من هؤلاء وما يدعون، الشخص الذي لا يتسمّى، ولا يُكْتَبَى، الأفضل أن لا تقع في مرمى بصره، أو يرد اسم عبدي على سمعه، ويلّ له يومئذٍ بحق جاء أو بالباطل، سيان؛ المكلف فوق الجميع هنا بتوزيع وغرلة الأخبار صحيحها من زائفها وأغلبها زائف كما هو مطلوب ثم إعادة توزيعها على الجهات وتكليف من يجمع تعليقاتهم عليها لتكون الحاكمة على بيّنة تامة بأحوال محكوميتها لتسوسهم أحسن ما يرام.

هذا ما أسمع، يهجس ساعي البريد، ويحاول أن يقتنع به، والله أعلم، وتسري فيه نشوة زهو وخيلاء، إذ هو الساعي البسيط، من يتقاضى بضع آلاف ريبالات فقط، محطّ اهتمام الغادي والرائح، يريدون فرادى وجماعة أن يتسقطوا من فيه أيّ قيل ويسلّوا من لسانه أيّ قال، ليكونوا على علم بما يجري أو سيجري، في البلدة، تحرّكت شهيتهم منذ تلك الحوادث الشنيعة، والبعيدة الآن، ولم

تفهر. كل حادث هنا، هناك، سيأتي لا بد في النهاية أن يمرّ على يده، هو السَّبَّاقُ قبلهم للعلم به، حتى إنه أصبح ذا حاسة شمّ يخمّن بها المهمّ والخطير من الرسائل من العادي، التافه والهمل. يمسك الظرف ويقبله ظهراً لبطن، يتحسّسه، يزنه فوق راحة يده، ويفحص جيداً ورقه ولونه، ثم يرفعه إلى أنفه ليشمّ رائحته بتوجس، من مُجمل هذا الفحص، يقدّر أنه من هذه الجهة أو تلك، من مراكش أو المعصومية، فإن خمّن أنه من هذه الأخيرة ارتبك، قلق، جفّ ريقه، أسرع إلى الحمام... ودار في رأسه ألف حساب، أوله سؤاله عن مصدر الخط المكتوب، كم يسعفه الخط بأيّ عون؛ هذا خطّ فقيه، وهذا مدير، وذا لمسؤول في الأمن خطير، يحترز كثيراً مع هذا النوع من الرسائل الإدارية، لا يعتبرها أوراقاً، بل يعاملها بكلّ احترام، يضع قفازاً على يده وهو يدسّها في حقيبته الجلدية المهترئة، يحرص أن لا تختلط بما يبعث العموم، من يسميهم أكحل الراس، يشمّ منها رائحة الزرائب والأسواق، لا، بل يحدث له أن يرمي هذه أو يتجاهلها مدّة إلى أن يلتقي صدفةً مَنْ يسأله إن كان قد توصل ببرقيّة له أرسلها ابن عمه من قلعة السراغنة أو بني ملال، وربما وضع داخلها شي تفرقية يا سيد الفاكور، ستنال منها نصيبك، إذذاك فقط يتذكر بعد طول وقت.

كان سلام خالي الذهن من هذه الأخبار والهواجس، أمّا وقد رأى ساعي البريد، وخزته النظرة، فكأنما استفاق من غيبوبة وانقلب إلى صحوٍ لم يعرفه من أمد. ضرب جبهته براحة يده: «آي، كيف لم تجنني هذه على البال؟! وهل يوجد خير من الفاكور منجّماً ومنجّماً للأخبار وموزّعاً للحكايات، يا ويلي هنية السبب، هي اللي شغلت بالي وطيرت راسي؟!».

عادت به ذاكرته رأساً إلى حيّ البلدية بالدار البيضاء، في ليلة ظلماء انقطع فيها التيار الكهربائي، بينما ضجّت بصراخ جيرانه. كان نائماً لما أيقظته امرأة تولول من جهة ما. أطلّ من النافذة ولم يتبين في العتمة غير أشباح تجرّ شبحاً وتقذف به في جوف سيارة أمن فورغونيت، انطلقت مباشرة كالسهم. في اليوم التالي ظهر الخيط الأبيض من الأسود. علم أنّ جارهم الأستاذ محفوظ هو الضحية، والسبب ساعي البريد، وشى به عند الأمن الخاص، أين يوجد هذا الأمن؟ وحده الساعي يعرفه، زعم أنه يتلقى رسائل وحتى برقيات من الخارج، أنا يا سيدي برجليّ هذين أحملها له، أمّد له الرسالة وهو أنفه في السماء، لا يتفضل ولو بدرهم، عنده أنه أكبر من الأرض التي نمشي عليها لأنّ رسائله تأتي من الخارج، وينفخ شدقيه وهو يقول لمن يحبّ أن يسمع: الخاارج! لمن يسمع: الخاارج! كان هذا قبيل فتنة الدار البيضاء الثانية لسنة 1981، وفي التحقيق أحضروا الساعي، شهد على أقواله زوراً، وكافؤوه.

فكّر سلام أن باستطاعته تدارك الأمر مع فاكتر هذه البلدة، سيسعى للتعارف معه، سيبدأ من خطته. لولا أنّ سبقه النادل علوط، سمعه يوجّه الكلام أو النداء، أوه، سي حمان، ما جاء بك هذا الصباح، الله يسمعنا أخبار الخير؟! لم يبدُ حمان معنياً بالنداء، اكتفى يركن دراجته على عمود كهربائي قريب، بعد أن نزع منها حقيبته المهترئة وحملها على كتفه، ليذهب في الاتجاه المعاكس للمقهى، يتبعه النادل وهو يكاد يستغيث، آسي حمان، العن الشيطان تعال أولاً تفطر، عندي لك اليوم بغير بعسل الدّغموس، لم تذّقه في حياتك، وأعدّ لك أناي بيدي، أو تجي لمعلمة براسها، لآ هنية،

تسقيك بيدها أسيدي، المهم تكون لنا بخاطرك. لم يبدُ على حمان أنه يسمع ما يُقال له كلّ هذا الرجاء، هو أطرش، أو يتعمّد الصّم، توقف وعاد يدور حول العمود الكهربائي عند دراجته، يقترب منها وينأى، تحسبه سيفكّ قيدها ويعود يركبها للذهاب عاجلاً إلى مكان وحده أعرف به، وحقييته الجلدية تترنح فوق كتفه الأيمن، بينا عيناه تريان ولا تريان.

أمّا سلّام، وقد جذبه المنظر، واستهواه ما سمع من ضيافة للساعي بكرم فائض وإغواء تكهّن بمغزاه، فإنه ترك مجلسه المنزوي وتقدّم بحذر نحو الرجلين ليستجلي، خطته في رأسه وغرضه السريع التعارف فوراً مع صاحب الحقيبة الجلدية. تقدّم نحوه يسلم بشوشاً فانتبه لعينه الجاحظتين، والفراغ الواسع داخلهما، لا تستقران على شيء، فأحجم إذ ثبت في وقفته، إن لم يتراجع قليلاً. لسلّام خبرة بقراءة الوجوه، والطالع، أيضاً، إذا ما ألحّت عليه أحد من معارفه، وحين كانت أوقات قحط تجثم على الساحة فيسترزق بأيّ شيء في انتظار الفرج. أمّا مَنْ هو قبالة فقد جزم بحدس لا يحزنه أنه موسّوس بما هو خطير، لا، ليس أهبل ولا ضحية لأعراض المخدر كما يظن علوط المغفل ويطلق لسانه بلا حساب، هو نفسه يوزّع الحشيش على رواد المقهى، أو يضعه لهم في أتاى، وربما هنية ضالعة في هذه التجارة، سلّام لاحظ مرات مساطيل ومتعطلين يحومون حول المقهى، ختم أنهم من ضحاياهم بالدّين، فهل يكون ساعي البريد، ظاهر الحيرة، مُشتّت الوقفة، منهم، وما هذا الزبد عند طرفي شفّتيه، يصاحبه تشجّج، ويكوّر إحدى قبضتيه يلوّح بها عالياً في الهواء ليُبعد عنه النادل، يعترض طريقه وهو يسأله بالاحاح هل وصلت الرسالة التي ينتظر منذ زمن، من حبيبته في

أغادير وعَدَّتْهُ بالزيارة، وهو ينوي الزواج بها، لكن عينها هي فلتت
وتحبّ عيش المدينة، لا البقاء في هذه الحفرة المحشورة بين
الجبّال، قل لي يا الوليل، هل؟!

— 30 —

لو كانوا علموا بما بلغني لتبعوني، لحاصروني، وأخرجوا
بقضيبي ما بداخل رأسي، واحداً، واحدة، لما تركوني. الخبر
الذي جاء من مراکش، مرقوماً بشيفرة خاصة من مراکش، يخصني
أنا لا غيري. مدير مكتب بريدنا في نونة نفسه لا يعلم به، ولا
بمقدوره أن يفكّ الشيفرة، وقد ناوَرْتُهُ بأنها برقية وصلت إلينا
بالخطأ، وكى أقنعه مزَقَّتْها للتو أمامه. ثم وأنا أغادر، التفتُّ أجده
يلمّها نُتْقاً ويحاول قراءتها عبثاً، لم أُبقِ منها تمزيقاً سوى حريفات
يستحيل جمعها، وها هي الحروف تتطاير، تتراقص أمام بصري
الآن، بعد أن ملأت سماء ليلي أمس، شغلتنني بعد أن تراقصت،
اتَّخذت لها أسماء وأشكالاً وعناوين، منعت عني النوم، وتركتني
أثقلب في الفراش، أيقظت زوجتي شكّت أنّ امرأة غيرها تشغلني،
ولا ريب سحرت لي كي أطلقها، وأن فكري مشغول منذ أيام، الله
يعلم بماذا، ورغم إلحاحها لم تأخذ مني حقاً ولا باطلاً، هكذا أنا
معروف بالصمت والأمانة، وهذا بشهادة القايد الإداري نفسه،
الذي استدعاني عشية البارحة يشمشم كالكلب إن كان عندي
جديد، لا غيره، مسؤول المكتب أخبره بالبرقية الممزقة، نبّهني لا
تُتلف ما يصلُ إليك في المستقبل إلى أن تطلع عليه السلطة رغم أننا
نثقُ فيك، يقول ويُعيد يحاول أن يسَلّ لساني، ربما تذكرت كلمات

أو معنى ممّا ورد فيها، فاخترعتُ إنه تاجر من أغادير يُخبر زبونه بأنّ البضاعة التي بينهما ستتأخر، عليه أن لا يقلق، وستصله في نهاية الشهر إن شاء الله، وهذا كلّ ما في الأمر يا سيد القايد.

هذا النادل الحقيق لن يستغفلي. حوّل المقهى إلى وكرٍ للمخبرين، ولباعة المخدرات، وربما لشأنٍ آخر. لولا أنني أثق في لّلا هنية لفكرت في أمرٍ قبيح، خاصة أنها زينة ومسرارة، ونساء بلدتنا يُقلن عنها إنها خطافة الرجال، يتركون بيوتهم وتحلو لهم الجلسة في مقهاها، مرادهم بها هي لا مقهاها، تتحرك بينهم بغنج، تنهش قلوبهم، وتُفحّح شهواتهم ولا أحد يتذكّر متى حلّت بينهم لتُثير هذه الفتنة المشتعلة في العيون، كلّ وافد على البلدة لا بد يطرق مقهاها كأنها المغناطيس. هذا الشخص الذي لاحظت في أقصى ركن بباحة المقهى من يكون، لا بد واحدٌ من ضحاياها الجدد القادمين، من بعيد خطفت انتباهه لي، وخُطوُته الحذرة نحوي، حال بيننا النادل الحقيق، كيف ركّز يفحص هندامي، بعد ذلك محفظتي الجلدية، هذه زادي وثروتي ومنجم أسراري، واهمّ هو، جميعهم واهمون، لن تقع في يد أحد، هي ورأسي، هو وقلبي، لن أفتحه لأحد، كما أبقيتهما مسدودين منذ تلك الحوادث العصبية في عام 1973، بسببها لم أترقّ مديراً للمكتب، ورغم أن لا يد لي ولا رجل في ما جرى، إلّا أن السلطة خزينة الأذى لا تفرق في النائبات بين ظالم ومظلوم، فضحت بي، اعتبرتي مسؤولاً عن هروب عدد من المهاجمين، لا بل شكّكت في أنني خبأت منهم اثنين خطيرين.

والحكاية وما فيها أنني لمّا ذهبت إلى مركز قيادة القوات

المساعدة كالعادة لأسلم رئيس لمخازنية ظرفاً خاصاً يحمل اسمه
 يبدأ بيد، كما هو مكتوب في الظرف، فجأة اقتحم المركز رجالٌ
 ملثمون وأحاطوا بنا. استولوا على بنادق في المخزن، وكتفوا
 لمخازنية المداومين في المكتب بحبال بعد أن نزعوا سلاحهم،
 بينما أبقوني حرّاً، أشار لي أحدهم بلا كلام: سير في حالك.
 فررتُ بجلدي وكان الظلام قد نزل. بيتي بعيد، هناك في طرف من
 الجبل، نذرت إن غداً بقيتُ حياً سأنحر معزة. غداً، أمّا في الوقت
 فلذت بمكتب البريد. حجرتان، داخلية للمسؤول.. ومدخل
 كالصندوق فتحت قفله وأغلقت بابه عليّ، ما لم أفعله أبداً من
 قبل، لا نملك ما هو ذو قيمة، فإن كان بريداً ذا بال أحمله مطوياً
 ألّفه مع حزامي على بطني. تفرّفت داخل الصندوق أسمع
 الركض في الأزقة المحاذية، تلاه في الهزيع الأول من الليل
 إطلاق الرصاص، لا يراني أحد ولن يسمعني، الدكاكين كلها
 تغلق، تنزل ستائر الحديدية، ولا ابن امرأة يمشي في الخارج.
 فجأة اهتزّ باب مكتبنا، قوة تدفعه إلى الداخل، لا أعلم كيف
 أحسّ بوجودي داخل الصندوق من في الخارج، توّسّلت إليه،
 إليهم، لا تكسروا الباب، اثنان فتحت لهما الباب مستسلماً،
 يرتديان زياً عسكرياً، قالوا لا تخف، سنبقى ساعة ونمضي، أغلقا
 الباب علينا، نحتاج أن نراقب من هنا، ودلف أحدهما إلى غرفة
 المسؤول يتوقّر على هاتف معلق محمول على الجدار، واستخدمه.
 سمعتُ لهجة خليطاً من عربية وأمازيغية وحتى أعجمية، لما ختم
 مكالمته توقف عند صورة الحاكم العام المعلقة وسط الجدار،
 فنزعها بعنف، كسّر إطارها ثم أخرج الصورة وأعمل فيها تمزيقاً
 كحيوان ينهش فريسة، وأنا جامد، أخاف أن يكمل بي بعد أن

مَسَحَ بِكُمَهِ مَا بَيْنَ شَفَتَيْهِ . قطعة ثُلج جَمَدَت ، أَتَلَوُ الشَّهَادَةَ ، هِيَ سَاعَتِي حَضَرْتُ ، فَمَا مَسَّانِي بِسَوْءٍ . قَالَ أَحَدُهُمَا ، أَنْتَ مَنَّا ، مِنَ الشَّعْبِ فَاكْتَوَّرَ مَسْكِينَ ، طَبْعاً كُنْتُ أَعْرِفُ أَنِّي سَاعِي بِرِيدِ مَسْكِينَ ، لَكِنِّي لَا أَرِيدُ الْمَوْتَ الْآنَ بِالضَّبْطِ ، رَغْمَ أَنِّي مَا زِلْتُ أَعْزَبُ فَلَتَّتْ مِنِّي الْعِبَارَةُ ، عِنْدِي وَلِيدَاتُ ، وَعِنْدِي الْوَالِدَةُ ، وَ . . فَالْتَقَطَاهَا ، كُنْ رَجُلًا ، وَأَنْتَ مَعَ الرِّجَالِ ، لَنْ تَمُوتَ ، نَحْنُ جِئْنَا لِنُحَرِّرَ هَذِهِ الْأَرْضَ وَنُنْشِرَ الْعَدَالَةَ بَيْنَ النَّاسِ ، وَنَسْقُطَ هَذَا الْخِزْيَ الْفَاسِدَ ، وَكَلَامٌ كَبِيرٌ آخَرٌ وَغَلِيظٌ غَيْرُ هَذَا لَمْ أَسْمَعْهُ مِنْ قَبْلِ ، وَالْحَقُّ أَرِيدُ أَنْ أَنْسَاءَ لَكِي لَا أَتَذَكَّرُ قَلْبِي الَّذِي كَادَ يَخْرُجُ مِنْ جَوْفِي ، وَرِيقِي نَشْفُ ، وَالْبَنْدِقِيَّةُ فِي يَدِهِمْ أَصْبَغُ عَلَى الزِّنَادِ ، ثُمَّ أَغْلَقْنَا دُونِي الْبَابَ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَا فِي نَصِّ اللَّيْلِ .

بَقِيتُ مَحْبُوساً فِي الْمَكْتَبِ إِلَى الْفَجْرِ حِينَ اقْتَحَمَ أَفْرَادُ الْجَنْدَرْمَةِ الْمَكَانَ وَحَرَّرُونِي . فِي الْحَقِيقَةِ أَخَذُونِي إِلَى ثُكْنَةٍ لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ بِوُجُودِهَا عِنْدَنَا ، عَلَى كُلِّ حَالٍ تَشْبَهُ الثُّكْنَةُ لِأَنِّي رَأَيْتُ جُنُوداً فِي مَدْخَلِهَا حِينَ وَصَلْنَا ، لَمْ أَتَبَيَّنْ الطَّرِيقَ إِلَيْهَا . أَخَضَعَنِي كَبِيرُهُمْ لِاسْتَنْطَاقٍ وَضَرْبٍ وَصَفْعٍ وَرَفْسٍ ، سَالَ فِيهِ دَمِي ، وَتَكَسَّرَتْ مِنِّي ضِلْعَتَانِ ، عَذَّوْنِي مِنَ الْمُتَمَرِّدِينَ ، وَبَيْنَمَا حَضَرُ مَنْ يَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِزَاراً أَسْوَدَ وَحِبَالاً فَهَمْتُ أَنَّهُ سَيُلْقِي عَلَيَّ وَيَطْوِينِي وَلَا يَبْقَى إِلَّا أَنْ يَرْمُونِي فِي حَفْرَةٍ فِي هَذِهِ الْغَابَةِ ، شَمَمْتُ فِي الْمَدْخَلِ رَائِحَةَ الشَّجَرِ وَالتُّرَابِ ، لَمْ يَبْقَ شَكٌّ وَأَرَاهُمْ مِنْ جَفْنَيْنِ نَصْفٍ مَفْتُوحَيْنِ بَعْدَ أَنْ تَوَرَّمَتْ عَيْنَايَ مِنْ أَثَرِ اللَّكِمَاتِ يَفْرَغُونَ فِي جُوفِهِمْ بِتَتَابُعِ قُرْبَةٍ يَتَبَادَلُونَهَا بَيْنَهُمْ مِنْ فَمٍ لَفَمٍ ، وَلَا أَعْرِفُ كَيْفَ رَعِشَتْ سَبَابَتِي مَعَهَا ارْتَفَعَتْ يَدِي الْيَمْنَى ظَنُّوا أَنِّي أَطْلُبُ مَاءً وَكُنْتُ ظَمْآنَ حَقّاً مِنْ غَيْرِ أَنْ أَطَالِبَ بِالْمَاءِ ، فَفَهَّقُوهَا جَمِيعاً وَبَادَرُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَسْكِينَ هَذَا

الفاكتور عطشان هيا يا بومهراز اسقى صاحبنا، فما كان إلّا هاجمني يريد أن يتبول عليّ وأنا أترجع، اندسّ متكوراً، مقرّصاً إلى زاوية في الحائط، فانفتح الباب فجأة وغدا هو قائد المنطقة الإدارية نفسه سأل من هذا، سمعت صوته، وناديت باسمه فتعجّب لوجودي هنا، أو تظاهراً، أخطرهم بهويتي وبرأني، فأفرجوا عني يا سادة بضمانته، وأدّيت عن هذه الخدمة ثمناً باهظاً أن أتحوّل إلى مُخبر له أنقل أخبار نونة، وكل شاردة أو واردة في نون، وأحياناً أفتح رسائل تصل إلى إدارات مصالح خارج مسؤوليته، يريد أن يحيط بها علماً كلها، ليكون السميع العليم، عليه لعنة الله، ولولا أنه مات في حادث سير من إحدى مغامراته النسوية في زاوية الشيخ لبقيتُ عبداً، لا..

لا، لن أبوح بالسرّ، سيبقى ما ورد في البرقية يخصني، لذلك أبقيتها مطويةً حول حزامي، هو مخبئي، أعلم لا يوجد فيها ما يقلق، إنما ينبغي أن أتحرّى وأتحرّى بالحيلة، وربما أحتاج أيضاً إلى نشر جزء من الخبر من باب التمويه لأتبيّن أهمية ما أحمل، وما يمكن أن يحدث، أو لا يحدث. لم يَرِدْ في البرقية كثير أو هو ملغز بكثير. جاء فيها عليك أن تبقى في طوارئ، وأنا دائماً في طوارئ، لا وقت لعملي! لا تسافر! وأين يسافر مقطوع الجذر، محدود دخل مثلي؟! لا تمرض! ها، ها، كسائر عباد الله هنا، لا فرق بين المرضى والأصحاء، يولدون ويموتون مع الوقت، تجسّست مرة على رسالة معلم كتّبت لحبيبة له تسأله عن حالته الصحية فأجابها ببیت شعر أعجبني، تأثرت لصاحبه كثيراً فحفظته على الغيب، قال: «تعجبين من سقمي/ صحتي هي العجب/ تضحكين لاهية/ والمحَبّ ينتحب» - لا تبتعد كثيراً عن المكتب! المكتب

هو سكني - إياك والاختلاط بالغرباء! وكذلك أن لا أُعَدَى بالزكام أو أُصاب بالإسهال سيعوقاني عن القيام بواجبي! مقهى هنية أن أتجنّبه في الأيام القادمة، إذ عدا فتنتها، وتعلقي المعروف بها، يمكن أن تستدرجني هي التي سلبت لبيّ، وأفُرخ لها المزود، ممّا سيُفسد المهمة التي سأكلّف بها في المستقبل، وإذا نجحت فيها ترفيتي مضمونة ويمكن تعييني مديراً لمكتب بريد في إحدى المدن الجديدة التي ينتشر بها العمران والرخاء في الإيالة العامرة.

ها، هذا هو المفيد يا سادة، يا كرام، ما في جعيتي ليس أكثر من أنني، أنّ مكتبنا ستصله رسالة قريباً جداً رسالة هامة جداً من جهة هامة جداً لأوصلها إلى جهة هامة جداً، أيضاً، في بلدة نونة، ببلاد نون المحميّة بالأنوار الربانية، وبعيون وزنود وبنادق العاصمة، وحدي مؤتمنٌ على استلامها وإيصالها. خبرٌ بسيط في ظاهره، لكنه معقّد لو فتحنا تفاصيله. لذلك زادت البرقية تقول: «احتفظ بهذه البرقية لنفسك، وإياك أن تُعلم القايد بالذات بها، سيعتبر نفسه المعنيّ الأول بالموضوع، وربما يدفعه طيشه وتعسّفه الذي نعلم إلى تصرفات غير محمودة العواقب، وهو شخص أحمق، أخرق، قد يعمد إلى اعتقال أو تعذيب، وحتى قتل من يرى أنهم سينافسونه، وعندئذ يتسبب لنا في مصيبة أخرى مع هذه الأرض التي لا تزال تغلي منذ حوادث مولاي بوعزة، رغم أن سكانها كأنهم سكنوا؛ لا، أو لم يسكنوا!». »

لا سكيّنة في هذه البلدة، أو تغشّ بها فتخدعك أنها لك ساكنة. كلّ ما فيها مظهر سكون: أهلها فاترون، والأعمال هنا قليلة، متقطعة وحسب المواسم، وهم سواءً عملوا أو تعطلوا بطريقة ما يعيشون كما عاش أو مات أجدادهم السابقون. في بيوتهم وأعشاشهم دوماً بقية مؤونة تكفي لسدّ الرمق، فإن لم يجدوه اقترضوا من القريب والجار في انتظار يوم أفضل. يؤمنون أنّ الله لن يتخلّى عنهم، وما قدر لهم العيش في سفح هذا الجبل إلّا ليكلّأهم برعايته. فإنّ شحّت السماء وبارت الأرض لن يعدموا التفاتة ممّن حواليلهم، عندئذٍ تعلو أبصارهم نحو قمة الجبل، ينظرون إليها بخشوع وسهوم، لا بدّ أن ساكنها ذكراً أو أنثى، أو كليهما سيلتفت إليهم، وإلّا ما وجوده هناك، بقاؤه، سرّ غموضه، أي معنى لسحره إنّ لم يلبّ ويستجِب لهم.

هم مثل نزيل أو نزيلة جبلهم غامضون، متقلبون، لا تعول على كلامهم المعسول، يخفي أكثر ممّا يفصح، متلوّن مثل عيون لا تتوقّف عن الدوران في المحاجر كصقور تتأهب للانقضاض. مذ عيّنتني العاصمة هنا، همّي كلّهُ انتهاز فرصة تنقلني إلى مدينة ساحلية، لكمّ أحبّ البحر، في الجبل أحسّ بضيق شديد، خصوصاً العيون تحرسني وتمشي معي أينما حللت، رغم أنّي أنا المكلف بتتبع البشر هنا، ليكون جميع الساكنة، ذكوراً وإناثاً، تحت مراقبتنا، نحن من يسمّوننا رجال السلطة، نحن ثلاثة: قائد الجندرية، عميد الأمن، وأنا، القائد الإداري، علاقتي مباشرة مع العباد، المسؤول عن حلّ مشاكلهم، لا تنتهي. تبقى أهوّن من كيد

وتأمر القائدين الآخرين، يتدخلان في ما لا يعنيهما، يرسلان عني تقارير منتظمة إلى إدارتنا العامة، يتهماني بالرشوة، وهي منتشرة في كل مكان واستهلال أيّ كلام كبسم الله، كلّ مَنْ يطلب ورقة إدارية أو مصلحة يفاوض لرشوتك، إن رفضت معناه أنك ستُهمَل طلبه، إنهم رضعوا الرشوة مع حليب أمهاتهم. وعدا هذا يتهماني بالتحرش بأيّ قاصر، يدّعيان بالغلمان، أيضاً، والمصيبة هي أنهما يعتبراني واقعاً، تابعاً للسيدة الغامضة التي هناك في أعلى الجبل، طوّع بنانها، منها أتلّقى الأمر والتهى، أضع كلمتها فوق كلمة العاصمة، كيف يجروون ادّعاء هذا ضدّ الذي طوّع السكان هنا فحوّلهم إلى نعاج يشغون؟! لم يطل وقتي لأكتشف أنّ هذه النعاج منافقة، مبالغة في تظاهرها وسلوكها معي، معنا، نحن جميعاً القادمين من وراء جبالها. انكشفوا دفعة واحدة لمّا علموا أنني أتكلّم لهجتهم الأطلسية، جهلوا أنني أنحدر من إيموزار كنذر، من قبيلة آيت سغروشن، رغم أنني أحمل لقب السغروشنّي، الإدارة وحدها تخبر هذا اللقب، أمّا هم، هؤلاء مَنْ أتحدّثهم في رقابهم كما أشاء، فلا يجروّ أحدهم أن يسمّيني بغير سيد القايد، سيد القايد، يُرعبهم قدومي من أبعد نقطة، كيف بحضوري بينهم وسماع صوتي يلعلع فوق رؤوسهم كالسوط!

إلا هي، تلك المعلقة، هناك، في قمة الجبل، نسمع عنها ولم نخبر حقيقتها، قوتها في خفائها وغموضها، ولا شكّ أنها تتعمّد هذا، وكي تبقى الطواير تزحم الطرق للوصول إليها، وعليّ أنا الإشراف على تنظيم الوصول إليها، هذا الماعز يقُدّسها، ووصل بهم الأمر إلى توزيع كاسيتات بأحاديث يزعمون أنها مسجلة بصوتها، هي، طبعاً، تجارة مربحة، أشكّ أنّ قائد

الجنדרمة وعميد الأمن متواطئان في ترويجها يستفيدان منها مالا
وفيراً، وللعديد رأي شيطاني يقول فيه من الأفضل أن يتلقى القوم
بهذا العلف، يقصد هوى السيدة الغامضة بما يشبه التبعّد على أن
يسألوا ويطالبوا ويرفعوا أصواتهم بالاحتجاج، بخاصة حين يعود
أبنائهم في العطلة الصيفية من الجامعات التي التحقوا بها، فقد
أصبح لهم أبناء متعلّمون، يصرخون أمام البرلمان ولا يعبّون
بالحكام، حتى ونحن ننزل فيهم ضرباً وتهشيماً للضلع لا
يرعون. هنا تصلني تقارير أنهم يجتمعون في الغابة وكذلك عند
تلك الأفعى اسمها هنية، في مدخل البلدة، سأصقّي معها
الحساب، هذه أيضاً لا نعلم متى جاءت إلى هذه البقعة التالفة بين
الجبال، ما الذي حملها إلى هذا القفر، ولولا أنها.. أو منها
ورطة.. لقطعت جذر نبتتها الخبيثة، تعرف ضعفي معها، وتعلم
كذلك إلى أي حدّ نحن نحتاج إلى مقهاها، ليس مثله مكان لرصد
الوافدين الجدد إلى البلدة، قربه من محطة النقل لا يعدله جغرافياً
شيء، كنا سننزعها منها، لكن رأينا بقاءه في ملكها أجدى لما
نريد، بلغني أن المسافرين استبدلوا اسم المحطة باسم هنية، من
أين جئت؟ من عند هنية! وإلى أين؟ غادي عند هنية! كنت حائراً
مع امرأة، وها أنا عليّ عبء امرأتين.

هي أعباء في الحقيقة، تذكّرها وحده يجلب لي الهمّ، ولا
دخل لي فيه، من قريب ولا بعيد. البلاء بدأ منذ عام 1973، فكيف
أوقفه أنا في الألفية الثالثة، والصبية ينشرون أعراضنا وأي هفوة منا
تجدها في اليوم التالي في الفيسبوك؟ لو كان هذا الفيس رجلاً لما
تردّدت في خنقه؛ خزان أكاذيب!! ولم يكن ينقصني إلا موكب
المعلم لمباركي، لم يصرح لي بحقيقة ما يريد، ولا بإمكانني إرغامه

على قول الحقيقة، الذين كانوا على علم بها رحلوا، تمّ ترحيلهم، ربما بعض العجائز هناك في الجبال يتداولون بعض الأسرار في ما بينهم، وكلما اقترب منهم برّاني بلعوا ألسنتهم، قالوا نحن بالله والشرع منكم، تسمعهم يداهنون: الله يكبرنا في طاعة حاكمنا! يداهنون لأسمع أنا مثله، أنا جسده، وعليّ بالذات يكذبون، وها هو المعلم لمباركي يورّطني، سيورّطني في فضيحة جديدة، قال إنه جاء ليعبّد الطريق، هنا الناس يحتاجون إلى الشغل، والمستشفى، وكساء فصل الشتاء، يقضم البرد عظامهم، وأنت تغني للطريق نهاراً، وفي الليل تحفرون عميقاً، وترمون، ماذا؟ قائد الجندرية وحده يلتصق بالعمال، هؤلاء جاؤوا من خارج نونة بينما عندنا هنا جيش من العاطلين لماذا لا نشغلهم، قال لمباركي هذه مسألة ثقة، وعمال مراکش أشدّاء مجربون، أمّا سكانك فيصلحون للرعى والفلاحة فقط، هم كسالى يتركون نساءهم ينوبون عنهم في حمل الحطب وجني المحاصيل، إذا وُجدت، بينما مهمّتنا نحن تتطلب رجالاً أقوياء.

كلّ هذا البلاء بدأ مع تلك الانتفاضة، جلبها مجانيين ومساخيط الحاكم من الدزاير، لو كان عندهم غرام واحد من العقل والفتنة لما فكّروا بما سموه ثورتهم من هذه الجبال المنسية، وبين الطرق والشعاب الحلزونية، لذهبوا إلى المدن حيث البشر يغلي والثكنات والشركات والمصانع، هناك قوة النظام وليس في هذه الخرائب تتناثر فيها فرقة مخازنية وحزمة جندرية، وبضعة مخبرين، والقيادة للشؤون الإدارية، تماماً كما أنشأها وتركها الاستعمار. جاء مخابيل وروّعوا السكان، لم يكن هنا أصلاً رجال، أغلبهم التحقوا جنوداً بالجيش الرسمي، يأخذون خلصة

باردة، ثم يأتون في العطلة يسمونها (برمسيون) [Permission] ليتزوجوا ويتكاثروا ويعودوا إلى القشلة في الحجاب، وفي مكناس، وحتى في الثلث الخالي إذا رُمُوا إليه، أنا أعرف هذا الجنس، لا تأخذ منه حقاً ولا باطلاً، والمصيبة أنه لا ينسى، مع أنّ النسيان طبيعة في البشر، ومع هذا يأتي المعلم لمباركي بكاميوناته، ليعبّد الطريق في الظاهر، ويحفر الأرض ليلاً لغرض نحتاج نحن أن نستترّ عليه، فلا ينتبه له هؤلاء الموتى، بحسبونهم موتى وهم أحياء داخل جلابيهم الخشنة أصبح يتعذّر علينا فهم لغتهم، كيف نفهم من انتقلوا إلى التخاطب بالإشارات، لمّا راسلت الحاكمة أن يعينوا لي مساعداً يفهم هذه اللغة الجديدة، أجابوني عُم بحرك، وفُكّ لغتهم وهات كلامهم وإلا هزّ قلوبك، عندنا في العاصمة مدرسة إدارية تخرّج اليوم العاطلين، هم أولى بمكانك، تساعد موكب لمباركي ولا تتدخل في ما لا يعنيك، نحن أدرى بسرّ الموكب، فكرتُ لا شك أنّ للحاكمة خطّتها، المهم أن تواصل أنت ورجالك الخاملين مراقبة الجبل وإتياننا بأخبار طازجة، لا بمعلومات عن السكاري والحشاشين والقوادين، ليغرقوا وأنت معهم في العهر والتحشيش واللواط، واغرق معهم، نحن نعلم أنك غارق فاسد حتى العظم، إنما ابقَ يقظاً لما نريد، واترك الباقي علينا، موكب لمباركي من اختصاصنا، ومقهى هنية لا شأن لك به، أمّا هنية نفسها ف...

أنا وحدي أقف له شوكة في الحلق، بعد أن دار رأسه، فتصوّر أنه فرعون هذه الأرض، ليس أوّل ولا آخر من يتحرّش بي، ويساومني، على عرضي وهذه الأمتار القليلة من تجارة شبه باثرة. أرسل يطلب نسبةً فائدة من دخل المقهى، فلمّا ردّته أرسل من حطّم الأثاث، ثم جاء بنفسه، قال أطلب القرب، وبالمقابل أتركك، فإن عاندت سيأخذونك إلى الغابة وهناك يفعلون بك ما لست أدري، هه! جاملته في البداية، لا حيلة لي، ثم استدرجته إلى الغرفة العليا، جعلته يتعرّى بعد أن هيّجت غريزته كالحيوان، وغافلته، خرجت وأحضرت ناساً من الطريق، ومخازنية بسطاء، وجلساء المقهى، كذبت عليهم، أصبح: غريب هجم عليّ، هبّوا زعماء لنجدتي، فتخوا الباب ليفاجؤوا به مضطجعاً عرياناً أمامهم، رآهم فالتفت ببطانية يخفي وجهه، فنزلوا فيه ضرباً بأحزمة، وحين كشفوه أجفل وولّوا متراجعين. نقلوا فضيحتهم إلى البلدة، ومرت أيام عادَ بعد أن اشترى الشهود فلفّق لي تهمة أنني كنت أخفي وما أزال غرباء يريدون شراً بالبلدة، وما أزال، ومنهم واحد يدعى سلام، ادّعى عنه كذباً أنه إرهابي متنكّر في هيئة مشعوذ، ونسبه إلى ابن واحد ممّن اعتقلوا في أحداث مولاي بوعزة، جاء لينتقم لأبيه، ويحضّر فتنة جديدة. لولا أن تصدّى لمكره قائد الجندرية، غوايتي له كانت ماشية، وأستر أيضاً مغامراته مع نسوة من البلدة وخارجها، إما يتحرّش بهن أو يساومهن، السكان هنا فقراء، والنساء أحياناً يُجبرهن الفقر، فيطلبن مني أن أسترهنّ، ينقلن لي أخباراً من كلّ مكان، عن هذا

القائد نفسه قلن إنه خائر القوى في الفراش، ويطلب منهن أو يلزمهن بمساعدات يَخْجَلْنَ من وصفها، الله يبقِي السِتر. رفضت أن أحوّل مقهاي، مصدر رزقي الحلال، إلى ماخور، ومضطرة أن ألعب بالجميع، أيضاً، لأخذ بثأري.

أظن أنه سيتأخر. لم أتوقّع حضور هذا الغريب. لم أحسب حساب فتنته الصامته. أراه يتجاهلني. يتظاهر كأنه فوق الغواية والشُّبُهات. لكن يقيناً في رأسه شيء، ولا بدّ سأكشفه في الفراش، فلن يطول تمتّعه. سأستلّ بالقوة إلى فراشه، وربما هدّدته في آخر المطاف بعميد الأمن الخاص، هذا لا يشبه القائد السغروشي، ولا قائد الجندرمة البوّال، تقول صويحباته إنه يظلّ في حاجة إلى التبول قبل أن ينتقل إلى المُفيد؛ العميد يقتضي عمله السّرّ، وأنا أتواعد معه في ربوة خلف الجبل، عنده فيها مغارة، هنا يستقبل مخبريه ينقلون له ما يروج ويسمعون في البلدة، من أيّ كلام، له سمّية يتناوبون على الجلوس هنا، يسمعون للثرهات والخرايف، عنده أنّ كلّ ما يتكلّم به الشعب فيه فائدة، المشكلة تبدأ عندما يسود الصمت، معني هذا أنّ هناك مَنْ يتأمر في الخفاء، ولكي تخدمه لتستخدمه تحتّ نادلها على حشر أنفه، على أن يشتكي دائماً من الأسعار، من الوقت، من القايد ليحرك الألسنة، كي تفتح أفواه هؤلاء البربر الأطلسيين القابعين داخل جلابيبهم، يتظاهرون بالمسكنة ويدّعون طاعة الحاكمية، ثم تستيقظ ذات صباح لتجدّ الفتنة قد اندلعت في ديارهم، وإلّا، هل كان ما حدث هنا في مارس من سنة 1973 ممكناً، هل لو أنهم حقاً قوم مسالمون، مطيعون، هل كان أخوها سينتقل من عيشته الراضية في الدار البيضاء ليشارك مع ناس أغراب عنه قادمين من الجزائر. . في ماذا؟

في حركة، ثورة سموها، هي لا تعرف معنى ثورة، المهم أنهم استولوا على بنادق المخازنية وأغلقوا الطرق وأرادوا رأس الحكام، وأموراً أخرى مستحيلة، تعتبرها نوعاً من خروج العقل، بل هي الجنون عينه. لو شاوروها لجلبت لهم كل المسؤولين هنا بسهولة من سرير الغرفة العليا، من دون عصي ولا قرطاس. إنما كانت ستوفر عميد الأمن الخاص، هو سلاحها، أظافر تخمش بها كلما ضاقت عليها الدائرة، وهي مع هؤلاء الغرباء الذين وصلوا إلى البلدة كأنها تضيق، وتضطرها للمراقبة والحذر، حتى مع هذا الغريب، لا يبقى إلا عميد الأمن الخاص سلاحها، إنا أن تخضع يا غريب، تصير طوع بناني، أو..

ماذا؟ هو الغيظ منه فقط يغلي في نفسها ولن تؤذيه، ستركه احتياطاً، ما دامت هويته غامضة فقد تستعمله، أم نسيت أن عندها خصوماً، وعندها خصوصاً غريم، تلك الجنية، تلك الساحرة، المرابطة في قمة الجبل، تحدس، تحس أنها تغطاظ من وجودها عند مدخل البلدة، كأنما لا يكفيها طابور بلا نهاية يقود إليها من هذا الشارع إلى أعناق الجبال العليا؛ كأنها تريد أن تستحوذ على السهل والجبل معاً، رغم أن لا أحد رآها إلى حد الآن، ولا لمسها، ولا شم لها رائحة، أحياناً يساورها شك عميق في حقيقة وجودها، تفكر أنه وجود خادع ومصنوع، أن ثلاثة تواطؤوا على اختراعها كي ينهبوا البلدة وينصرف السكان عن فضائحهم، لينشغلوا بهذه الأفعى، يلتمسون، كما يقولون، بركاتها. زهيرو خادمتها تقول عنها بعد أن اهترأ متخها مثل نساء كثيرات هنا، إنها تشفي من البرص الذي انتشر في القرى المجاورة، ومن الصمم، وحتى من الجذام، أن النساء يدخلن مخدعها عاقرات فما أن يطان

عتبة بيوتهن أو خيامهن حتى يشعرن بنطفة تتحرك منهن في الأرحام؛ هذه الدجالة! ثم تأتي أنت أيضاً من خارج الحساب، من تسميه مول القراب، تعني ساعي البريد، حامل الحقبة الجلدية على كتفه، يتحدى أياً كان أن ينزعها عن ظهره، فهي وأنا واحد، يقول، وأنا وهي سلطة، مخزن، ينظر في الوجوه بثبات وتحذّر وهو يوزع رسائله وكأنه يشهر سلاحاً، يعلم جميعهم تحت رحمته، يكظمون غيظهم مخافة أن يمزق بريدهم، خاصة الإداري منه، العباد هنا تُفَقِّف من كلّ ما له علاقة بالإدارة؛

لهذا شَخَصَ شبحاً مرعباً أطلّ على نونة عندما وصل مول القراب مرتبكاً، الآن يتنقل بين الأحياء وهو يتفرّس في الوجوه والعناوين تحسبه يبحث عن شخص أو عنوان مفقود، ثم، ثم، دفعت إليه زهيرو تحاصره حين دخل إلى بيت الوضوء، قالت اتركه لي سأسلّ لسانه فقط، سأحلبه لك حلب الماعز. دقائق وخرجت بوجه ضاحك وعينين منتصرتين، تقدم إليّ يقول سرّنا يبقى بيننا، طلب منها إن أرادت أن يزودها في المستقبل بما هو أهم، فهو علم من مصدر أعلى منه أن بربداً مهماً، لا، بل خطيراً، سيصل إلى بلدة نون قريباً جداً، زدته في المتعة، صرت أحلبه وأجنّ شهوته، تقول زهيرو، كي يقرّ بالاسم، فأقسم بمعزتي عنده، أنه يجهل، وإن شكّ في واحد من أربعة: القايد، قائد الجندرمة، عميد الأمن الخاص، وأنا؟ هه، أنا؟ قفز السؤال من هنية بحرقة، لا يا مولاتي، إنما زاد، ربما، يقول ربما تكون هي في قائمة الأسماء، يقصد يا للاً، قالت وهي تحيض وتبيض، صاحبتنا التي في الجبل، هنا أرعدت هنية، وأزبدت حقاً، جاءت تلك الحالة التي يسمونها (لهوايش)، أسقطتها أرضاً وهي تترنّح متشنّجة، سارعت زهيرو فوضعت في يدها مفتاحاً،

سيطرده حديدُه الجنّ الذي سكنها فجأة، حين استعادت هنية وعيها بعد دقائق أكّدت لخادمتها، ربما لنفسها وهي تتكلم في الفراغ حولها، لا جنّي، يوجد فقط ساحرة الجبل، تريد أن تحكم نونة، وتطرّدي منها أنا العاصية، المتمرّدة عليها، مَنْ لا تقف في الطابور الصاعد إلى قَبْتها، إلى كذبها، أقول لك يا زهيرو، زيدي احليبه، أخرجني منه الزيت والزبدة وحتى العسل، حتى يقول: أنا ماشي هي!

- 33 -

فُرَجْتِي طالت، والسكون حولي لا يناسبي. مَنْ مثلي لا يصلح له الاستقرار. سيُعيد الجمود الذي يُواتي ربما هنية، يا لها، تعمل ما بوسعها وأكثر كي ترضيني. لأبقى إلى جانبها، رجلاً يرخي عليها ظلّ الأمان وسط ذئاب يتحرّشون بها من كلّ جانب: السلطة وأعوانها، المقيمون والعابرون، المعلوم منهم والمجهول. لا شيء ينقصك يا سلام بعد أن وقعت في هواك دون أن تنصّب لي أيّ شَرَك، تقول عيناها وهما ترسلان لي الغواية مرة، والعتاب، أخرى، وهما يتنافسان. أين تجد مكاناً أفضل لتقنص الحكايات وبعض حوادث هذا الزمان؟! صحيح أنّ سكان هذه البلدة خاملون وهادئون، قلّ أن يغامروا، بعد أن طوّعتهم الحاكمية، وشردت رجالهم وأفسدت نسوتهم، حتى صيّرت أراضيهم أحياناً كناية عن مواخير، وهم إنما يريدون سدّ الرّمق في انتظار فرج ما. أنت محقّ حين تقول يمضي عليّ الوقت ولا أحصد بعد ما يثير، لأنّقل إلى أرض أخرى أحمل لأهلها حصادي من الجديد. أنا لستُ مُبشراً ولا مناضلاً أنتظر ما سيحمله الغد من قوي جديد.

أنا حكواتي، بائعُ حكايات وشاريها أيضاً إذا وُجدت، أحتاج أن أتغذى دوماً بالأخبار، العادي والعجيب منها أكثر، ولحد الساعة. مثلي لا يناسبه الاستقرار، الحكاية في الحلقة، تنقل من رُبع لربع، لأصقاع، تسير ليلاً ونهاراً وهي تخترق الوقائع والأحلام، تفرح وتشرح الخاطر ومرات تسود وتستبدّ، وفيها تحتاج أمام جمهورك أن تجعل البسيط مرّكباً، والعادي خارقاً، لا، بل ويحملونك ما لا طاقة لك به، الله وحده أقدر عليه، أستغفره، أن تُحيي العظام وهي رميم، ولذلك ينبغي أن أتحرك من هنا على وجه السرعة أو سأحمل مثل القوم هنا، وأصبح عبداً، تابعاً لهنية، عالّة على هنية، تتباهى بي بين الحشاشين أو ربما تصيرني فزاعة في وجه القايد، ورئيس الجندرمة، والكوميسير، عجباً ثلاثتهم يتحاشونني ولا يعتبرونني غريباً لهم، حين سألتها أجابت إنهم يهابونك يا لفقيه، وسوستُ في آذانهم أنك فقيه سوسي، وجرّز واحدٌ منك يُضجع ويطمس العقل، وأما ذلك الشيء المفيد ما تكون به الهمة أولاً، فأمره بيدك، تعازيم تقولها أو ترسمها، أنك تقرأ الديماطي، جئت من زاوية أحنصال، حتى وأنت تخفي عني أصلك شملتُ فيك بركة الصالحين، إياك أن تنكر قرابتك من دادا سعيد، هو مول الضريح في الزاوية، شيء واحد لا يرتاحون إليه كثرة تركيزك على قمة الجبل، عنيثٌ حيث تربض تلك الأفعى القرطيطة، وهنية لا تفهمني، لا يمكن إلّا أن تركبها الغيرة مثل كلّ النساء، لا تفهم أني في حاجة إلى لّلا نونة، هكذا تتسمّى، لكي أدفع بخيط حكايتي إلى الأمام، وأجد ما ألقيه إلى جمهور حلقتي، كأنني أسمع منهم من يحتجّ يا سي سلام، أوقفَ حمارك في العقبة، أهذا كلّ ما في جعبتك عن بلدة نونة، ما أخبرتنا به قليل ولا يُشفي الغليل، ثم إنك

تترك الأمور معلقةً، مصائرٌ وأحداثاً، وهو ما يفوق قدرتنا على احتمال لعبة التشويق، فينزل الظلام بساحة الفناء، نضطر أن نتفرّق قبل شفاء النفس بسماع البقية، الساحة ما عادت لأهل الحكاية بعد أن غزاها باعةُ الشواء والعصير، تحوّلت بطناً هائلةً بعد أن كانت بالأس القريب مرتعاً للحكاية، ومُتندى للحجّم والأقوال والأمثال، ومحضاً للمباهج وتسليات شتى، فضلاً عن لقاء العين بالعين وما يتبع من مفاتن.

لُبُّ الحكاية أن تمضي بنا إلى أمام، فإننا معشر جمهورك تتشوّف النفس لمعرفة ما يوجد في قمة الجبل، أيّ بركة تلك يلتمسها ساكنةُ البلدة ممّن لم يتبيّنوا أبداً شكله ولا ما هو جوهره، وزادنا بلبلّةُ الظهور المبالغت لساعي البريد، ما خطبته، ولمّ وهو المألوف عند الساكنة، بات يحيض ويبيض، تحسبه هو مَن كان خامل الحسّ يحمل همّ الجبال، عليك إمّا أن تتحایل فتكشف ما بحقيقته المتهرئة، إمّا ترشوه أو تسلّط عليه زهيرو خادمة هنية ليبوح لها بالسّرّ قليل أن تبلغه أوج المراد، بعد أن لم تظفر منه بنتيجة وقد تبعته خفيةً يحوم في عدة أماكن من البلدة، يميناً وشمالاً يدور كالمروحة، تُحْدِث القاييد يتبعونه، ومن خلفه الجندرمة، ومخبرو الكومسِير، نسوا أو أجّلوا المهمة التي كُلّفوا بها منذ وصول موكب شاحنات المعلم لمباركي إلى بلدتهم، طُلب منهم مصاحبتها من المدخل إلى الداخل وأن تبقى عيونهم تحرّسها عن بُعد، كما ورد في التعليمات، مع الحرص على إبعاد الفضوليين الذين اصطَفَوْا في الطريق العام يسألون ولا يفهمون ما يحدث أمامهم، خاصة بعد أن تعمّق الحفر في الطريق في شكل نفقٍ، وله بوابةٌ تصل إليها الشاحنات، ويأتي مَن يُفرغ حمولتها التي لم يرها أحد لأنها مغطاة

بقماش سميك، وجاءت شاحنة إضافية نزل منها أشخاص يرتدون،
 بالآخرى يلتفون في ملابس بيضاء ويحملون قناني حديدية ضغطوا
 على مفاتيحها فأطلقت غازات تنفّس رائحة تخرج ننتة جداً من
 النفق، يتقيها العمال بأقنعة، بينما لا سبيل لوقاية السكان، فكثُر
 سعالهم وقيئهم، ومنهم مَنْ أغمي عليه، ومن توقع أنها بداية
 القيامة، وأنت يا سلام تنظر كأنّ ما يجري أمامك لا يعنك، تلتزم
 حياءً بارداً تعتبر أنّ الراوي لا يجوز له أن يكون طرفاً في الحكاية،
 واجبه لكي يستتب أمرها أن يوقر لها بداية مُرضية ويتابع سرد
 أطوارها، بشخصياتها وحوادثها وخوارقها، إن وُجدت، ويقدمها
 سائغة إلى نهاية إما تبلغها، أو يصطنعها، وكثير ما يفعل الرواة
 هذا، بحسب ميل ونزوة مَنْ عندهم من جمهور، كلما أرضوه
 وصعدوا به إلى ذرى الخيال بما يوافق هواه وأوهامه، زاد ما يجيبه
 منه إكراميات.

والآن ماذا تتوقع يا سلام أن يحدث، لا يمكن تركّ الحبل
 على غارب هذا الساعي الأبله يتلاعب بانتظارنا ولا يعطينا إلّا أشخّ
 الخبر، أسرّ لزهيرو بعد أن حرقت رغبته بأن رسالة خطيرة الشأن
 ستصل عمّا قريب إلى بلدة نون من طرف الديوان العامر للإيالة
 العظمى، موجهة، يُقسم بالله العظيم، أنه لا يعرف لمن، وهو
 شخصياً، وليس أيّ فرد من ممثلي السلطة، مَنْ سيسلمها، لذلك لا
 تعجبي أن يتهافتوا عليّ، ويلاحق خدامهم ومخبروهم ظلي، وقد
 تلقّيت وعوداً منهم جميعاً إن أنا جلبت لهم السعد أن ينفحوني
 غالباً، وإلّا سيتردونني من هذه البقعة، ربما يلحقوني بمن هم
 داخل النفق، اللهم أن تكون الرسالة موجهة إلى الجبل، وعندئذٍ
 فلا سلطة لهم عليّ.

عند هذا الحدّ من التخمين كان سلام قد أدار وحبك ما توفر
عليه من خيوط الحكاية، يعتبر أن جديدها وتطوّرها رهنان بوصول
الرسالة المجهولة والكشف عن مضمونها، وثانياً بكشف المستور
عن ما في الجبل مع سيدته من أمور، وكانت الشمس تميل إلى
المغيب، وهو ينعس ليحلم في قلب الديجور.

الفصل السابع

أراهم احتاروا في هويتي . تختلط عليهم حقيقتي الغائبة عنهم ،
بالأضاليل والافتراءات ، بما يصنعون لي من صور . يروني كلّ مرة
في مرآة أوهامهم على شاكلة ، وحسب أيّ هوى ، كأني ذلك الكائن
الخرافي الذي يعطونه سبعة أرواح ، بينما أنا ، واحدٌ ، واحدةٌ ،
بجسد وروح فقط ، ولستُ مسؤولة عن عقول الناس الطائشة . بُعدي
عنهم ، وتفردني في قمة الجبل ، ووعورة المسالك إلى إقامتي أضفت
عليّ ، بفضل خيالهم الخصب ، زيادة على ما اعتبره تهوّرهم
العقلي ، هالةً فوق حقيقتي وتفيض عن حدود طاقتي ، بينما قوتي
الوحيدة ، العظيمة ، لا يعلمون ، وكيف يدركون قيمتها ، هي بالذات
وحدتي . حتى إنني نسيت عمري ، ومتى حللت هنا ، وارتقيت من
السفوح إلى هذا الجبل . شُقرة بشرتي ونصاعة ملامحي وأتساقها
تشبي بانتسابي للحاضرة ، فاس أو تطوان من هذه الحواضر
الأندلسية الأصل ، وكذلك لساني ونبر كلامي ، خاصة بين نُطق
القاف ولثغة الراء ، وفي الباقي رنة رقة واسترخاء .

الحقيقة أنّ قلةً من أهل هذا الربع رأوني بالعيان لما وصلت
قبل سنين ، وهذا بالضبط قبيل الفتنة التي حلت بقرية مولاي بوعزة ،
ونزل فيها الغضب عليهم . من علوي سمعت إطلاق الرصاص .
لمحت صفّ شاحنات العسكر تصعد في الطرق الملتوية كالديدان ،

هي ذاتها أخبرني الجبليون سلوكها قبلهم المتمرّدون، وبيننا الأحراش وذؤابات الشجر المنتشر على صدر الجبل وعند قدميه . من أسفل ينهض الشجر كثيفاً، متشابكاً، دُغلاً، يُعطاك طبقةً واحدةً، متماسكةً، منيعةً، لا يقدر على اقتحامه إلا أبناء هذه الأرض، ممّن اعتادوا عليها من الصبا، يتسلّقون ويركضون كالماعز، لا يأبهون. لذلك حين زحفت القوة على البلدة عجزت عن ملاحقة المتمردين طويلاً، كان برفقتهم مرشدون، وربما متطوّعون يقودونهم في المسالك الوعرة. من علّوي تابعتُ ما أمكنَ حيث تظهر الغابة من جهة ثانية سمحةً، أشجارها مهففة الأغصان، وخضرتها ناصعةً، طريةً، فلبّدوا في جنباتها بعض وقت، أرسلوا لي مَن أعرف يطلب بعضهم بلطف فهمته ضيفَ الله، وفي الليل أرسلتُ مَن ساعدهم وإشعارهم بالأمان، أنهم ضيوف.

تعمّدوا الوصول في الهزيع الأخير من الليل، تحسّباً لكشافات أضواء تسقط على الجبل تتعقّب أثرهم، فأويتهم داخل مغارات ومطامر. حين تحركت طائرات عمودية فوقنا لم تكتشف مخبأهم، وبقيت آويهم وقتاً إلى أن رحلت القوة، لم ينقطع شكّها فيّ يوماً، وهؤلاء البربر الأصلاء من يومها اعتبروني أختاً وأماً، فكفلوا لي عيشاً كريماً عندهم، وأغدقوا بالقليل الذي يملكون وكثير من المحبة. كنت قد بعثُ مصاعً ذهب لي ادّخرته لدوائر الزمان، كلفتُ مَن تاجر به فجاء بكسبٍ، ورزقني الله معهم خيراً، تعجّبوا كيف أنقاسمه معهم ولا أطمع فيهم، وكلّ ما أريد هو أن أسكنَ إلى نفسي، أحاط بي الخدمُ والوصيفاتُ، متطوّعات لا عاملات، يعجبين من نُسكي وزهدي في لذيذ ما يُعِدّدن من طبيخ وطيبات،

ساوَرَهْنَ أَنْ بِي بَرَكَاتٍ، فَمَا أَصْبَحَ يَوْمٌ إِلَّا وَأَنَا أَفْتَحُ مَعَ الْفَجْرِ
نَافِذَتِي تَطْلُ عَلَى أَجْمَةٍ لَمَحَتْ تَحْتَهَا جَمْعُ نِسَاءٍ مَفْتَرِشَاتِ الْأَرْضِ،
مَلْتَحِفَاتِ كَثِيفِ الْأَغْصَانِ، شَهَقَتْ إِحْدَاهُنَّ لَمَّا رَأَتْني، وَتَبِعَتْهَا
الْثَانِيَةُ، فَالْثَالِثَةُ، فَقُمْنَ وَبِرَفَقَتِهِنَّ صَبِيَّةٌ رُضِعَ، وَارْتَمَيْنِ عَلَى عَتَبَتِي
يَتَوَسَّلْنَ وَيَتَشَفَّعْنَ طَالِبَاتِ الرِّزْقِ، وَالزَّوْجِ، وَالْوَلَدِ، وَالْبُرَى، وَرَدُّ
الْعَيْنِ، وَهنا سَمِعْتُ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى مَنْ يناديني بِاسْمِ صَارَ لِي هُوَ:
لَا نُونَةَ، وَانْسَحِبْ لِأَمْرِ مَا عَلَى مَا حَوْلَهُ فَصَارَ بِلَدَةِ نُونَةَ!

• لَا أَحْفَلُ، فَلَا تَحْفَلُوا مَعِي بِتَدْلِيسٍ وَافْتِرَاءَاتٍ تِلْكَ الْبَايِرَةُ
هَنِيئَةً، الرَّابِضَةُ هِيَ وَحَوْشُهَا، مَا تَسْمِيهِ مَقْهَى أَوْ فَنْدَقاً فِي ذَاكَ
الْقَاعِ، أَيُّ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. شَغَلَهَا الشَّاعِلُ تَدْبِيرُ الْمَكِيدَةِ تَلُو الْمَكِيدَةَ
ضِدِّي، تَتَهَمَّنِي بِالذَّجْلِ، بِالشَّعْوَذَةِ، وَحَتَّى بَعْهَرَهَا، أَيُّ نَصَبِ
الْفَخَاخِ لِلرِّجَالِ، شُدَادُ الْأَفَاقِ. تَعْلَمُ أَعْرَفَ حَقِيقَتِهَا، مِنْ قَبْلِ
الْقَائِدِ السَّغْرُوشَنِ، وَرَئِيسِ الْجَنْدَرْمَةِ، وَالْكُومِسِيرِ نَفْسِهِ، يَأْتُونَ
ثَلَاثَتُهُمْ مَرَّةً فِي الْأَسْبُوعِ لَا حَاجَةَ لِي عَنْهُمْ، هُمْ يَلْتَمِسُونَ الْبَرَكَاتِ،
يَخْطُبُونَ وَدِّي، وَيَطْلُبُونَ رَأْيِي، يَقُولُونَ لَوْجَهَ اللَّهِ، وَأَنَا عَاهَدْتُ
نَفْسِي أَنْ لَا أَرَى، إِلَى أَنْ يَفْعَلَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَقْدُورًا، مَتَى سِيَأْتِي
إِلَى أَنْ يَأْتِي. كُلُّ دَاخِلٍ إِلَى الْبَلَدَةِ لَا بَدَّ يَمُرُّ مِنْ مَوْقِعِ حَوْشِهَا
الْعَفْنِ، عَيُونَ الْكُومِسِيرِ مَبْثُوتَةٌ فِيهَا كَامِيرًا لَا اسْتَقْصَاءَ الدَّخْلِ
وَالْخَارِجِ، وَهِيَ تَجْبِي لَهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ نَصِيْبًا. تَحْرِقُهَا الْغِيْرَةُ مِنْ
طَابُورٍ لَا يَنْقَطِعُ، يَصْعَدُ إِلَيَّ خَاصَّةً فِي الْمَوْسَمِ الَّذِي تَسْمِي بِاسْمِي،
يَتَوَافِدُ فِيهِ الزَّوَارُ مِنْ أَقَاصِي الْبِلَادِ، أَعْرَفُ أَنَّ سُلْطَةَ الْبَلَدَةِ تَجْنِي مِنْهُ
رَبْحًا وَفِرًا يَتَقَاسِمُهُ رِجَالُهَا، كُلُّهُمْ فَاسِدُونَ أَوْ يَفْسِدُونَ بِمَقْدَارٍ، وَمَا
تَرَبَّوْا إِلَّا عَلَى نَهْبٍ وَسُلْبِ الْعِبَادِ. أَرَى هَذَا فَأَغْتَاطُ فِي قَلْبِي،
أَسْكُتُ مُوقْتًا، أَقَرَّرُ لَا بَدَّ لَهُمْ مِنْ يَوْمٍ وَمِيقَاتٍ. هَنِيئَةً فِي الْأَصْلِ

حسنة النية، وصلت إلى البلدة تبحث عن أخ ربما أو حبيب، ضاع منها، تدّعي كان مع المتمرّدين، زعمت أنه طلع إلى الجبل مع الفارين، وأني اخترته لفراشي لملاحته وفحولته، ولمّا مصصت عظمه وفقدَ نظارته تخلّيت عنه ومات هباءً، فتريد أن تنتقم له، لكن لا تستطيع إشهارَ هذا الاتهام، فتصنّعت حرفة القهوجية، تعوّل على يوم تنتقم فيه مني، أو تحلم عبثاً بعودة الغائب، قد تكون محقّة، إنما هي مخطئة على طول الخط كيفما كان حظها، ينبغي أن نكرّس حياتنا للأحياء لا للأموات.

هذه عقيدتي، لذلك أنا في خدمة العموم، صرْتُ في خدمتهم بعد أن تخلّى عني رجلٌ في زمن مضى. في الحقيقة لم يصبر على ما عدّه جنوني حين كنت أتفاخر بأنني سيدة البلاد طرّاً، ولا أكذب لما كنت أعلن أنّ نصف ثلاثة أرباع شمال البلاد وشرقها هي لجدي ومن بعده لعمي أهداها للمقاومة زمن الاستعمار، ولولا وطنيتي لطالبت بها حقاً، وحتى لو قلتُ إن عمّاً آخر لي هو مَنْ عمّر نصف فاس لما بالغت. أنا الآن، في هذا الجبل المنيع مقاومة، أو مجاهدة مثل أجدادي، لذلك تصلني رسائل من كلّ فج بلقب: «المجاهدة للآنونة»، ومن المحتمل أن يصلني بريدٌ على شأن عظيم في قريب الأيام، علمت أنه يحوم حائراً هذه الأيام، حال ساعي البريد هذا يشبه امرأة عند المخاض، السغروشنّي، وقائد الجندرمة، والكوميسير، ثلاثتهم مرعوبون، بعثوا رُسلًا لإنذاري بخطر كبير، يتساءلون حبّذا لو قابلتهم لنتداول في المحذور، لا، أبداً لن أنزل من هذا الجبل إلّا لأمرٍ جلل، تُرى ماذا يكون، ولن يراني إلّا ذو بصيرة، يغضّ البصرَ أرضاً، أخشى بعيمه جمالي، أو يتأثر قد خانه الظنّ بكبري، حتى وأنا فاتنة لا ينال مني العمر، ما يوغر في قلب

هنية، تتحرّش بالسّاعي كي تسبقني للسّرّ، ما أحسبه إلّا من نصيبي، أراهن وإلّا لست المجاهدة لئلا نوتة. بقي لي هذا الشخص الغامض المقيم عندها، همّه مراقبة الغادي والرائح، هي تهواه، فيما ميله هو لجمع الأخبار والأسرار ويدّعي أنه مسالم، مهتته بيع الأحلام، هذا جنون، فمتى كانت الأحلام تباع وتشرى، متى؟!

والآن، لننظر في أمر الساعي، وقبله عليّ أن أحتاط لمقدم الغريب، كم مرّة فزعت في فراشي حسبته تسلّل إلى مخدعي، قد ارتقى بنظراته من مقهى تلك الفاسدة إلى محرابي هذا المحروس من ربّ عظيم، ومن ملائكة خفاف، مثلي لا يُرون.. وبرجال أشداء ليصارعوه إن أبدى مقاومة، أو رجال عِلْم أتقياء سيجدهم هنا بالمرصاد ليحاجّوه إن مال إلى الحجاج عندهم منه زاد وفير، من كثرة ما تحاجّوا، لا يروني هل أنا روح أم جماد، حقيقة أم خيال؟

- 35 -

.. هل لسلام خيار في أن يجلس في ركنه القصي، باقٍ إلى جاذبية لا يقدر على الفكّك منها مشدود. ما عنته سخريتهم به، وهنية تحت وطأة خيبتها تجلب مزيد حطب للنار: انظروا إليه المسكين، ذهب بعقله تلك الشمطاء، العجفاء التي في الجبل، عدده فقيهاً، ورعاً، منزهاً عن خزعبلات الشعوذة، تُلصق بنا نحن العيالات، ينعتوننا ضعيفات عقل ودين، وها لُعبه يسيل على شفّته، وعيناه زائغتان، كلّ مَنْ يقترب منه يوحى له عمداً أنّ رأسه يشطح في مكان آخر. نجحت خطته إذًا، فليظنّوا به ما شاؤوا من

الظنون، لكلُّ لعبته، وسِرُّ سيدة الجبل قلبُ اللعبة، عمادُ الحكاية، وليقبض على السِّرِّ فلا مناص له من الوصول إليها. لم تُغيه الحيلة بقدر ما أقعده عطل لم يفكر أن يصاب به، قط. تحولت عنده وهو يراقب شعاع الجبل جاذبيتها إلى هوى أخذ يتمكن من نفسه يوماً وليلة إثر أخرى. لن تفهم هنية أن النفوس ترحل بينما مثواها أجسام ثابتة لا تريم. لن تفهم أنها لا يمكن أن تتملك قلبه، إلى سواها مأخوذ، حقيقةً ذلك أو وهماً. أصبح يتهاى له أن قاطنة الجبل، ومن وحي ما سمع، ويتناسل عنها من حكايات، يتداولها جلساء المقهى، ويحملها علوط إليه كلَّ صباح متطوعاً، باتت تسكن عظامه. وبعد ليلة الحشد العظيمة، وقد انقطع الطريق ورأى بعينه طابور المصطفين، ممن يرجون الوصول إليها، أحسَّ أن وصله بها أقرب منهم جميعاً، وقرَّر أن يبرح زاويته القصوى في باحة المقهى، كانت هنية قد آوت إلى غرفتها باكراً يأكلها الغيظ، هي بطيبات مفاتها مهجورة، وغريمة لها في علم الغيب وخلف ستر الخفاء تُسِلُّ اللعاب.

هي لن تعلم ما ألمَّ به، ولا السَّقم الذي ابتلاه، قبله بأيام سبقتة علةً غامضة. ثم كيف يشرح لها، ولمن حولها بالكاد يفكُّون الحرف أنه لا يُغمض له جفن، أو إلى اقتراب الفجر، ما يخالجه عبَّر عنه شاعره بشار بن برد، ويبقى على لسانه يجري خيط ماء وهذياناً:

«لم يطل ليلي ولكن لم أنم
ونفى عني الكرى طيف ألم
وإذا قلت لها جودي لنا
خرجت بالصمت عن لا ونعم

نَفْسِي يَا عَبْدَ عَنِّي وَاَعْلَمِي
 أَنَّنِي عَبْدٌ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ
 إِنْ فِي بُرْدِي جَسَماً نَاحِلاً
 لَوْ تَوَكَّأْتُ عَلَيْهِ لَانْهَدَمَ
 خَتَمَ الْحَبِّ لَهَا فِي عُنُقِي
 مَوْضِعَ الْخَاتَمِ مِنْ أَهْلِ الذَّمِّ
 فَاهْجُرِ الشُّوقَ إِلَى رُؤْيَيْهَا
 أَيُّهَا الْمَهْجُورُ إِلَّا فِي الْحَلَمِ»

ولمّا بلغت هذا البيت ساور خاطري الذي يليه، سمعت صوت
 مَنْ قضيت ليالٍ طوال أناجيها تأمر مَنْ حولها، وصيفةٌ أم خادماً،
 أفسّحوا له الطريق، وليعبر من الشَّعب الخلفي للجبل ويصعد إلينا،
 إنما اشترطوا عليه كي يقترب من حضرتنا، وينعكس عليه، أو
 انعكس، شعاع من ضيِّ بهائنا، أن يتقرّى صفاتنا أولاً، ويواجه،
 ثانياً، فقهاءنا، فتذهب حيرته، ويعلم أنّ نونة سيدة لا تُضاهى، ولا
 يتعجّب إن كانت سلبت لَبّة من غير أن يراها وتُشدّ إليها الرحال.

بعد صعود أحسستُ معه أنني أرقى إلى السماء بجناحين
 يخفقان من جانبي، وصلتُ إلى فسحة تتوسطها جداريةٌ نحاسيةٌ
 لماعة، نقشت عليها بالخط المغربي المبسوط سورة القلم:

﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ
 لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ *
 بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
 بِالْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِيعِ الْمُكْذِبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تَطِيعِ

كُلِّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّامٍ بِنِيبٍ * مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ *
عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا
قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴿١٠﴾

مضيت أكمل بقية الآية في صدري إلى أن وصلت إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْثُونَ﴾ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ وقف عليّ غلام قال تتبعتني، سرت خلفه كالمنوم عبر ممرّ رطب تضيئه فوانيس، أرضه ترابية صلدة، وجدرائه غالباً من خشب الصندل شملت رائحة قريبة منه، تقوّت وقد صيرنا في قاعة بصحن دائري مفروشة بزرابية مرابطية من الأطلس المتوسط، طُرّزت عليها أشكال هندسية بين المثلث والمستطيل والمصلّب والمربعات، بألوان البني والأحمر والأبيض والأسود، تلفّت حولي في الصحن وحدي، رفعتُ بصري إلى أعلى سقفه خشبيّ مزخرف بمقربصات وفي دوائر مفروزة منه صورٌ لمصلين ساجدين، تعجبتُ، رسمٌ كهذا لا يوجد إلّا في الكنائس، حضرني كلام سمعته يشيع عن نونة أنها نصرانية في الأصل، جاءت إلى هذا البر من وراء البحر، وهذا ما يفسّر سرّ شقرتها، ومُرّجح أن تكون يهودية استبدلت اسمها الشخصي والعائلي، أو قومها، بما يتلاءم مع الاسم الذي كانت تحمله هذه الأرض قديماً أي بلاد نون، رغم أنها مصنّفة عند الجغرافيين في الجهة الأخرى، أقرب إلى الساحل والصحراء. واليهود متغلغلون في الأطلس المتوسط، من سكانه لهم فيه نسل وعيش وتقاليد.

وبينما أنتظر في الصحن سمعت تراثيل كنسية، كنت سمعتُ

مثلها لما أخذني الفضول يوماً فدخلت كنيسة الشهداء القديسين
 بمراكش، تقع بحيّ جيليز، قبالة مسجد جيليز بالذات، لفتت نظري
 بالنظافة في مدخلها والأشجار الباسقة مع نخلات ذي سعف طويل
 بداخلها ينشر ظلالاً واسعة، ويحيط بها سور يحميها ويعلوها
 جدرانها الأربعة عبارة عن ثلاث نوافذ طويلة بتقاويس، وذات
 ساريتين، في قمّتها مثلث بقرميد أخضر يرتفع في أعلاه من الوسط
 صليب، ولا أكتّمكم شعرتُ بهيبة مثل ما أشعر به الآن، وزدّت
 رهبة انجلت لي سجادة كبيرة على يساري في وسطها صورة راهب
 فوق رأسه إكليل وبيده كتاب يقرأ منه على حواريين يستّمون
 القديسون الأرثوذكسيون، يقفون في محيط دائرة مرسومة حوله
 بهيئة مَنْ يستمعون إلى أقواله بخشوع. رغم أنّ الكلمات في الكتاب
 حُطّط بحرف صغير عاندت بفضولي اقتربت أكثر أحاول تمييزها،
 فطالني العجب لا بدّ يطولكم، أقرأ عنوان الصفحة: «سيرة القديسة
 نونة هادية بلاد الكرج، رسولة الأكرج أو الجيورجيين» وجاء في
 السيرة أنها ولدت في بلاد الكبادوك، أبوها اسمه زبولون من القادة
 العسكريين في عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير. عُرف عنها أنها
 تربّت على محبة الله وحفظ وصاياه. وحين كبرت وقعت في أسر
 الإيريين، وهم الأكرج، أخذوها إلى بلادهم، وهم يومها وثنيون
 ومن عبدة النار. في أسرها لم تفارق نونة دينها وبشّرت بالإنجيل
 مواظبة على الصلاة وسلوك الفضيلة. شاءت صدفة أن تجعل منها
 قديسة لما أعييت الحيلة امرأة عن مداواة ابنها المريض فجيء به
 إليها، وعندئذٍ أفهمت معشر النساء أنّ المسيح وحده قادر على
 شفائه فتضرّعت إلى السماء وشفّي الابن، فشاعت معجزتها
 واتّسعت أكثر لما نُقلت إليها ملكة الأكرج لم ينفع مع مرضها

علاج، دَعَتْ لها باسم ربها فبرئت وصارت في منتهى العافية. ما أذن بتخلي الشعب الأكراجي عن وثنيته والتحاقه بالمسيحية، واتصال ملكه بقسطنطين الكبير يلتبس منه أن يرسل إليه قديسين من دينه ليفقهوا شعبه وينيروا له طريق الخلاص، وكذلك كان. وإذا عجبت لهذه المعلومات وجدتُ فيها ما يناسب صورة صاحبة هذا المكان، من هيئة ولسان، وبما يحيط بها من ألغاز، لكن، ماذا حلَّ بها في النهاية أقصد مع الشعب الأكراجي؟ من حسن الحظ انتبهت لظُرّة تحت الصورة الدائرية للكهنة قرأت فيها الآتي: «بعد بلوغ الخلاص، انتقلت القديسة نونة إلى هداية جماعات بربرية في الجبال تعيش حياة السكينة.. وفي كلّ عام تُقيم لها الكنيسة الأنطاكية عيداً في الرابع عشر من شهر يناير».

وجدتُ مفتاح اللغز. هي هنا مع جماعات البربر، وعلامات أخرى تنطبق عليها. إنما لا يمكن أن تكون هي، أعني أنّ الموجودة حالياً من الحفيدات، حافظت على السلالة والاسم والدين أيضاً، بخاصة ونحن نعلم أنّ الكنيسة بمدارسها المختلفة وصلت إلى بلاد الموغريب وحاولت أن تتغلغل إلى أعماقه وجباله في عملية تنصير واسعة، بمخططات منسقة مع الاستعمار، لكن الإسلام كان أقوى منها ففشلت خططها في التنصير والتبشير بوسائل شتى لم تفلح مع السكان الذين وإن لم يكن قسم منهم عرباً فإنهم تشبّثوا بدينهم فبقيت بعض البعثات والأديرة معزولة تمارس طقوسها بحرية وإن لم تتخلَّ عن سعيها لتمسيح السكان. وهذا الطابور الذي يصعد إلى الجبل هو إذاً يوم عيدها، ومَن يهفون إليها لهم مطالب يؤمنون أنها قادرة على الشفاء والاستجابة أسوة بجَدَّتِها التي لا

يعلمون عنها شيئاً. أي دهاء، إذًا، لدى هذه المرأة لكي تواصل تاريخاً منشأه في القرن الثالث الميلادي، أي سحر ميين؟!

أخرجني من هذا الوسواس صوت هادئ وعميق، شخص أمامي بهيئة آدمية تمثلت في شيخ مهيب الطلعة، أبيض الشعر، خفيف لحية، أشقرها بحمرة حناء، يرتدي جلباباً من صنع بزو، ويغطي رأسه بعُصبة صفراء، قال أهلاً سي سلام ومرحباً في المحراب النوني العالي بالله. انحنيتُ له وشكرت. واصل، علمنا، و«ربكم أعلم بكم» حُبَّكم التعرَّفَ على هذه الديار، وإقامتكم بها في الموضع الذي أنتم فيه خصوصاً بالنهار، وحيث تنقلتم، وكيف تخفيتم عن الأنظار، وما تنصرفون إليه في الخفاء من ترديد أوراد وقراءة أذكار، ممّا هو معهود عن الأخيار، وبلغنا حرصكم على جمع الأخبار، وأنكم تحضرون مصنفاً بعنوان: «الاستغفار في عجائب الأمصار وما شاهدناه خاصة في بلاد نون وما جاورها من ديار»، قد انتهيتم بعد تفكير إلى قرار أن لا قيمة لتأليفكم لا تحضر فيه مولاتنا نونة جوهرة وفتنة النُّظار، أوليست مَنْ سَحَرَتْكم، وبُحْسِنَهَا كَبَلَتْكم، ومن القاع إلى جبلها شَدَّتْكم، فنسيتم حالكم وما جاء بكم وبأهدابها تعلَّقتُم، ولم تخافوا من هنية إنْ هي نَبَذَتْكم، وسِرُّكم لدى أعوانها تكشفه فتفضحكم، هكذا تزعم في غيابكم، وإنْ تظاهرت يسُرُّها حضوركم، وهي واهمة تقارن جسدها البالي بسيدتنا المغناج، جسدٌ من لُبَّان وعاج، حاشا أن يشوبه ضرٌّ أو اعوجاج، مَبَسَّمٌ يفتَرّ، خَدُّ جُلَنار، جبين أغرّ، فكيف إذ يعلو الرأس تاج، وتقعّد أنت يا مسكين في ركنك القصي والليل داج، نرنو إلى شعاع عسى يبين وقلبك في

هياج، لا شيء يسليك، أو يطفئ الغلة، الزلال إن دقته أجاج،
تحيرت، وتلعثمت، بعد أن شككت في عروشنا، ندمت أفضل
لي لو بقيت في تلك الفجاج، وها هي بعد أن طال عذابك،
واستفحل مصابك، ما هان عليها وعلينا أن تلقى جزافاً وبالك،
فاجتمعنا رافئة بك، ولما تحمل من قرآن في صدرك، وبما تزعم
وصلاً به أنك من أهل البيت يفديك، وقررنا أن تسلسل لك
قيادها ونرفع عنك وزرك؛

نعم، بشرط أن تنجح في اختبار سبقتك إليه غيرك، فلست
أول عاشق لها هلك، سورة نون امتحانك، أمامك هيئة من
العارفين والمتبحرين في علوم القرآن، فهيت لك!

- ما الحكمة في حرف نون؟

- من الحروف النورانية، هي أربعة عشر حرفاً.

- وماذا أيضاً؟

- النون آخر الحروف ترتيباً في المصحف الشريف، إلا أنه
نزل أولاً لحكمة ربانية.

- هذا من حيث الشكل، وماذا بعد؟

- قال تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وهي

مقترنة بالنون في سورة القلم.

وما المراد بقول (نون)؟

- النون لغة يا سادة هو الحوت، جمعه أنوان، ونيان، كما

جاء في الصحاح، ولسان العرب.

- هل لك ما تستشهد به حجة على صحة هذا الاسم؟

- أجل، وأطرق سلام في هيئة من يتفكر. . أجل يا سادتي،

يحضرني قول بشار بن برد:

«تَلَاعَبُ نِينَانَ الْبَحُورَ وَرَبِمَا - رَأَيْتَ نَفُوسَ الْقَوْمِ مِنْ جَرِيهَا
تَجْرِي»

- أليس عندك مثالٌ غيرِ شعرِ هذا الزنديق؟
- بلى، عندي، قوله عَزَّ مَنْ قَاتَلَ فِي مَعْنَى النُّونِ وَعِلَاقَتِهَا
بِالنَّبِيِّ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا﴾ (الأنبياء
87). وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ (القلم 48)،
وقوله تعالى كذلك: ﴿فَالْقَمَّةُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (الصافات 142).
- أحسنت، حبذا لو كنت أضفت إنه: «حوت عظيم، وهو
حامل للأرضين السبع».

- والآن، ماذا تقول في علاقة النون بالقلم، هل كل واحد
مفرد، أم ثمة من اشتراط؟

- أيها المجلس الموقر، ما أنا إلا طالب بسيط، لم أتبحر في
العلوم الدينية بقدر غوصكم وأفهامكم ولا أنا من مقامكم، أخشى
إن غامرت في هذا المبحث من الزلق، فاعذروني أو خذوني على
علاتي، ولا تحاسبوا زلاتي، سأروي لكم فقط بعض محفوظي
جملةً وتفصيلاً:

«...» عن ابن عباس قال: إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَ رَبِّي عَزَّ
وَجَلَّ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ اكْتُبْ. فكَتَبَ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ نَقُومَ
السَّاعَةَ. ثُمَّ خَلَقَ النُّونَ فَوْقَ الْمَاءِ، ثُمَّ كَبَسَ الْأَرْضَ عَلَيْهِ. وَرَوَى
الطَّبْرَانِيُّ مَرْفُوعاً مُتَسَلِّلاً فِي السَّنَدِ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ، قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَفَ اللَّهُ الْقَلَمَ
وَالْحَوْتَ، قَالَ لِلْقَلَمِ: اكْتُبْ، قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: كُلَّ شَيْءٍ
كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ثُمَّ قَرَأَ ﴿تَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فالنون:
الحوت. والقلم: القلم».

هنا تدخل حاضر من فقهاء المجلس يستفسر كبيرهم:

- ماذا لو أخبرتنا يا حاج بتفصيل عن الحوت العظيم الذي تحت الأرض السابعة، لا أحسبك وأنت أعقلنا تروي كلاماً في هذا المقام على سبيل التفكّه، ولا هذا الطالب المسكين أهل له:

- حاشا، يا حاج بن زكري، فإني أستند إلى ما ذكر البغوي وجماعة من المفسرين، أنصتوا رحمكم الله، فهي قصة طريفة ومن ورائها فوائد جمة:

«إن على ظهر الحوت صخرة سُمِّكُها كغِلْظ السماوات والأرض، وعلى ظهرها ثور له أربعون ألف قرن، وعلى متنه الأرضون السبع وما فيهن ما بينهن فالله أعلم. ومن العجيب أنّ بعضهم حمل على هذا المعنى الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا حميد، عن أنس: أنّ عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله . صلى الله عليه وسلم . المدينة، فأتاه فسأله عن أشياء، قال: إني سائلك عن أشياء لا يعلمها إلّا نبي، قال: ما أوّل أشراف الساعة؟ وما أوّل طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه؟ والولد ينزع إلى أمه؟ قال: أخبرني بهن جبريل آنفاً». قال ابن سلام: فذاك عدو اليهود من الملائكة.

قال: «أمّا أوّل أشراف الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأوّل طعام يأكله أهل الجنة زيادة كبد حوت. وأمّا الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت».

توقف وأشار إليّ، رأيي أتملّل في جلستي، كنت جلست، هاه، كأنّ عندك ما تزيد وتفيد؟

- أي نعم، يا حاج، يا أسيادي، سمعت أيضاً أنّ (ن) لَوْحٌ

من نور، وقلم من نور. كما قيل: المراد بقوله (ن) دواة، والقلم الدواة.

- لا بأس، أجوبتك عموماً مقبولة، ولا نريد أن نمضي بك أبعد في السؤال، لا تحسبن أننا نقصد إلى تعجيزك، قد بذلت ما في وسعك من أجل مُرادك، وسنغادر الآن لتداول في النتيجة، لا نعرف كم يقتضي منا هذا، ثم نُحيل على سيدة هذا المقام جوابنا فتنظر فيه، لا نعلم كم يقتضيها النظر، إنما -وسألني الحاج بن زكري فجأة- كيف فاتك أن تُشير إلى الحاجة نونة في حديثك وشروحك؛ ألم تجد شعرة واحدة تربط اسمها بكلّ ما رويت، ما كلّ هذا الإنكار؟ ما هذه الغفلة؟ ما هذا الجحود؟ لو نبست باسمها مرة واحدة كنّا حملناك تواءً إلى مخدعها، أو تجهل أنها متّيمة باسمها، تعبه، ها أنت تخيب أملنا وآمالها، اعلم لن تهتك سرّها، وعذابك أن تفنى بحبها!

- 36 -

- يا رجل، أين اختفيت، عادتكَ تمرّ بعد الظهر لشرب شايك عندنا جاء من يبحث عنك، وكاد يقدم مكافأة لمن يجدك؟! انتظر طويلاً واضطرّ للانصراف، قال لا يريد أن يفوته موعد إقلاع الحافلة إلى مراكش. التّحقّ به إنّ شئت، معه شغل مهم معك، ترجّاني أن أدّله على مكانك، ضحكت، فلم يفهم؟ هه، حمان، مكانه فوق سرج دراجته، هه! أعطاني خمسين درهماً، ها هي ورقة جديدة، ولم أكن عرفته من قبل، ما هي علاماته؟ لا أذكر، منذ وصل وهو يدور كالخذروف فلم أرّكز على وجهه، ولا شرب شاياً

دعوته إليه، من أجل خاطرك، ولا كأس ماء، والو! هيا التحق به، ستجده عند مدخل المحطة الطرقية، أخبرني أخيراً أنه سيعود من حيث أتى، سينتظرك دقائق قبل مغادرة الحافلة إلى مراكش، ألح، قل له هذا.

اعتمدت كلام علوط بجذ رغم عبثه وانسطاله أحياناً يجره إلى الهرف والأكاذيب. لم يكن ليمزح معي يعلم مكانتي عند معلّمته هنية، أوصل إليها رسائلها الشخصية بتكتم. صدّقته، وها أنا أركض باتجاه المحطة، تتبعني العيون تراني لصاً هارباً من ملاحقة. أعطاني علوط خبراً واحداً، مفيداً، عن السائل، أنه يرتدي جلباباً أصفر قماشه مهلهل، وعمامة صفراء، هو سيعرفك على ما قال من هندامك لو التحقت به، تذكّرت الآن أن الرسالة الموعودة ستصل قريباً جداً، لا كما يصل إليّ البريد المعتاد، هذه ستُسلّم إليّ يداً بيد، بواسطة مبعوث، إليّ أنا المؤتمن الوحيد على أسرار سكان هذه البلدة الملعونة، ما ذنبي لأتحمل هذه المسؤولية؟ وصلتُ ألّهت ككلبي إلى المحطة الطرقية وزعت نظري في أنحائها، وإذا خمسة على الأقل ينطبق عليهم النعت الموصوف، فيمن أبدأ؟ تردّدت، خفت أن يستهبلني أحدهم، اقتربتُ من أوّلهم، قلتُ أسيدي أنت هو. . قاطعني، الله يسهّل، عدّني متسولاً، والثاني كذلك، والرابع ردّ بخشونة قلنا لك الله يسهل، والأخير باستسلام، زاد يقول مؤكداً خبيتهم مني: الصبر وحده فرق بيننا! عدّني، أيضاً، متسولاً، أجبني بدوري مستسلماً ما كاين باس، كلنا واقفين على باب الله. لما طالت حيرتي وشعرتُ بالخيبة توقف في ظلّي، والشمس فوقنا باهرة الضوء، شخصٌ يلبس الهندام الموصوف من طرف علوط، فحصته على وجه الدقة فتفاءلت، يختلف طفيفاً في

أَنَّ عَمَامَتَهُ بِيضَاءَ. رَبَّتْ عَلَى كَتْفِي، يُطْمَثْنِي أَنَّهُ اخْتَلَقَ هَذَا الْخَلَطَ لِيُضِيعَ فِي الْجَمْعِ، وَبُعْدَ أَثَرِ أَيِّ مَثْنٍ يَتَعَقَّبُهُ حَقِيقَةً أَوْ افْتِرَاضاً، ثُمَّ يَلْتَفِتُ حَوْلَهُ يَتَشَكَّكَ فِي جَاسُوسٍ قَرِيبٍ، لَا تَقْلُقْ، أَنَا رَجُلُكَ، وَالْأَمَانَةُ بَيْنَ يَدَيَّ. انْتَقَلَ يَمْشِي أَمَامِي إِلَى أَنْ انْزَوَيْنَا دَاخِلَ غَرِيفَةٍ بِهَا حَصِيرٌ، مَخْصُصَةٌ لِلْمُصَلِّينَ، جَلَسْنَا وَمَدَّ يَدَهُ يَفْتَحُ حَقِيبَتِي وَيُخْرِجُ مِنْ خَلْفِ جِلْبَابِهِ، بَعْدَ أَنْ حَشَرَ يَدَهُ دَاخِلَ صَدِيرِيَّةٍ، مَظْرُوفاً أَوْدَعَهُ بِدَاخِلِهَا، حَذَرَنِي لَا تَجْرِبْ فَتَحَهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ مَخْلُوقٌ مَهْمَا أَغْرَانِي أَوْ تَوَعَّدَنِي، هَذِهِ أَمَانَةٌ، وَخِيَانَةُ الْأَمَانَةِ ذَنْبٌ عَظِيمٌ تُعَاقَبُ عَلَيْهِ فِي الْأَرْضِ وَفِي السَّمَاءِ، دَعَكَ مِنْ عِقَابِ الْإِيَالَةِ فَهُوَ شَرٌّ مُسْتَطِيرٌ، فَكُنْ مِمَّنْ قَالَ فِيهِمْ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُؤْتُونَ بِالْذِّكْرِ وَنَحْنُ لَا نُؤْتِيهِمْ يَوْمَآ كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾؛ وَالْآنَ، هِيَ ذِي الشَّرُوطِ، تَلْبِيهَا حَرْفاً أَوْ تَطْيِيرَ الْبَرَكَةِ، فَاهُمْ؟!

- أولها، أَنْ أَتَجَنَّبَ الْاِخْتِلَاطَ بِالسَّكَّانِ مَدَّةَ 24 سَاعَةٍ، مِنْ هَذِهِ اللَّحْظَةِ إِلَى الْغَدِ؛

- أَنْ لَا أَتَّقُ فِي أَحَدٍ، بِمَا فِيهِ نَفْسِي، وَالنَّفْسُ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ؛
- أَخِيرًا، أَنْ أَخْتْفِي مِنَ الْآنَ.

لَا شَكَّ هُنَاكَ مَنْ يُرَاقِبُنَا عَنْ بُعْدٍ. الْإِشَاعَاتُ سَتْسِرِي مِنَ الْآنَ كَالْعَدُوِّ. انْظُرْ ذَاكَ الَّذِي يَتَظَاهَرُ بِالنَّوْمِ دَاخِلَ الْحَافِلَةِ، هُوَ يَلَا حَقْنِي مِنْذُ مَجِئِي مِنَ بَابِ الْخَمِيسِ بِمَرَكَشَ، وَبِالْمَرْصَادِ فِي الْإِيَابِ. وَهَذَا، أَلَيْسَ هُوَ نَادِلُ سَيِّدَةٍ هُنَا تَمْلِكُ مَقْهَى بِمَدْخَلِ الشَّارِعِ الرَّئِيسِ، هُوَ نَفْسُهُ مَنْ سَأَلْتَهُ عَنْكَ، وَعَيُونُنَا تَتَعَقَّبُهُ مِنْذُ أَيَّامٍ وَهُوَ يَقْتَفِي أَثَرَكَ، يَتَوَقَّعُ تَوْصُّلَكَ بِخَبَرٍ أَوْ لِقَاءِكَ شَخْصاً مَهْماً، هُوَ مَكْلَفٌ مِنْ طَرَفِهَا، إِيَّاكَ تَزُورُهَا اللَّيْلَةَ، إِنْ فَكَّرْتَ أَنْ تَخْلُوَ بِهَا بَعْدَ أَنْ تَرْمِي عَلَيْكَ شَبَاكُهَا، تَعْرِفُ ضَعْفَكَ، فَسَتَعْبِثُ بِكَ. وَالْقَايِدُ السَّغْرُوشْنِي، دُوَّخُهُ

إذا لاحقك. أفضل طريقة هي أن تدسّ جسدك في النفق، ما زال عمّال المعلم لمباركي يواصلون فيه الحفر، إنهم يقتربون من النهاية، عليهم أن ينتهوا، ولكنهم حائرون، عملهم مرتبط بالرسالة، وإن كانوا لا يعلمون بسرّها، هم مساكين، مستخرون، لو كانوا يعرفون حقيقة وغاية ما يعملون لؤلؤا هارين، ولفضّلوا جهنم على هذا المصير. أمّا أنت فأحسبك لا تخاف. انزل داخل النفق، تستطيع أن تتسلّل إليه من أيّ ناحية تريد، ها أنت ترى الشريط الطويل، الطريق مغطّاة بالتراب وظهرها أصبح حديّة من تراب، والعباد هنا يمرّون فوقها ويستغربون كيف أنّ الأرض تعلو كلّ يوم، كيف ولماذا، وقصارى ما فهم بعضهم وقد رأى أمشاج لحم وعظام، لا تعلم هل يتجنبون الفهم قصداً أم منهم قصور. جاء إليهم من بعد استشارة إمام صلاة الجمعة، نهرهم ووعظهم، أوتكفرون، كيف لا تهتدون، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾، فتخلوا عن السؤال في الأخير بالفهم ومن دونه، حذرهم الإمام إياكم والشرك بالله. أمّا أنت فتظاهر بالموت كأنك من الرّم، ومع شروق الشمس تخرج وتنظف حالك، ثم تفتح حقيبتك وتقرأ الاسم الذي على الظرف، وتتوجّه إلى المرسل إليه مباشرة وتسلمه الأمانة، فإن سألك لا يرى عليه طابع بريد ولا ختماً ولا تاريخ إرسال، تُجيب العلم عند الله، وتنسحب في الحين، ستال الترقية التي طالما طمحت لها، تريد الالتحاق بأغادير قرب خليلتك، حاجتك مقضية. وفجأة اختفى الرجل ذو العمامة البيضاء، ظهر أمامي جمعٌ يرتدون كلهم عمامات بيضاء يلغطون مستنكرين غلاء الأسعار، فانتهزت الفرصة أنسحب بعيداً عنهم بحذر، ظننت أنهم فجأة ورائي يركضون!!

كان بوعمامة، حامل الرسالة الغامض، على حق. ذرو
الجلابيب الصُفر ورائي، وأنا أحرّك ساقي بأقصى طاقتي فوق
الدراجة، سلسلتها صدئة: زبط زبط، ولكن إلى أين؟ ظهر لي
الطريق الممتد مغلقاً في أفقه، يُغطيه ما يشبه سحابة سوداء. هي
نقطة مقهى هنية، مرّرت أمامها فوجدتها تقف بهيئتها متحفزة مع
رجال أعرفهم هم من أتباعها، بينهم رجل وامرأة لم يسبق لي أن
رأيتهما. فكّرت، هذه هنية كلّ يوم تجمع نفراً جديداً، كأنها
ستؤسّس حزباً أو تريد أن تأخذ مكان القايد. لا، بلى رأيت الرجل
والمرأة في مكان ما، إنما أين؟ تجاهلت لَمّا لوَحِث لي، فلاحقوا
بي، زدتُ ضغطاً بساقي تدور سلسلة الدراجة بأقوى ما أملك حريصاً
على جعل حقيبتني لصق بطني، أتخيّل الأيدي ممدودة إليها لتتزعجها
وتختطف الأمانة، عندئذ سأضيع، مُحِقٌّ بوعمامة في تحذيره، كأنه
مَن رسم خطّة ما يجري الآن، ويتوّعدني بشرّ مستطير؛

الآن أغافل المطاردين هنا في مستديرة تقاطع شارع الحاكم
بالله العاصمي بشارع المنصور بالله، حيث ينهض في الوسط مبنى
مفوضيّة الأمن المركزية، تربض في مدخلها سيارات رباعية الدفع
نزل منها للتو شرطةٌ بهندام أزرق وخوذات، وبأيديهم بنادقُ
وزراويط، وهم ينتشرون ويشيرون نحوي، وإلى لمن يهرولون
خلفي، صراخهم يسبقهم: هو! هو! هو! تعجّبت لَمّا ميزت بينهم
القايد السغروشنّي الذي يُفترض فيه حمايتي والحفاظ على أمن
المنطقة، فهمت لماذا حذّرتني بوعمامة من الجميع، لا منجاة لي
أخيراً غير ما وجهني إليه، تحايلٌ عليهم واهِطُ النفق، إنما قوُ
نفسك، ستزكّمك الرائحة وتلفظ أعاؤك قيئاً، تصبّر وستعود، أن
تكون مع الموتى أو أشباههم خيرٌ من أن ينهشك الأحياء.

عجبت وقد هويتُ في حفرة مع دراجتي أني صرتُ أنزلق
وأندحرج فوق أكوام لحم ربما هي أجسادٌ بشريةٌ، ربما حيوانيةٌ،
ففي العتمة المستفحلة لا نقشع شيئاً. عجبتُ أكثر كيف لم أتبيّن
هذا النفق من قبل، أنا الذي يتفادى الحفر والحصى حفاظاً على
عجلتي، كيف في الحقيقة لم يشغلني أمره وأنا دائم المرور من
تقاطع الشارعين، ثم عجبت زيادةً لِمَ هذا الحفر هنا؟ ولمَن هذه
اللحوم أو ما يشبه الأجساد البشرية أو ربما بقايا حيوانات منقرضة؟
نعم، فقد سمعتُ أنه تمّ اكتشاف أقدم ديناصور في أرض
الموغريب، ربما توجد ديناصورات أخرى هذه البقايا منها، عجباً
وفي بلدة لم تشهّد منذ زمن أيّ حادثة ولو حادث سير، السيارات
فيها قليلة، ولا حافلات للنقل العمومي خارج ما يصلُ إلى
المحطة، والبشر هنا يمشون على الأقدام، وشبابهم يهوون رياضة
الهرولة، يمارسونها طمعاً في الفوز ببطولة تُخرِجهم من الفقر،
ولأنها البطولة الوحيدة المحتمّلة في مكان منزو كهذا بين العبال،
ولا يدخل في أيّ مخطط ممّا يشمل معظم تراب الحاكمية العظمى،
أم هذه الأجساد يا ترى ل...، هل...؟

هي بلدتي، فما بالي كأني أراها للمرة الأولى. هل هي
غشاوة على عيني، على أعين سكانها، أم صحيح ما تروّجه هنية
من أنّ تلك السيدة الغامضة، القابعة في قبة الجبل، تُلقني من
علوّها في الجبل على البلدة أتربةً وبخوراً تُعمي الأبصارَ والبصائر،
آخرها أنها سحرت سلاّم المسكين، لم يُعدّ يظهر له أثر، أم تكون
طيرته إلى جزيرة واق واق؟ مع هذا الوسواس استفاق. هنا انقطع
نفسه انقطاعاً حسب أنه سيُسَلِّم الروح إثره، ضرب يده برأسه كيف

لم أفكر في هذا من قبل أم إنها بداية الألزهايمر. ترتعش أطرافه، ويتخبط فوق الرَّمَم منها ما يصدر منه أنين، منها ما يستغيث، منها من يردّد الشهادتين فيه بقية حياة، منها المحتضر، منها من يموء، ينبح، يعوي عواءً طويلاً، مديداً، صارَ عواءً في ليل طويل، ليل يطول، فعلاً، شيئاً فشيئاً يستعيد ذاكرة ظَلَّتْ منزوية في ركن خفيّ، وها الفرصة تأتي لتستيقظ من طول سبات، إنه يستعيد الآن في مشاهد متقطعة ما جرى في تلك الحوادث وسبب ما يرى، تحضر كثيفة، مروّعة، القوة التي حضرت من خارج بلدة نونة وصلت مسلحةً حتى الأسنان، ولَمَّا نزلوا من شاحناتهم هاجوا وحوشاً يطلقون النار على كلّ متحرّك وساكن، بما في ذلك الكلاب والقطط والدجاج العابر للأزقة، وفلّت بأعجوبة أنت ساعي البريد لأنّ يدأ سماوية وَقَفَتْك وسحبَتْك شيئاً فشيئاً إلى أعلى، رأيتك تخرق الأدغال، وتصل أخيراً إلى أجمة في الجبل المُشْرِف على البلدة، ويبد جريحة تُخرج من حقيبتك الجلدية المهترئة المظروف الذي سلّمك بوعمامة وتقدّمه للمرسل إليه، هي وحدها التي جاءت في خاطرك، لئلا نونة يريدها الكبير، هنااااا!

- 37 -

من مكاني القصي في زاوية من المقهى. أصبح عليّ الصباح مختلفاً. الطاولات مصفوفة، لا تزال عليها بقايا طلبات أمس مهملة. لا ظهرَ النادل علوط، أوّل من يبكر، ولا المعلمة هنية، كذلك زهيرو خادمتها. أمّا قبالي، فالطريق الطويل مقفر. لا من عابر. إلّا ريح خفيفة فيها أوراق شجر تُرى تتطاير من بُعد. لولا

هذه الريح لقلت من شدة ثبات ما أرى إني في مدينة النحاس .
ليست أسطورة، بل ها هي أمامي حقيقة مبدولة للعيان، أنا لها
الراصد الوحيد، شاهدٌ على وجود، حتى إني، من وسواسي،
تلمستني أتحتس ثيابي، وأجس أطرافي لأدفع عني شبهة أني
أحلم، فكثرة عشتي مع الحكايات جعلتني أحياناً أخلط الخيال
بالواقع، فأتصورني أطيّر وأنا أمشي، وفي الصين، وصلتُ إليها مع
ابن بطوطة، كما زعم، بينما أنا واقف على قبر المعتمد بن عباد
المهجور في أغمات، أذرف الدمع على هذا المصير البائس، وغير
هذا من المخلط، كثير .

قلتُ أتحقّق، فذرغت الباحة، ودلفت إلى الداخل حيث
المطبخ. لوازم إعداد الشاي هي، هي. لا موقد بجمر يحمى. لا
ماء يغلي. ناديت بالأسماء فارتدّ ندائي إلى أصداء متكررة، كأنني
بوادٍ غير ذي زرع. خطواتٌ أمتاراً أبعد عن الباحة. تأكّدت، لا بشر
ولا طير، فاحتدم قلقي. قلتُ ها السحر يرتدّ على الساحر، ليس
ظلماً أن أتهم بالشعوذة، ها أنذا غارق فيها. جئتُ من بعيد لأجمع
حكايات الناس وإذ بي في قلب الحكاية، من أبطالها، وبتُ أحتاج
نفسي لمن يُسلس لي القياد يفلت مني، أحتاجُ أن أجدَ مَنْ ينوب
عني في السرد ويواصل ما تبقى من أطوار الحكاية، إن ثمة بقية. لا
يمكنني هجر الحكاية الآن، أو سأهجر معشر الجمهور المحيط،
المتعطّش، أرى عيوناً مشدودة وأسماعاً معلقة، إن انصرفت عنها
ستهجرني إلى الأبد، فتسوء سمعتي في الساحة، وتبور بضاعتي،
ها هو منذ جلس ما يكفّ يطالبني بأخبار كبور ويطو، ماذا جرى
لهما يا سيّ سلام، هذه أيام وأنت تحكي، بدأت بقصّتهم ونسيتهم

تماماً ونحن ما نسينا، وأنت قلت فكروني الله يفكركم في الشهادة إذا غفلت على شيء واحد من الأبطال، أو أرجع لنا فلوسنا، العنوا الشيطان يا جماعة الخير! فكّرت أنّ هذا المحتج بعثه من يريدني أن أهرّ قلاعي من الساحة، لأمر ما يُضايقه ما أحكي، فاستدركتُ بالحيلة وطيبة اللسان: سبحان من لا يسهو ولا ينام، لا بد سترجع لحكايتهم، إنّما لنحلّ الآن ما أنا فيه من ورطة، الله يرحم الوالدين.

أنا من لم يعد لي بعد الخراب الذي لحق الدار البيضاء منذ عام 1981، ويستمرّ، مكان قارّ يؤويه، ولا مخدع، ولا حبيب يحضنه، وتبوح هنية أنا حضنك يا لحبيب، رغم حاجتي لها لست مغفلاً لتوقعني في شركها، لها حسابها، ولي حساب مع كلّ اللاعبين في هذه الحكاية، هو ما ينبغي أن أواصله، فأني ورطة أنا فيها وقد هجروا الحلبة، الطريق قفر، إلّا، إلّا.

انظروا - وأنا أتوجّه إلى السّميعة في حلقتي - هذه القصة مني، وقد تكون لي ولغيري، فانتبهوا جيداً حفظكم الله، فقد كثر الخلط هذه الأيام، أرى هذا القادم مترنحاً كالمهبول، أراه يقصدني بخيط جسمه النحيل كحرف الألف، يتعثّر ثم يستقيم واقفاً، تحسبه سكران وما هو بسكران، عيناه لا تستقران على موضع، ولسانه يسأل كمن يتوجّه إلى شبح:

- ماذا وقوفك يا سلام؟

- ها، وتعرف اسمي أيضاً؟ كيف لا أعرفه وأنا من ينقل بريد البلدة كلها، صحيح، لا تصلك رسائل، إنّما أنا هنا مستودع الأسرار، وفراستي لا تخطئ، مذ وصلت عرفتُك تتصيد

الحكايات، أنا أشبهك، لكنني أثرتُ أن أتركك لمصيرك، ها، أنت في ورطة، ضاع منك الخيط، وهجرَكَ أبطالك، ومَن بقي يهدّدونك بالكمال، والكمال عند الله، لا مهرَب لك بعد اليوم، ولا مكان للنجاة، لكلِّ واحدٍ منا يوم حساب، ويومك أنت حلٌّ لكثرة ما بعثَ ونشرت من بهتان، أما الأرض فحولك خلاء، لم أتأمر عليك، الرسالة هي السبب، صحيح أنك غير معنيٍّ بها، أمرها تقرّرَ قبل وصولك، وهي خارجة عن إرادة المعلم لمباركي -إياك أن تكون قد نسيت المعلم، كما نسيت كبور ويطو. المهم، هو الكلّ في الكل- الرسالة وصلت أخيراً، ومعها سينعقد الفصل الأخير الذي لا ينبغي لك أن تضيعه، ربما تحدث فيه أهم المفاجآت، قد تتغيّر القصة رأساً على عقب، لا، لن يموت أحد، فهذه البقعة من الأرض شبت موتاً وأنخمت موتى حتى أنك تحسب مَن يمشي فوق ترابها أشباحاً موتى في صفة أحياء، وهم كذلك، ولذلك نحتاج إلى الفصل الأخير كي ننشئ الحياة.

انكفأ ساعي البريد راجعاً على عقبيه فسرت أتبعه، فهمت ذلك منه. سيُطلعي لا شك على غرابة ما حدث ولا عِلْم لي به. هو وحده يعلم السرّ، وأنا -أيّ سخرية ومفارقة- ساردُ هذه الحكاية، مَن يُفترض السميع العليم فيها، أجهل تحولاً أساساً يقع فيها، وها هي شخصية تفودني بدل أن أكون سيدها، قلت هذا ممكن لِم لا، ففي أيامنا أصبح كلّ مَن هبّ ودبّ تتوحوح أنها بردانة شاعرة، ويرطن مفكراً، ويثرثر قاصّاً، ويهترف روائياً، ويتشجج مناضلاً وحقوقياً وماذا أيضاً، أريد أن أتذكّر تلك التسمية العجيبة، نعم، حضرت، فاعلاً جميعاً، بوجمعويّاً، لا، فاعلاً جمعويّاً، هكذا

ينطقون بها، مَنْ هم؟ كثير، ما لا يمنع شخصية كساعي البريد من هذا الادعاء الصلف، وأمسي أنا المعني بالأمر مجرد تابع لظُلِّ أنا هو صانعه.

تجاوزنا ملتقى الطرق، ينتهي إليه ما ظهر لي حشداً لا أرى من أين يبدأ، سألته هل هي مظاهرة يا... اسمي حَمَان، يا سي حمان ما هذا، أنت مدفن الأسرار؟ قبل أن أجيبك اعلمُ أنني منذ سلَّمت الرسالة إلى صاحبها، أقصد صاحبها المُرسَلَة إليها، شاع ما فيها رغم أنني سلَّمتها يداً بيد، قاطعته، مَنْ تكون هي؟ كيف أنت هنا منذ وقتٍ ولم تسمع بها، تُزايد لتسلَّ لساني أكثر، المهم، لا أستبعد أنها هي مَنْ سعت لتسريب الخبر، أولاً، والمحتوى، ثانياً، وجلَّبت على نفسها، والبلدة كلّ هذا الضجيج، هي أسيدي لِّلَا نونة، أو الحاجة نونا التي تشع أنوار قُبَّتْها في أعلى الجبل، وأنت لم تُكُن تحلم في جلستك بالمقهى ليلاً، بل هي أنوارُ تتلألًا وتنتشر وتنعكس علينا. - طيب الخبر خبر، الأهم ما المحتوى يا فهم، كل الصيد في جوفه؟

- اطلُب الشكلَ أولاً، فهو وعاء المحتوى، وسلني أنا، هي مهنتي، كيف أقدر الظرفَ وأعرف قيمةَ مُرسِلِه والمرسلَ إليه، من ناحية نوع الورق، وطريقة الخط وهندسته، أكاد أتسرَّب إلى مضمونه من غير أن أفتحه؛ الشكل بعد هذا، اعلم حفظك الله، أنها رسالة واردة من الحاكمية العظمى، شخصياً لا مكانةً وعُلُوَّ مقام فقط، وهو ما لم يحدث أن شَهِدته هذه البلدة، خاصة بعد الولايات التي جرَّتها عليها حوادث مولاي بوعزة، إيَّاكَ أن تنكر هذه أيضاً، والمحتوى هو الشكل عينه، نفصِّله لك في الآتي:

- أولاً، أن تسافر المدعوة لِّلَا نونة إلى مركز الحاكمية بعد

أسبوع من هذا الإبلاغ، شريطة أن تقلّم بمفردها، وتبقى مغادرتها سرّاً إلى أن يصدر بها بلاغ أو كتاب يصلُّ إلى قائد هذه المنطقة من طرف مَنْ يعنيه الأمر ويتوجّب عليه الإبلاغ؛

- ثانياً، أن تكون قد ألّمت بجميع ما في خواطر السكان وعقولهم، كبارهم وصغارهم؛

- ثالثاً، يُستحسن أن لا تغادر قبل أن ينتهي المعلم لمباركي من إتمام المشروع الذي جاء به، هو وقافلته وعمّاله من مراکش، الحمراء، أو الطينية، ما هم.

كان الساعي قد اختفى من ناظري، حلّ أمين سرّ الأخبار في لسانه :

لعلك ستلحّ، تسألني من أين لي هذه التفاصيل، لا أكتملك تجسّستُ على الرسالة بطريقتي قبل تسليمها، ما أنا في هذه الحرفة إلّا لأنّ يدي تأكلني وفضولي لأخبار الناس بلا حدود، ولكن عيبي يُفتضح حين أنام، يخرج مني الكلام بلا رقيب، ورغم أنّ بوعمامة -هذا لن تعرفه- حدّرنِي من أيّ اختلاط قبل تنفيذ المهمة، فإنني قضيت الليلة بجوار هنية، بعثتُ لي خادمَتها زهيرة لأوافيها على جناح السرعة أو تقطع عني وُصْلَها، كلّ شيء إلّا هذا العقاب، عشتني وغشيتني، لكنني ارتخيتُ بعد ذلك كأنّي فقدتُ وعيبي، لم أدرك إلّا صباح اليوم فلم أجد أحداً بجواري، مثلك تماماً، استيقظت قبلك وانتبهت متأخراً أني فُهِتُ بكلّ شيء وأنّ العاقبة سيئة. أيّ عاقبة؟ الحق، لا أرى خطراً في هذا الحشد يا سيّ سلام، أنت تحرص على السلامة لتُنهي حكايتك بهدوء وتعود من حيث (لا نعرف بالضبط بعد من أين أتيت، هه؟!); قد غنمت

بضاعةً جديدةً لجمهورك، أمّا ترفيتي أنا فرهينة بنجاح مهمّة للاً نونة، بوصولها مخفورة، كالأمانة إلى مقر الحاكمية العظمى، وهذا الصراخ والاحتجاج، كما ترى، يقطع عليها الطريق، يُعرقل مهمتي، فلماذا اختاروها هي دوننا نحن جميعاً؟ لماذا؟ قلت، نعم، أوافقك، لماذا هي وليس هنيّة، أو أنت المسكين، أو أنا سلام، رغم أنني لستُ طرفاً في هذه الحكاية الغريبة، تماماً، لست طرفاً مباشراً. أمّا كان أفضل لي لو بقيتُ في مدينة الفرجة والبلاهة؟!

- 38 -

الآن، لم يعد خبرُ ساعي البريد سراً، ولا الوجهة التي سيقصدها من تسلّم الخطاب. انقسمت البلدة في كيفية استقبالها للخبر بين السلطة المحلية والسكان العاديين، تنازَع الخوف السلطة من هذه بالذات، من أنّ السكان لن يتردّدوا بالبوح عن ما في صدورهم من رغبات. سعى القايد السغروشنى وقائد الجندرمة وعميد الأمن الخاص لاستغلال المناسبة لصالحهم. دأبهم في الأعياد الدينية والمناسبات الوطنية أن يرسلوا إلى الحاكمية العظمى رُسلًا بقراطيس من رقاع الغزال مكتوب عليها بماء الذهب عبارات تجديد فروض الطاعة والولاء، باسمهم، واسم الساكنة التّونية، يطلبون في كلّ مناسبة من الصّاغة، والنساء خاصة أن يتبرّعن ببعض مصاغهن لتوفير ذهب الخطّ، يُعلنّ على عهدة القايد، أنهن مميّات بحاكمهن، مستعدات أن يفدينه بالروح، بالدم، وببكاره عذارهنّ، بعد أن فات عليهن الأوان. اليوم هم في مناسبة لا مثيل لها وتحتاج إلى احتفال عظيم. من دون مُدن وقرى ومرايع بلاد حكمه

الواسعة، اختار الحاكم المعظم هذه البقعة بالذات، المحجوزة بين الجبال، رغم سجلها الأسود، وسلوك أهلها تجاهه، ليُخصَّها بعطفه ويشملها بسابغ رضاه، وهم، أعمدة السلطة الثلاثة، رغم أنهم لم يَطلِّعوا على الرسالة نصّاً، إنما بحُكم مهنتهم وقربهم من موقع القرار، بإمكانهم أن يخيّنوا أنها مرصعة الاستهلال بعبارات ذهبية، من قبيل: «خديمتنا الأرضي للآ نونة، إنه لمن دواعي بهجتنا، وانشرح صدرنا، أن تقع حاضرتكم في النفس موقعاً حسناً، بأن نختار منها جوهرة، الأينع غصناً، والأنظر فتناً، السيدة الميمونة، المجاهدة للآ نونة، التي بها العيون مفتونة، والعقول مجنونة، وحدها من سيدات إيلتنا نخصّها بِشرف المثل بين أيدينا، والبروز في حضرتنا، وتقبَّل عبارات رضانا».

لذلك دعوا إلى حفل كبير لتأكيد الولاء والاحتفال بالمناسبة. دعوا ساكنة بني نون، وأرسلوا مَنْ يطوف في الضواحي والقرى القريبة والبعيدة، وحتى في قرون الجبال. على الجميع أن ينفروا أمام مبنى القيادة لحضور احتفالٍ سيدوم ثلاثة أيام. ورأى سلام، الذي أيقظه النفير بعد أذان الفجر مباشرة، جمعاً غفيراً يحمل لافتات حُطَّ عليها: «عاش حاكمنا المعظم؛ عاش قائدنا الملهم؛ بلدتُنا نونة، جوهرتها للآ نونا!»؛ «نعم، نعم، بالروح، بالدم، نفديك يا نونة، ولن نندم!». لم تكن لي حيلة في الانضمام إلى هتافهم، فكلّما اقتربت من الجمع أحسّ بلساني يسبقني وحنجرتي تصدح بالهتاف، كأنها جاذبية مغناطيسية، انتصفت النهار والأقوام يتوافدون على ساحة المحافظة، تسبقهم هتافاتهم بلهجات محلية، ولافتاتهم حُطَّ عليها حماسهم وولاؤهم حتى لا مزيد، قد ضاقت ساحة المحافظة بالجموع، ففتحت منافذ فرعية تدفق منها آلاف

الزوار إلى أن لم يبقَ متر واحد يسع، فنُصبت الخيامُ في خلاء فسح قربَ محطة النقل، كما رُصّت الموائد بعد أن نُجرت الذبائح تبرّع بها أعيانُ المنطقة بأمر من القايد السغروشنى، وعدّهم سيرفع إلى الحاكمة العظمى آيات ولائهم، ودعواتهم لها بأن يحفظها ويديم عليها النعم (كذا) وأنه هو أصالةً عن نفسه، ونيابةً عن كبار رجالات وحتى نساءات هذه البلدة المحظوظة، سينقل مطالبهم واحداً، واحداً، ليعطيهم الدليل على مدى إخلاصه الشخصي، ودرجة التزامه وخدمته للصالح العام، كذلك تفانيه من أجل تطبيق سياسة القرب، بسدّ الفجوة المزعومة بين الحاكمين والمحكومين، لا ينبغي من وراء هذا، كما يعلمون، جزاء ولا شكوراً، إلا أن يأتي الله غداً بوجه حسن، وينال الرضا الذي يسعون إليه جميعاً في الدنيا قبل الآخرة، إنه . .

في اليوم الثاني زادت مظاهر البهجة، وتضاعف عدد الخيام والذبائح، وقُدّمت فرق الفولكلور من زوايا وقرى ومدائر كبرى للأطلس الصغير والكبير والمتوسط، يزينها ويتوّجها المايسترو موحا والحسين أشيبان، تحامّل على مرضه، أبى إلا أن يحضر المناسبة العظيمة، محبّب كبير للبلدة وأهلها، وتعبيراً منه عن ولائه الشخصي للحضرة الحاكمة، والذبائح والموائد تلو بعضها حتى لا مزيد، والليل أضاءته النجوم، ولم يبقَ وجهٌ إلا وغمره البشرُ، تبدّد في النفوس ومن الوجوه كلّ غضب أو وجوم . . شهدت على ذلك عيون وشهود عاينوا بالمباشر فرحة السكان، وما تنعم به هذه الديار في العهد المجيد للحاكمة العظمى، صارت به مضرب الأمثال في زمن أغبر يهيج بالعواصف والصواعق وتجتاحه الكوارث كالشياطين رجوم، والبشر ضائع في الأرض شريد، وأخيراً وصولاً (أخيراً

وليس آخرًا) إلى اليوم الثالث ليكون أزهى أيام الاحتفال بخطاب
الدعوة العالي الذي وصل إلى المجاهدة للآ نونة، سَتَبَيَضُ بإشراق
طلعتها كل ما اسودَّ من وجوه، صحو إن مشت، شمس تبتد
الغيوم!

وكان التعب قد بلغ مني مبلغه في الليلة الثانية، فغلبنى النوم
في إحدى الخيام. استيقظت في الغداة على جلبة، أصوات تختلف
عن تلك التي أغمضت جفوني على إيقاعاتها الراقصة هذدنتني مثل
رضيع، ثم حملتني في قماطي تميز بي الأيدي فوق الأشجار،
تخترق بي الغابة، أدغالها تنفك، وتضيء عتمتها تباعاً، بمقدار
أقراص من النور ذهبية تنسكب علينا، والقمر ليلتنا هلال قوسه
سَرَجٌ فوق فرسٍ نمتطيه فيرقص بنا أرجوحة، ونحن نعلو، أنا
أعلى، إلى أن نبلغ أجمّة مُشدبةً في شكل قبة بزهي الألوان وباهر
الأضواء، ما رأيت وما أحسب يوجد لها مثيل، إلّا في خيال
وعبارة الشعراء. أغرب ما أثارني منها طيف امرأة تتوسّد شعرها
تنثني قوس هلال، تعود تتقلب في أوضاع شتى في شكل ظلال،
لكل ظلّ ملامحٌ وعمرٌ ولونٌ بشرة، وكنت عند الوصول قد كبرت،
وأحسستُ بفرائزي كاملةً، ما قوى جوعي وعطشي، وهيج حتى
شبعي، فصرتُ أطارد الظلال تغريني، إلى أن أدخلتني إلى قاعة
سمعت يداً تصفق وصوتاً إثره ينادي أمراً بلا صلف، أكرموا ضيفنا
بالطعام والشراب، أمّا الكساء فلي، والغناء الذي تحب هو ما
أحب، الموشح الأندلسي هو ما يكون:

«فيك كلما أرى حسن/ مذ رأيت شكلك الحسن/
جلّ مَنْ به من إن طال/ جفاك يا جميل يطول نواحي/
وفي هواك صرت عليلاً زاد افتضاحي»

فاقترب إذاً، تبعْتُ الصوتَ الطيفَ النورَ، اللمسَ يتحسُّني،
 الهمسُ كذلك، وتقلبنا أنا وإياه، أو لعلَّ إيَّاهما، بين أرضٍ وسما،
 ديجورٍ وضياء، وكلَّما أكاد أهوي، أو أعولُ على الرواح، يتلقَّفني
 الموشح على رِسلِك، نحن في أول الليل، قبل البراح، دعنا في
 الانشراح، بلى أجيب وأنا أستعيد مطلع الموشح: «فيك كلما أرى
 حسن».. ما هذه الجلبة، هي أيدٍ تهزَّني، وأقدامٌ تعلِّك كالخيل،
 صراخٌ وحشدٌ يركض إلى كلِّ ناحية، لولا هنية ونادلها سحبانني من
 تحت الأقدام لكننُ هلكت، قالت إنَّ الشعب (الشعب؟) انتفضَ
 وثارَ ضدَّ القايد، وهو يريد أن يرى بنفسه لِّلَا نونة، ويحمِّلها رسائلَ
 ومطالبَ مخصوصة لِسُدَّة الحاكمية العليا بعد أن عيلَ صبرُهُ، وأنه
 هو إن لم يلبَّ طلبه سيصرخ مثل جميع الشعوب «ارحلْ»، وبما أن
 للآهم نونة هذه خرافة، حكاية يُلهي بها القايد السكان، فها أنت
 ترى كيف يتخبَّط، وهو يبحث عنك بالريق الناشف كي تساعده في
 هذه الورطة، أخبرته بسرِّك أنك سحَّار، أقصد بائع أحلام!

- 39 -

هي ورطة المعلم لمباركي. ثلاثة أيام توقَّف فيها ورشه،
 وجاءه الفرج أخيراً إذ انتهى مهرجان فرح لم يفهم مغزاه، ولا هو
 في وارد عمله. تخلَّى عمالُه عن الحفر والبحث، وانغمسوا في
 الغناء والرقص والتكالب على أكل اللحوم، ومطاردة النساء
 الشليحات، كُنَّ طليقات تلك الأيام، فيهنَّ من يبحث عن أزواج،
 أو مجرد متعة عابرة مع الغرباء، وكانوا سعداء، خرجوا مؤقتاً من
 كابوس النفق. ثم عادوا إليه قد استنزفت طاقتهم، وثقبت جيوبهم،

ولمّا ينتهِ العمل بعد. قرّروا أن يتمردوا عن مواصلة العمل، لكن المعلم لمباركي كان لهم بالمرصاد. ساعده القايد برجال قوة، فأرغموهم على البقاء داخل النفق، كانوا كلّما أوغلوا فيه زادوا غوصاً في الرّم، حتى اختلط الأحياء منهم بالأموات، حسبوا الرّم تنفض وتتوجع وتتكلم كما فعلوا، منهم من تهيأ له أنها تنضو عنها الأكفان أو تمزّقها تمزيقاً وتتجه في الخط العكسي، إلى أن صرخ عامل كان قد وصلَ إلى آخر نقطة من الحفر، يا المعلم هنا إشارة مكتوب عليها: «الطريق إلى تزمامارت». ارتعد الأحياء في وقفتهم، منهم من أغمي عليه، فاسم تزمامارت عنوان للمعتقل الذي زجّ فيه حاكم سابق جنوده وأعداءه إلى أن تحلّلوا وبادوا. لا، صرخ العمال لن نذهب في هذا الخط، فطمأنهم لمباركي بأنه وصلَ إلى الحدّ، وفرقة أخرى ستأخذ الدور، مهمّتنا هنا انتهت بعد إفراغ الشاحنات، انتهت تقريباً، تذكر فجأة واحدة لم تصل، من أصل أربعة حمولتها مغطاة، وما زال لا يعرف كيف سيفسّر اختفاءها، الآن، لكي يُكمل عقد العمل بيننا وتحصلون على مكافأتكم كاملة، سنبنّي الجدار، سنحفر من الأساس لبننيه. الجدار؟ سألوها باستغراب. انبرى منهم واحد واحتجّ، إذا بنينا هنا جداراً سنقطع عليهم الطريق، ولن يمرّوا، سيموتون مرة أخرى، مثل هؤلاء الذين حملنا في الشاحنات من مراکش. تدخل ثانٍ، نحن لم نحمل أيّ ميت، ما طمرناه سباع ونمور نافقة منذ وقت، ولكي لا تتحلّل وتتعفّن، جيئنا بها إلى هذه البلدة حيث التربة والهواء يساعدان. فعلاً، فعلاً، هذا هو الصّح، صادّق لمباركي، نحن لا دخل لنا في من مات، من يعيش، لا نعرف ولم نسمع عن تزمامارت، هذه أحجية بلّغني تُخيف بها الأمهات والآباء أبناءهم

حتى لا يتأخروا ليلاً خارج البيوت يهتدونهم، مَنْ يرجع بعد الثامنة سيدخل إمّا إلى جهنم أو يذهب إلى تزاممارت، والأولى أهون، فاحذروا! والآن، سنُضاعف الأجر اليوم، هيّا لبناء الجدار، هزّ ساعده عالياً.

وفيما شرّع العمال في وضع أساس الجدار كانت الطرق المؤدية لبلدة نونة تزدهم بالوافدين من مناطق الأطلس المتوسط، بني ملال وعين أسردون وأزيلال وخنيفرة، وفم الجمعة، ومن حوز مراكش وأبعد، إلّا أهل مولاي بوعزة كان ممنوعاً عليهم الدخول، ولا تنفع معهم شفاعة، ما زال غضب الإيالة العظمى سارياً عليهم، استشهد مفتي البلدة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وانتفاضتهم من قبيل الشّرك بل أدهى، إلى أن يحدث ما يشفع لهم بعد الرحلة الميمونة المرتقبة للمجاهدة للآ نونة.

طواير لا حدّ لها. استغرب القايد لعديدهم، لم يرَ لمثل هذا الحشد نظيراً إلّا في زمنٍ فات، عبّاً فيه ملك المغاربة شعبه لخوض «المسيرة الخضراء» لاسترجاع الصحراء من المستعمر الإسباني. كان هو وقتها موظفاً صغيراً في بلدية طرفاية، شاهدَهم يعبرون بالآلاف، من فرط حماسهم تحسبهم أرواحاً طائرة، أمّا هؤلاء اليوم، والشمس تضرب الرؤوس قوية في هذه الظهيرة من شهر يونيو، فمصمّمون على اصطفاقهم مهما كلف من وقتٍ وجهد، كلّ واقف بيده رسالة يحملها إلى للآ نونة كي تبلغها بنفسها للحاكم الأعظم في الحاكمية العظمى، يُصرّ المصطفى أن ينقلها بيده، وخلا من هم في وضع العجزة والمقعدين، باءت بالفشل محاولات من جاؤوا يسترزقون بإيجار أديار الاصطفاف، بينما ازدهرت تجارة

الكاتب العمومي، وفرت فرصة للمتخرجين العاطلين، والتلاميذ هجروا دراستهم وجلسوا يدبّجون الرسائل وهم يتبارون في تسطير المديح والتبجيل من محفوظهم شعراً ونثراً، منهم مَنْ ينقل عباراته عن كتاب الرسائل العصرية حرفاً، وفي الوقت يسمعون ما يُملَى عليهم: «قلّ له، قلّ ليها، عاود قلّ له وأكّد له لكلام، لا بدّ ولا بدّ»؛ «وخصّنا، وخصّنا، وما عندنا غير الله وهو»؛ «وقولي له يا لآل نونو، صحّح نونة، قلت لك الحاجة نوناً، يشهد الله هي عيني، بغيت حجة في النبي، أنا ورجلي، قلّ له وعاود»؛ «وخصّنا الطريق...»؛ «وخصّني رجل، ووظيفة مع المخزن»؛ «خصّني فيزا لزيارة لآل مكة، وفيزا للمريكان»..

فيما الجدار كان يُبنى طوبةً، طوبة، انتصب أخيراً في وسط ملتقى الطرق عالياً يفصل البلدة إلى قسمين. جدارٌ بُني بسرعة قياسية، وُضِعَ بطلاء أبيض، وبسرعة أيضاً وقَفَ على يمينه ويساره حراسٌ أشداء، وبسرعة كذلك تجمّع حوله فضوليون والعائدون ممّن سلّموا رسالتهم للمجاهدة، أخبرهم حراسُها ومرافقوها أنّ عليهم أن يربضوا قبالة الجدار، سيتحوّل إلى شاشة ضخمة وعليها سيُشاهدون النقل الحيّ لاستقبال الحاكم الأعظم للمجاهدة نون، وبذلك يثبت لهم بالدليل القاطع أنها بلّغت، ستبلغ رسالتهم، أنّ ما سلموها من هدايا للتقرّب والتعبير عن الولاء وصلت، ستصل بإذن الله، أو بالدليل شبه القاطع، لأنها قد لا تظهر لهم إلّا من الخلف - كان منهم مَنْ احتجّ كيف لا تبرز لنا حتى نتأكّد أنها موجودة حقاً، الله جلّ جلاله وحده لا يُرى، «وهو معكم أينما كنتم»، أمّا هي فمخفية تحت قبتها في الجبل؛

خلالئذٍ وصلت سيارات نزل منها أشخاص يحملون كابلات طويلة ومعدّات تصوير قدّموا لرئيس الجندرمة رخصة تكليفهم بإعداد روبرتاج عن البلدة وما تحقّق فيها من مشاريع التنمية في عهد الحاكمية العظمى، وسيقومون بنقل مشاعر الساكنة وانطباعاتهم أثناء وبعد حفل الاستقبال التاريخي الذي سيُقام عصر الغد في مكانٍ لم يحدّد بعد (وهمس للقائد، لأسباب أمنية، طبعاً)، وفيما كان فنّيّ القنوات التلفزية الوطنية، ربما الدولية، أيضاً، يلتقطون صوراً تجزيية للموقع والجدار والمتجمهرين قبالة، انعكست على شاشة الجدار البيضاء صورُ رجال يرتدون أكياسَ خيش، ظهورُهم منكسرة، ووجوهُهم بلا ملامح وبلون الطين، يصدرُ عنهم صوتٌ بين العويل والأنين، كانوا يهرولون متعاقبين، يخرجون من النفق الذي كأنّما انبثق فجأة تحت نصب الجدار، هرول المعلم لمباركي يصرخ مثله القايد السغروشنّي: مصيبة! هجم أمن الكومسير يطرد الجمهور، صرخَ الفنّيون هل نحن في يوم الحشر؟! وقطعوا البثّ، لكن الموتى أو الأحياء واصلوا يثنون ويصرخون، يقولون.. كفى أوقفوا!

الفصل الثامن

لو وقفت في حكايتي عند هذا الحد لأغضبْتُكم، فإني أرى في عيونكم مزيد تطلّع، بل أحسّ لديكم لهفة للمزيد، رغم أنّ الشمس، كما ترون، تميل إلى المغيب، ولم يبقَ إلا سويعة لصلاة المغرب، وأحتاجُ مثل سائر الناس الذهاب إلى السوق قبل أن تغلق الدكاكين، لشراء مؤونة ليلتي، فإني لا أطيق أكلَ هذه الساحة. كنا في جامع لفنا، انقلبت ساحة اكتظت بالصناديق الخشبية وعربات مغطاة تباع النقانق، كثير منها أمعاء قطط وكلاب ضالة، وسوائل قدرة باسم العصير، وضائق مساحة الأرض المخصّصة لنا نحن الحكواتيين، حتى إنّ الكاتب الإسباني خوان غاوتي سولو، نديم أشدّ الندم لما سعى لدى منظمة دولية لتجعل من هذا الفضاء جزءاً سموه (التراث اللامادي)، وأفلح في مسعاه، وإني لأمرّ به هذه الأيام وهو في جلسته بين مقهى ناسيونال ومقهى مطيش، أسلم عليه لاباس أسي اخوان، فلا يرّد السلام هو المهذب، الرقيق، يُبقي خذّه على صفحة يده ينظر متعجباً حوله بهيئة سائح من سياح مراکش يكتشف، بينما أصبح جزءاً من تراثها، حرّ في نفسه ما لحق بالساحة من هوان، ماذا أقول عن رزقنا الذي ضاع، وكلّ تراثنا يوماً إثر يوم إلى ضياع؛ ماذا أقول!

والحق، مَنْ يستزيد يزيد، أقصد من جانبكم، من درهم إلى عشرة، فالسوق في غلاء، والحكاية حتى ولو سفل رُواتها وأخنى عليهم الدهر بكلكل، هي لعمري بلا ثمن، خاصة إن نَزَعنا عنها وَخَل الأرض، ولمنعناها بصقيل الخيال، وهو ما لا شك تطلبون، ونفوسكم إليه تميل، ولكن اعلّموا يرحمكم الله أن هنالك حقائق باتت تظهر للعقول والعيان أغرب من أي شطط للخيال، وما جرى للمجاهدة لئلا نونة بعد ذلك لِمَما تحار فيه الألباب ويعجز اللسان.

تركناها، نحن جميعاً، أنا وأنتم، وقبلكم ساكنة البلدة، لم يسبق لأحد أن رآها من قريب ولا بعيد. تركناها في قمة الجبل تتلقى الرسائل أو مَنْ ينوب عنها، كلّ واحد يحمل طلباً يحب أن توصله إلى مَنْ ستشدّ الرحال إليه بدعوة منه، ويبغي رُغْبَةً لا بدّ ستتحقق فالحاكم بأمر الله نفسه مَنْ طلب حضورها، وإذا كلّ ما ستنقل إليه من رسائل تمنيات ناس بلدتها سيتحقق بإذن الله، ولو جئت لأعرضها عليكم لاحتججتُ إلى مئات الساعات أفنى أنا وعرضها لا يكمل، وفيها من الغرائب ما لا يخطر على قلب بشر، حتى أنها أعجزتني بدوري وأفحمتني أنا الذي ادّعى ونشّر أنّ مهنته بائع أحلام، فقرّرت بعد هذه المغامرة أن أهجر هذه المهنة، فيمّ تنفع إن صار ما تراه وتسمعه وأنت في الصحو أدّهش ممّا يعتريك وأنت في المنام؟!

كذلك واصلت طوابيرهم الاصطفاف، الواحد تلو الآخر، النساء فيها أكثر من الرجال، جئن يحملن العيال، لاستدراار مزيد عطف. بعضهم يلقي الرسالة داخل جراب موضوع لهذا الغرض كصندوق الرسائل في الشارع، ويمضي. بعضهم يملّي شيفهاً طلبه

لمكلفين بجمع المطالب بالسّماع، ويدوّنونها على رقاع، يغربلون المادي فيها من الروحي، ويتحرّون الممكن من المحال، وقلة منهم مغرورون هنا منذ لا يعلم أحد، حاولوا وما ينسوا وهم مصمّمون مهما كلّفهم من جهد العبور إلى البهو الداخلي لإقامة لئلا نونة، لتسمع منهم مباشرة، وتعطيهم بلسانها البشارة، وإلا هنا باقون، وما هي مهمة جمع الرسائل على وشك الانتهاء، لم تبقَ إلا هنية عاندت، وكابرت، وأخيراً استسلمت، رغم علمها أنّ طلبها يحمل صاعقة، بينما قررت من جهتي أن أتقلّ بين ساحة البلدة والقافلة المتجهة إلى العاصمة، فأنا السارد لا غنى عني أحتاج أن أكون في كلّ مكان، أو فلا حكاية!

رغم كون المسافة بين البلدة الأطلسية ومدينة العاصمة لا تستوجب أكثر من أربع إلى خمس ساعات في أبعد تقدير، فإنّ موكب لئلا نونة مضى يومان على خروجه من البلدة بالطبول والنفير، مُشيّعاً بالزغاريد، وطلبة القرآن يتلون الحزب، وفقهاء حضروا خصيصاً من زوايا تناغمالت بجماعة آيت تكالا، والزاوية البصيرية الدرقاوية بجماعة بني عياط بإقليم أزيلال، والزاوية القادرية البوتشيشية ببني ملال، رفعوا كلّهم أكفّ الضراعة إلى العليّ القدير أن يحفظ الحاجة نونة في المسير، ويسدّد خطاها بين الذهاب والإياب، ويجعل النصر والتمكين حليفها في مسراها ومجراها ومسعاها من أجل ساكنة هذه الديار الأبرار، وقد حضرَ هذا الحفل البهيج السادة نواب ممثلي الإيالة الكبرى المكلفين بالأمن والجنדרمة والشؤون الإدارية، وممثل عن المصالح الغابوية، وآخر للخدمات البيطرية إلى آخر القائمة.

مضى يومان ولما يصل الموكب الميمون بعد إلى الحدود

الترابية للعاصمة، ليس بسبب المسافة، إذًا، ولا وعورة الطريق، قد ترك الطرقات الحلزونية وراءه ودخل إلى سهول مكناس وزرهون، ومنها تمتد الطريق ممهدة، وهادئة. كان ثمة خلق كثير تبعها. منه الراغب، المتعلق بها، طالب شفاعات وبركات، ومنه من تکرمت عليه يمشي برفقتها. عُلِمَ أنها اشترطت في الرد على الدعوة التي توصلت من الديوان العالي للحاكمية بها بعد أن ذاع صيت الرسالة، أن يرافقها موكب رسمي، فتأتي محفوفة، مكرمة، مبعلة، كأميرة، أو من في مقام رفيع، وهي أكبر من هذا القدر وأشرف، ولولا أن الإيالة العظمى تحل في نفسها محلاً كبيراً لما ترحزحت عن جبلها هو مملكتها، والسكان في البلدة تحت هم رعاياها يدينون لها بالسمع والطاعة، فأى تضحية إذًا منها وهي تتقل من الأطلس لتصل إلى . .

- إلى أين؟ أين أنتم ذاهبون؟

عرقلت كوكبة جندرمة الموكب. طردت وشئت كل من يمشي فيه. أخبر ضابط فرقة المجاهدة، وهي وراء خباء، أن عليها النزول في هذه النقطة. أمرها: في الحين! عند مدخل بلدة تيفلت، وتنتظرين إلى أن يصل إلينا الإذن لنسمح لك بمواصلة السير، ويكون قد تحدد لها موعد الاستقبال في الجهة التي تقصد. كأن لا علم لهم باتجاهها، بدت لا تفهم، يتعذر على من في مثل وضعها أن يفهم. احتجّت بغضب، بصخب، تخفي وجهها بخمار، تصرخ لن أسمح لكم، لأحد، إلا أن أشاء، أم يرى وجهي، أنا صاحبة قرار. أكثر من نطق الكلمات يتردد فيها حرف الراء بتكرار يُسمع له نبر مكسور، منغوم كخير غدير، ما أضحك مستمعين من جندرمة وعسس بدو، كلامهم أجلف بنبرة صخرية، لم يألوا غنة

ما يسمعون فتقرّدنوا، يقلّدونها ويُعيدون: أرى، ترى، قرار،
أراغي، ترا، تغارا، الرّا، الغا.

أخيراً قادوا سيدة الموكب الذي تشبّت عنوة إلى خيمة كبيرة
منصوبة على جانب الطريق. ساقوها لا قدرة لها على احتجاج ولا
حتى عويل، من وقع المفاجأة وهؤل ما يحدث لها. تذكّرت أن
إحدى عرّافاتها في الجبل وقد دعتها لتستطلع لها غيب رحلتها
القادمة، أشاحت بوجهها أول ما قرأت كفّها وتمتّت بتعازيم
تستدعي أرواحاً لم تستجب لها. بعد إلحاح نطقت بعد تمنّع
ظاهر، لا أريد منك مالأً، إنما اعذريني يا للآ، لا أرى ما أحبّ
في ما قرأت، والله يسمّعنّا خبر الخير. لمّا ألحت عليها تسأل
شرحاً اكتفت أمي حسناً بالتعليق، شوفي يا للآ نونة كلّ من خرج
من بلاده ما يضمن لها رجوع، وكلّ ما هو في بلاده أحسن له،
راسه يبقى مرفوع. كنت محقّة أمي حسناً. هدّر الضابط يهزّ قامته
بنزق، تنتظرين إلى أن يأتي دورك للذهاب إلى.. إلى أين؟ سألت.
لم يُجبها أحد، استدار راجعاً، وأشار لمرافقيه فرموا متاعها
وطردوا السائق وكلّ مرافقيها أو سنعطيكُم أزفل، تعرفون أن أزفل
بالعربية هو العصا، ولوّحوا بعصيّ في وجوههم. فتراجع هؤلاء
يشهدون عاجزين، مذهولين، مولاتهم تتخبّط في وقفاتها لا تكاد
تصدّق ما هي فيه، وتترنّج صارخة: أويلي! أخللا داري! فيقلدها
أفراد من الجندرمة: أويلها! أخلا داغها! وتكرّر منهم هذا الهرج
إلى أن أحسّت يداً تربّت على كتفها، سيدة ذات وقار، ترتدي
قفطاناً من الملف الثمين، دعتهّا تعالى اجلسي، وهذني نفسك، لا
حيلة إلّا الصبر، فنحن هنا قبلك منذ أسبوع.. ولكن، أنا؟ أنا؟ أنا
للأهم كلهم وبنت سيد أسيادهم، وخلا داغهم.. لا بأس عليك

نحن أيضاً، وأيضاً، تقصدين أنّ الحاكمية العظمى هي مَنْ طلبتك،
نحن كذلك طلبتنا، يكفي أن تطلبك لتحسين بشرف عظيم، ماذا
تريدين أكثر من هذا يا . . سألتها عن اسمها، اسمي، صرخت،
تسألين عن اسمي؟! أولي، أخلا دا(غ)ري، أنا بنت الق(أ)اع
والباع يحدث لي هذا، لم يبقَ إلّا أن تقوم القيامة، لا، ربما هذه
هي علامتها!

لما وجدت السيدة الوقور لا تحرّك ساكناً، ولا تبالي برّة
فعلها، استعادت هدوءها، وهمّمت تستعدّ لتعلن عن اسمها بعد
تردد ونبرة تعالٍ، أنا، تتق(أ)ول اشكون أنا بعيد البلا والبأس، ما
ب(أ)قى لي غير هاد شنيولات حتى هم يتكلموا مع بنات
ال(أ)قاع وال(أ)قوايع، ولما لم تولّها السيدة ذات الوقار أي اهتمام
صرخت، أنا للآكم نونة. . . وإذا حبيتوا ذات الهمة نوناً.

- أنت إذاً هي المرابطة المعلّقة في ذاك الجبل المشرف على
بلدة نونة، البلدة الخربة، وسكانها بالميئات، فلأيّ فائدة يتم
استدعاؤك مثلنا نحن الذين جئنا من تازة، من جبال تُسول
والبرانس، جبال الفرسان، أرض العصيان، يا حسرة هل تعلمين ما
هي تازة يا للآتهم نونة وتتعجرفين؟! اجلسي الآن، ربما يأتي دورك
بعد أسبوع، بعد شهر، هناك مَنْ أمضى في هذا المدخل سنة
وتزيد، حتى صار الوصول عنده إلى سُدة الحاكمية حلماً، وصار
الحلم حقيقة يستعيض بها عن الواقع، ويتمنى أن لا يزول، خير من
أن ينقشع الوهم ويصبح كما يقول المغاربة في مثلهم: «لا ديدي، لا
حب الملوك!»، أمّا ديدي فلا أعرف ما هو، بينما أنا على يقين أنني
سأسبقك لاستقبال حضرة مولانا، وربما أتوسّط لك عنده كي يعجّل
بلقائك قبل أن تزهق لك الروح!

لم تصدّق نونة أنّ السيدة الوقور واقفة على رأسها جاحظة العينين، تكاد تنفضّ عليها لتفتكّ بها، وفمها يفتح عن أسنان كالمدراة، هي من يعطيها هذا الدرس، ويُزلها من علياء جبلها إلى الحضيض.

- 41 -

لم ترّد هذه الأقوال لّلّا نونة إلّا حيرة وقلقاً، لا تفهم ما توجد فيه، تتلقّت إلى كلّ ناحية وتدور حول جسدها كالخذروف، كيف، هل يُعقل أن يحدث لي أنا هذا؟! أنا التي في معقلها يتطلّع البشر لرؤيتها ولو بنصف عين؟! أنا ما طلبت ولا رغبت، كان ينبغي أن أعتذر عن الدعوة بأيّ سبب، تساءلت، هل هذا معقول؟ بادرتها سيدة سمعتها ولم ترها، واقفة تقرأ أفكارها، أنتِ محظوظة بوصولك إلى هنا، هناك مئات، آلاف، يقضون السنوات الطوال وهم يتوسّلون، يتشقّعون، ويرسلون الهبات، كي يفوزوا ولو بشوفة وحتى شويقة مسروقة من بعيد لمولانا، أمّا المثل بين يديه، فهذا تقريباً من ألف المستحيّلات وليس سابعها فقط، بينما أنتِ محظوظة جداً لم يبقَ بينك وبابه إلّا خطوات، أياماً معدودات، لا سنوات، انظري إلى ذلك الركن في أقصى الخيمة -وهي تشير إلى هيئة رجل شيخ، بجلباب صوف أبيض، السبحة بيدٍ وكتابٌ باليد الأخرى-؛ انظري إليه، لا أحد يتذكّر متى وصل إلى هنا، هو نفسه نسي، الأغلب أنه وصل شاباً، وها هو كما ترين شبه شيخ، لحيته مُرسّلة، بيضاء بالكامل، وما زال ينتظر، وكلما دخل المنادي -ستعودين على شخص يصل كلّ يوم بعد صلاة المغرب، ليُعلم من جاء دوره

لننظر من بعيد أو المقابلة، كي يستعدّ للذهاب فجر اليوم التالي-
انتبه الشيخ حوله، وجحظت عيناه، وارتعشت يدها، إلى أن يَهْبَّ
واقفاً بعُسر شديد، ثم يهوي في مكانه، لا يسمع مَنْ ينادي عليه،
لكنه لا ييأس، نراه شاخّ ولا ييأس، كلّ هذا من أجل لقاء قد لا
يتجاوز دقيقة، هل رأيت أو سمعت مَنْ برهن حياته كلها مقابل
دقيقة، هو ذا مَنْ أمامك، وأنت وصلت قبل ساعة، تظهري كأنّ
الأرض هنا لا تسعك، أنصحك تخفّفي من حملك، واختاري لك
زاوية في هذه الخيمة الواسعة، وتضرّعي إلى العليّ القدير أن لا
تشيخي في الانتظار، أمّا أنا فأني ذاهبة إلى الكهولة كما ترين!

ثم إنها وقد همّت بتركها عادت تلتفت كأنما ستستدرك شيئاً
فاتها، فهذا ما يحدث للسيدة المكتهلة بسبب علة النسيان. حين
وصلت هنا كانت ذاكرتها حية، يقظة جداً، ثم وهي تعتاد المكان،
والزمن الواقف، أيضاً، بدأت تنسى، يأتي الزوار ويذهبون، ألفت
المكان، كما ألفت أنهم يقيمون فيه بتفاوت، حتى إنها نسيت من
أجل ماذا جاءت إلى هنا، فضمتها لجنة الاستقبال عضواً فيها
بحكم التقادم، وللطّف معشرها جعلتها صلة وصل -فاتني أن
أخبركم بوجود لجنة تُشرف على الوافدين ممّن تمّت دعوتهم لملاقة
الحاكمية العظمى، ملحقة بتنسيقية عليا، بدورها مرتبطة بديوان
أعلى يُشرف على حركة الذهاب والإياب في مجموع تراب
الحاكمية-؛ استدركت وهي ترى الوافدة الأطلسية في حيرة لا مزيد
عليها. أراهنكم إنْ عرفتم ماذا قالت! أو يخطر ببالكم بِم وجهتها!

أنا نفسي سَلام بائع الأحلام، وكذلك صانع الأوهام، لم
أصدّق ما سمعت أو نُقِل إليّ، أجدّد وأراهن مَنْ يشاء منكم لو

فطن، أمنحه ريعَ هذا اليوم، سأحصله طبعاً من جيوبكم. صلاة المغرب قرُبت، لأبدأ فأجمع شي بركة - أشرتُ إلى طفل جالس في مقدمة الحلقة من جهة اليمين، لم يرفع عينيه عن وجهي يخلق كالأهبل مذ بدأت الحكى. مددتُ له طاقتي وأشرتُ عليه أن يطوف بالجالسين والواقفين. تحتاج أن تقطع الحكاية مرة، مرة، وإلا فالقوم يستمعون ويغفلونك، ينصرفون، قد غنموا بقدر من الخبر والعجب، ويبقى لك الهواء، غبار الحكاية يا لهيل، ماذا ستفعل به، ستفركه كالحمص، كالقول طايب وهاري أم تعجنه كالدقيق، تنفخ في الهواء في الأخير وتجدهم افرنقوا في رمشة عين، الغابر، الظاهر، لذلك من مصلحتك أن تدور بالطاقيّة من وقت إلى آخر، وأن تقطع عنهم الخبر، تعلق أرواحهم وفضولهم، لتغويهم بأغرب منه فتعود تشدّ عقولهم وأبصارهم وهم إليك شاخصون، ينتظرون أن تُخرج من قُبّ جلابك جنأ أو غولاً، لِمَ لا جنية نصف امرأة، نصف إنسان، نصف حيوان، تسأل قبل أن تقطع الرواية، مَنْ تظنونها لِّلّا نونة، وهي التي لم يرها أحد، أنثى أم ذكر، أم هي خنثى، هل رأيت يوماً خنثى، ها، ها؟! وهذه المرأة التي تحاورها وتوجّه إليها النصح، حقيقية هي أم محض خيال، تصوّروا معي لو كنتم في موقف القديسة الخنثى، أنت يا سيدتي - يخاطب امرأة من الجمهور تنصت إليه باهتمام وكثير تخمام - ماذا كنت ستفعلين؟ هه، لا أحد يملك الجواب إلا أنا، وأنا في حاجة إلى الطعام والشراب والكساء، فأنبّههم أنّ مَنْ لا يأكل ويشرب وينام، لكي يحلم، لا يمكن أن يستمتع بالحكاية أبداً!

وإذن، فقد التفتت السيدة التي تخلّت عن وقارها وشنت الهجوم والسخرية، استدركت وعادت إليها تُخبرها بطريقة يمكن أن

تزوّدُها بالصبر، وتساعدُها على انتظار دورها، هي طريقة معمول بها هنا، مُجربّة، وآتت أكلها، والدليل معها هي، ومَن ترى حولها، لولا هذه الطريقة لعمّ اليأس، وتفشّى الخبل وباءً هو منتشر عندنا داءً، بينما بلاد الحاكمية مبنية على أعمدة الصبر والتفاؤل، ولا بأس بالتقوى، وليس على المطر المدرار كما شاع منذ قرون. سألتها، فما هي يا أختي؟ أجابت المساعدة الصابرة: إن أردت أن تتصبري، احلمي به، ليس كالحلم سبيلاً للنفاذ إلى الغيب وتقريب المسافات. أحلم به، ولكن، كيف؟ وعلى أيّ صورة؟ وأنا لم أكشف هيئته، وسمعتُ أنه لا يُرى، وكثيراً ما لا يسمع إلا أن تواتيه المشيئة. هَوّنت عليها في الحين: يا لَلّا، هذا هو المراد بالذات، فلو كان معروفاً للجميع لصارَ يشبه الناس كلهم، بحيث تختلط ملامحُه بآخرين، بينما وهو مجهول فإنه يحرّض على الخيال، فلو كنا نعرف كلّ مَنْ وما حولنا لما لجأنا إلى التصرّو نهاراً، والحلم ليلاً، ولكان العالم صغيراً، ضيقاً، لا يُطاق، لذلك فحاكمنا فريدٌ في جنسه، واحدٌ ومتعدّد، هو وليس هو، عزّ له النظر!

تظاهرت لَلّا نونة بالإنصات لرفيقة الخيمة، تشفق عليها، خشيت أن تصدمها بأنّ كلامها هُرف وتخريف، وأنها هي من روج له من قبتها المشعة في الجبل، هي نفسها شأن حاكمها ظاهرة وخفية، حاضرة وغائبة، معلومة ومجهولة، ومنذ أن صعدت إلى جبلها وصفوف الوافدين من كلّ صوب وفجّ عميق ما فتئت تأتي إليها بالشفاعات والقرايين، وكم من طالب كلّ مراده في الحياة الدنيا أن يراها تراه، ولا يطمع في غير هذا من المحال. إنما، وجدت نفسها تتساءل أحياناً إن كان ما هي فيه، ما تعيشه، واقعٌ، يا ترى، أم خيال، فإنه اتفق لها غير مرة، اتفق ماذا؟ إنني أسألكم

يا معشر خلقتي، لأعرف أنتم الآن في يقظة أو منام؟ ثم إن طاقتي أراها عادت إلي نصف ممتلئة، فإن رغبتكم في إتمام الحكاية عليكم بالمزيد، ألسنا نقول زد الماء زد الدقيق، أو سأنصرف وتبقى أذانكم وعيونكم فكيف بأفئدتكم معلقة إلى الغد، ربما بعد غد، من يدري بينهما قد تتبخر الحكاية كما يتبدد الحلم أو يتحول إلى أطياف بيضاء وشظايا كالوبر وقطع السحاب المتفرق في السماء، ها هي السماء كأن ضوأها يشحب، وأول المساء يطرق بابها برفق، فلن تلبث أن تستسلم وتنسحب، تُفسح لليل ليأتي فينشر جناحية على الكون، كون رب العالمين، وبعدها منه إلينا، يُهددنا في الأحلام.

- 42 -

إنه اتفق لها يا سادة، يا كرام، أن أطلت من أعلى شرفة في إقامتها بأعلى الجبل، يسمونها قصرها، فالملوك وحدهم يُقيمون في القصور، والليل ينسل من النهار، أو هذا يفتح كالبرعم من شغاف ذاك، فظهرت لها الغابة شديدة الخضرة كالسواد، تنحدر إلى أبعد سفح لا تراه، ليس حولها خلق ولا حيوان. تعجبت، أين ما تسمع عن الوفود يتلو بعضها بعضاً تردهم عند بابها، خرجت تتفقد لتتأكد بنفسها فلم تتبعها وصيفات، ولا شق لها الطريق خدماً ولا حشم. فتحت الباب فأصدر صريراً حاداً، لقدمه وصدته. من مرّ هنا سيحسب المكان مهجوراً، إذ جدران المبنى حال لونها وأعملت فيها الأيام حُفراً فتشقق لبئها وتفتت، قد بهت طلاؤها. يتقدم الفجر ويتفتح بُرعمُ الصبح عن يوم جديد، وهي تمشي حذرة، متوجّسة،

في مساحة أرض حولها، أشبه بالحوش، مُحدودة، لا عشب ولا نبات، لا تفهم أين نافورة الماء تسمع من الداخل سقسقتها، ولا الشذى الذي يعطر، أين الورد والزهور، ولا دخان يصعد من أفران طينية ينضج بلفح نار فيها خبزُ الصباح، ستأكله بالسمن والعسل، جرارٌ مثقوبة قرب الباب، ولا طباحة ولا بواب؟؟؟ تفرك عينيها جيداً. تتحسس أطرافها بقوة طويلاً. تدقّ تحتها التراب علّه ينتفض، لتتأكد يقيناً من أنها بقطة وليس حمارٌ الليل ضربها وما هي فيه أضغاث أحلام.

في وقتٍ آخر، تطلّ من الشرفة ذاتها. تتحرك في المساحة عينها، فتظهر لها الدنيا على غير حال. عزٌّ ورياشٌ، وصيفاتٌ وخدمٌ، بهوٌ من رخام، وقاعةٌ استقبال بأبهى وأفخم الأثاث، ومن المدخل تتناغم أصواتُ طلاب الرّغاب، وهي تُرسل اعتذارات التسويف والتأجيل بغنج ودلال، هكذا هي، ما ينبغي لها، تحبّ أن تُذلّ الرجال، إلى أن تقرّر هي من تحبّ وستختار. فلا تُصدّق ما هي فيه من تبدّل الأحوال، وفي آنٍ تخشى إن أصرت على معرفة الحقيقة أن ينقلب الأمر إلى وبال، ويصير ما تعيش فيه من حالٍ عزّ ونعيم إلى هوان وأهوال. إلى أن انتهى بها الأمر للاقتناع، بالأحرى أقنعت نفسها غنوة أنها مسكونةٌ بثانية، بأخرى سواها: واحدةٌ بنت الواقع واليوم؛ أما الثانية، فسارحة مع الأهواء، تتلاعب بها، خارج أي زمن، أمواج الخيال.

هل فهتمم شيئاً من هذا، أو سمعتم عنه، ولكنكم تتذكرون، لا شك، حكايات عن النساء والرجال، في الليل لهم مظهرٌ لهمّ سلوك، عفاريثٌ وجنيات، متهتكون وغانيات، وفي النهار على

وقار، ربات الحِجال، قاصرات الطرف لم يطمِثْنَ إِنْس ولا جان، سبحان مبدِّل الأحوال. هكذا أقنعت لِّلَا نونة نفسها أو أوْهَمَتْها، فظهرت لها نصيحة رفيقة الخيمة، مرشدة الوافدين، على قدر كبير من المعقولية، وقرَّرت أن تسكن إلى نصيحتها، ولها بعد ذلك أن تبَيَّت ما يحلو لها في رأسها. لولا أنَّ تلك بقيت بالمرصاد، إذ أضافت ليس مسموحاً لنا أن نجنح أو نشط في الأحلام، كأن نتصوّر لحاكمنا ما يحلو لنا من صور وأشكال، إن كنّا نحرص حقاً على لقياء، أو لننال بعض بركاته، فما بالك لو أردنا الحفاظ على عقولنا أن لا تُصاب بخبل ما، لا خشية تعذيب أو تهديد بجزاء، ولكن من سحر وفتنة، وحده يملكهما، وعقل جبار يرشده لأيّ خلل أو اعوجاج في نوع تصوره، فحذار يا لِّلَا . . ، فإنّ التنافس هنا على أشده، وأنا لولا محبة سيدنا محمد، قلت إنك من سلالة مولاي إدريس، ياك، دفاس أو زرهون، بحال، بحال، لولاهما لما أسديت لك هذا النصيح، والآن باب الحلم مفتوح أمامك، يا لحبيبة، على بركة الله. فكادت لِّلَا نونة أن تردّ عليها يشويني فيك، آس هاد البهلان!

لم تحتج لِّلَا نونة إلى قدوم الليل كي تنزوي في ركن من الخيمة، وتنكفي على حالها ومتاعها، اختارت ألبسة زاهية لتظهر بها في يوم اللقاء الموعود، والمفترض. لم تحتج أن تُطبّق جفون الليل على عينيها لترحل في حلم يأتي معه وجهه أو هيئته جاهزاً وكاملاً لا يشكو من نقص، وهل يُعقل أن يكون ناقصاً! ولا هي تحتاج إلى تركيب صورٍ متفرقة لتستدرجه إلى حديقة نظرتها، تُرسلها تمرح في وجهه، وهو يتشكّل أمامها مَلْمَحاً، مَلْمَحاً، قد استوى قبل ذلك، وهي إنّما ستسرح في تفاصيله، وستحاول أن تثبّت منها

كي تحتوي العينُ الوجَّةَ دفعةً واحدةً ونهائياً، فلا يتمُّ لها ما تريد،
 تنفلت النظرة عن العين، يتوارى المنظور، من السماء تنزل ستائرُ
 كثيفة فتحجُّبُه، وهي قبل ذلك بواحد وخمسين يوماً قد داومت على
 الذهاب إلى الحمام مرّة في كلّ يومين حتى تغتسل خلال هذه المدة
 سبع مرات مرفوقة بالطيبات وهن يصلين على النبي، وأختصر لكم
 حفلة القوالب الصغار، والنهار التالي القوالب الكبار، تأتي
 النكافات يُحنِّين لها ويُلبِّسُنها أجملَ القفاطين من أفخم الرِّياش،
 ويُزيّنها بأثمن الحُلِي من دَمالَج ومضَمَّة والشوكة وبتاج مرصع،
 وكأنها تراه من لحظتها ينحني وينزع عن رأسه التاج الذي سمعت
 أنه لا يفارقه ولو في المنام ويضعه على رأسها، مع خواتم من
 الزمرد الذبابي، وها النكافات تضعنها فوق الميدة تدور بها هي
 وأهزوجة «دور بها يا الشيباني دور بها، دور بها تخدم عليك
 وعليها» ثم ينزلنها وجوق للموسيقى الأندلسية - إيوا آه، هي فاسية
 على باباها وجدها، وخا أنا مجلية في ذاك الثلث الخالي من بلاد،
 آش من بلاد؟ بعيد لبلا والباس-؛ الجوق يعزف ويُشَنَّفُ الأسماع
 بطرب الآلة، فكأنها، بل هي ولادة بنت المستكفي تخطر في
 قصرها بقرطبة، بثوبٍ حريري هفّاف، مشقوقٍ من الوسط ينصرف
 إلى نصفين، حلَّتْهما من الشعر بيتين مشى بذكرهما الشعراء الفحول
 قبل الدهماء:

«أنا والله أصلح للمعالي

وأمشي مشيتني وأتبه تيهي

أَمْكُنْ عاشقي من صحن خدي

وأعطي قبلتي من يشتهيها»

ورأت اعتماد الرميكية تحلّ فيها، أو يحلّان في بعضهما، هما معاً يمشيان على الطّيب قد سُحِقَ وغطى به المعتمدُ كلّ ساحة القصر. جاء بالطيب وضُبت الغرابيلُ، وضُبّ ماءُ الورد عليهما، وعُجِن ذلك حتى أصبح كالطين، وسارتا عليه تتبّعهما الجوّاري والغلمانُ، تحفّ بهما ذات اليمين وذات الشمال أجملُ القيان، بعزفٍ من أعذب الألحان: تري لان، يا للّان.

في هزيع من الليل قامت النكافات بإزالة الحجاب عن وجهها، وسواجهها للمرة الأولى فتراه، أي يهتك السّتر الذي كان قائماً بينهما ولا يبقى له هو عندها سرٌّ ولا خفاء، نعم، جاءت النكافات وعظّلتها من أيّ حُلّيّ وجردنها من القفطان ليس على جسدها البض -تتلّمسه، نعم، وماله، ما زال بضاً، لم تنل منه الأعوام- ثم أدخلنها إلى غرفة (الدخشوشة) ستمكث بها سبعة أيام بلياليها آه من لياليها، لم يُبقين عليها غير قميص ناعم وسروالٍ ذي بياض ناصع.. قبل الدخول بها، ها، وظلا يتهاككان ويتفاتكان.. تري لان، يا للّان!!

إنما في نشوة حلمها، ونزوة تمنيتها، غفلت أنه يقوم عند باب كلّ حاكم وملك حاجبٌ، هو السّد المنيع، دونه سبع بحور، فكيف لها أن تخترق الحُجُبَ قائمة كالبنيان المرصوص تسدّ عين الشمس لتستعيد أولَ الصورة، وهي في مطلع حلم، وعند مدخل العصامية، وانتبهت فجأة أنها بدورها خبيثة، واستهواها أن تفكّر بأنه هو الآخر متيّمٌ بها، يجدلّ حلماً ينسج فيه ملامحها، ينظر إلى الضوء يسأل هل يُشبه نصاعة بشرتها، ويداعب النسيم أثره ناعمٌ نعومة خدّها ونحرها، أم ربما يحمل ضوعاً من طيبها؛ سيصنعها

من بنات أفكاره وبساتين تمثلاته، من فيض صورٍ وبلاغةِ المدائح التي يغدق عليه بها الشعراء وتزلف حاشيةُ الأندال البلهاء ابتغاء مرضاته، أليس يملك كلَّ شيءٍ، تقريباً فقط، فهي ليست ملك يمينه، كما يقولون، بما أنه أرسل إليها دعوةً خاصةً فهو، إذن، موسوسٌ بها، وما يدريها أنه الآن بصدد الكشف عن مفاتها، إن هو استطاع أولاً أن يُزيح الخمارَ عن محيّاها، ويستهوئها دائماً افتتانها بجسدها وكلِّ ما فيها، حتى إنها تعرّضَ به على أيِّ بشر، تُنكر زعماً وصلفاً أن يكون أحدٌ قد لمسها، شعرةً منها. وتنتفض حقاً لا تهيؤاً. كلاً، لم يَمَسُّها بشر من قبل، فوق أن يعشقها أحدٌ. اللهم أن تعشق ذاتها، لذلك فهذه المرأة إذ تنصحها غافلةٌ لا تفهم في النساء شيئاً، تُعدّني مثل بقيتهن عرضةً لنزوات الرجال، لِمَ لا متطلّعةٌ أن أصبح في حريم حاكمها.

لذلك أشاحت عن فكرة استحضار وجهه، ومثلها استباق مشاعره أو رغباته منها، قرّرت أن تفكر بطريقة مبتكرة، أن تحلم بطريقة تقلّص الوقت المطلوب للوصول إليه؛ بما يجعل الزمن يصبح طوعً بنانك. وهي في ركنها من الخيمة، حيث حكم عليها المقام، طالَ بها الانتظار، صحت نبوءةُ المرأة الوقور، غيرُك ينتظر من أعوام، لا، هي ليست مثلهم فضلةً، سوف يأتيهم خبرها بعد يوم، بعد ساعات، بعد قليل فقط؛

بفرقة أصابع، كانفلات شهب، تصير انتقلت إلى قصره بالعاصمة، عبرت الحرسَ واخترقت كالهواء الحُجُبَ وألفَ حاجب لو وُجد، وكما يخرج العفريت من مصباح علاء الدين بمجرد فرقة، تمثّلُ هي أمامه، ستتجلى له وحده من دون الجالسين، المتزلفين

حوله، ومن الآن ها هي تراه منشرحاً، طلق الأسارير، وقف لها،
 خلاف عادته، هو من يُقبل عليها هي ضيفه، يسبقه شوقه، وتقوده
 لهفته، كأنما يمشي فوق السحاب، ووجهه مُجلَّلٌ بالضياء، وهي
 بلباس الاستبرق، يلعب الزبرجدُ فيها من نحرها إلى أخمص
 القدمين، يفرد ذراعيه اتساعاً إلى الأمام، ليأخذها بالأحضان،
 فتراجع دلالاً، لا تمنعاً، فما يليق أن تستسلم من أول لقاء،
 ولتُشعل في جوفه حرائق الرغبة، ليراها كأنها أول امرأة، بها
 تُستعاد جَدَّتُها حواء، ومن حولها تسمع من الافتتان بها آهاتٍ،
 ومن اللوعة تباريح، بإشارة يطرد الحاشية لينفرد بي، يُغدق عليّ
 سلسيل غزل، وسيل إطراء يفوق حدَّ العقل والجنون معاً، ولا مثيل
 لأسلوبه في لغات التشبيب، وأنا صامته، أتمايل وأقرب من مدى
 خطوته، فنصبح كراقصين يتناوبان على رقصة ولا ينتهيان، وإذا
 سأفتح فمي بعد أن أحسستُ بيده امتدت إلى مرفقي وعيناه
 مدهولتان، فسحبته بخفة وغُنج لا يقطعان الأمل، ويَعِدَانِ
 بالوصال، سأفتح فمي لأنها عني، يا سيد الحكام، بموقعك، أما
 تعلم أنّ المداعبة ألطف قبل المُواقعة، يفعل ذلك الحيوان
 كالإنسان.. وبيننا العبارة على لساني أوشك أن أخرجها كالسيف
 من غمد فمي، إذ امرأة من حيث لا أدري، قدّرت أنها المشرفة
 على الخيمة، تخرج لي بوجه مكشّر، وتنهاني بصوت منقّر عن
 الكلام غير المباح:

- يا امرأة أفيقي، إنك في هذيان، ورشت عليها سطل ماء!

كانت ستجيبها، تنتفض في وجهها، أولست أنت من حرّضني على التحليق في سماء الحلم إن أردت قضاء حاجتي؟ لكن تراجع، قد استعذبت ما هي فيه، فأني جواب سعيدها إلى حقيقة صمّاء، إلى الوضع الجافّ بخيمة منصوبة في خلاء، ويقطنها ناسٌ ينتظرون مثلها أن يسمعوا اسمهم من المنادي، كي يحظوا بما تمّوه طويلاً، ربما عمراً كاملاً، لكنها هي ما طلبت، بل تذكر أنها تمنّعت، كادت تمزق الرسالة لما سلمها لها ساعي البريد، لم ينصرف مباشرة، بقي يتربّص ردّها فعلها وهي تفتحها، يتوقّع إما أن تفرّح أو تغضب، في الحالتين ستتكلّم، سيسمّعها، وهي في مكمنها محجوبة، وسينقل الكلام إلى الخارج، هذه مكافأته الكبرى بعد الهبات التي تمنحه كلما حمّل بريدًا، يعتبر نفسه صلة الوصل بينها وساكنة البلدة، هذه فرصة لا تُعوّض، سمعها تهمهم: يريدني أنا بالذات، أن أذهب إليه. متى كانت النساء تذهب إلى الرجال، فكيف وهنّ مثلي بشأني ومجدي؟! هو سيد الحاكمة العظمى، وأنا سيّدة هذا الجبل، والأطلس المتوسط كله، ليسأل أهل هذا البلد، أليس عنده فيه القايد ورئيس الجندرمة والكوميسير، وغيرهم من العيون المبهوثة، يتجسّسون جميعهم عليّ، وسري لا يدركون، حتى وجهي لم يكشفوا، وهكذا هم متحيّرون. ثم يراها وقد عادت فردّت الرسالة، كأنما غفلت عن شيء، همهمت: إنما لغتها مرهفة، وعبارتها لطيفة، لا إجبار ولا تعالٍ، يقول يطيب لي ويسعدني، فما ينبغي لي أن أردّ باللوم أو أجّرّ عليّ غضبه، حتى ولو تهيأ له أنّ بإمكانه أن يزيدني إلى حريمه، لا بأس سأداريه،

ومسدت الورقة، ضمتها إلى صدرها أولاً، ثم وضعتها عمداً داخل صندوق، تعلم أن وصيفات وخدم إقامتها يحرقهم الفضول، وسيهرعون بعد مغادرتها القاعة إلى الاطلاع عليها ليذيع المحتوى وينتشر الخبر: الحاكم المعظم يدعوني إلى العاصمة!

لم تُجبها، لم تبرح صمتها، أفضل لها أن تبقى سابحة في بحر الأحلام، تهددها الصور والأخيلة. إلى أن سمعت صوت اصطفاق لم تميز حقاً من أين يأتي، من خارج عينيها حيث الخيمة والبلدة المسماة تيفلت، أم من عمق أجواء ملتبسة، تتداخل فيها الألوان بتضاريس غريبة لا هي أرض ولا سماء. اصطفاق أجنحة يُحدث صوتاً كانكسار أمواج عاتية على صخور عالية. جناحان هائلان غمرها فغطيا بظلهما مسافة لا تُقدّرهما، هي تمشي بينا هو فوق، يتقلب الطائر الضخم، ما رأت له مثيلاً، قرأت عنه محكياً في قصص ألف ليلة وليلة، مع حكايات السندباد، طائر الرّخ، لكن هذا يعود إلى زمن بعيد، اليوم زمن الطائرات النفاثة والصواريخ العابرة للقارات، هو، هو، ضخامته، رأسه، مخالبه، أوصافه الكاملة ثابتة كما في السندباد البحري، وهي تمشي الآن في تيه، خلأ أم صحراء، يرحمها ظلّه، ويرافقها حفيف جناحيه، كأنه حدّس محنتها، لو اقترب، لو دنا، هو يقرأ خاطرها فيتدلى إليها كعنقود من خميلة، تمسك بقوادمه، ويمضي بها محلّقاً عالياً، ثم بخفة يأخذ في النزول نحو ساحة مُحاطة بأسوار، ودخلها أسواراً بها باب كبير مزخرف، عليه حراس أشداء، من خلفه أقبل رجل عملاق أراه وأسمعه يرحّب بي، أهلاً بالشريفة، أهلاً للآنونة، ألف مرحباً، يفرش لي الورد وأتبعه إلى الداخل، يقول سيدي بن سيدي في الانتظار... ثم طائر الرّخ طار.

هل تعرفون القصة الكاملة لطائر الرُّخ؟ حكاية عجيبة، ذكروني بها لأقُصّها عليكم في يوم آخر، الوقت لا يتسع لها والغروب قريب، أخاف أن ترعج منامكم لو ذهبتم بها هذه العشية، لنتركها حتى ننتهي من قصتنا هذه، كما ترون لا تزال معلقة، وكلّ طرف فيها عنيد، ولا نستطيع أن نلوم الحاكمية الكبرى، أسمى من أن تُلام، وإن كانت لئلا نونة محقّة وعيل صبرها، لذا وبعد أن انتبهت أنّ وصولها إلى عاصمة حلمها، طار، مثلما طائرُها اختفى، عوّلت على قرار حاسم.

انتظرت المساء، جاء المُنادي ليعلم من دوره في الغد للمقابلة، لم يعلن اسمها، فأطلقتها صرخة شقّت أوّل الليل، ليهرع كلّ من في المحيط، المنتظرون منذ متى، الحرس والعسس، وسيدات متفسّحات كأنهن خرجن من القبور، ضُربَ حولها طوقٌ، وأحضرت مجامرٌ ومباخرٌ حُرقت فيها أعشاب تسمّى الفاسوخ خاصّ لطرّد الجن الذي قالوا إنه ركب لئلا، فهي كما قالوا لم تُراع في حلمها ما يجوز وما لا، دخلت مناطق محرّمة فتسلّط عليها أهلها الذين لا يُتسمون، بسم الله الرحمن الرحيم، وهم لا يدينون بديننا ويعصون ربنا ولا يعترفون بمحكوميّتنا، هم الذين صرخوا ويواصلون الصراخ الآن من جوفها، كان صوتها يمزّق سكون الليل تهذّد أنها لن تصبر على الانتظار، المرادُ منه الإذلال والهوان، بينما هي ذات قدرٍ وأيّ شان.

أخطرت نونة المرشدة، بعد أن استعادت هدوءها، وأخرجوا منها على ما ذكروا (المسلمين) الذين يستيقظون فيها مرة، مرة ويجعرون، أعلمتها أنها من غدها ستعود إلى جبلها، وستتدبّر بنفسها أمرَ هذه العودة، فإذا ما رغبَ مولاكم -هكذا، نطقتها

بتحدّ - أن يراني فليلحق بي حيث أوجد، إذا استطاع، ومن الآن أنا في حلٍّ من كلّ التزام، وفكّرت أن تتوقف عند هذا الحدّ، فلا تضيف بأنها ستحرّض عليه في طريق العودة وبعد الوصول القبائل والأعيان، ويمكن أن تُذيع عنه أخباراً وإشاعات تُضُرُّ بِسُمتِهِ ويمكن أن تشكّك في رجولته، كونه يهاب النسوان، فكيف بمنّ هي في قُدّها وقديدها.

ستفصح . . لم تكمل العبارة في رأسها، سمعت من يهمس في أذنها إذا تماديت ستعرّضين بلدة نونة لوبال عظيم، يمكن أن تُمسح من الأرض في ساعات، يبدو أنك تجهلين ما يجري هناك، أكل الغيظ نفسك من جهة هنية فآلهاك عن رؤية ما يحدث، كيف وتدّعين أنك سيدة المكان، ألم يحدثك أحد عن موكب المعلم لمباركي، ألم تسمعي عن الثّق المحفور في وسط الطريق، لماذا حفروه، وماذا وجدوا أو ألقوا فيه؟ كذبوا عليك وعلى الساكنة، زعموا أنهم ويتنسّق مع مكتب الأبحاث والاستثمارات المعدنية، الذي ترأسه ومنذ سنوات طوال امرأة عاقلة، تهتمّ بالواقع ولا يجرفها الخيال؛ زعموا يحفرون عن الذهب الموجود في الطبقات السفلية، وطمّعوكم سنوزع كيلو ذهب على كلّ مواطن، فلم تروا العجب، كانوا يحفرون قبوركم وأنتم تنظرون، وتأتي أنتِ اليوم فتحدّين الحاكمة العظمى.

اقتحمت امرأة من الحلقة دائرتي وشمّرت عن ساعدها باستعداد من سيهاجمني، صرخت:

- يا لمرا، لا تدخلِي إلى الحلقة، أنا من يروي فوقّري.

- أَوْقُرْكَ لو أنك جئت تروي الحقيقة.

- وهل أنا كذاب؟

- كذاب ونصّر، كلّ ما تحكيه منذ ساعة لهؤلاء المساكين -

تشير إلى جمهوري- تخاريف وهلوسات من رأسك يا سلام، كيف تسرق حكايتي، هي حياتي وترويه بالمقلوب، كيف؟! سُقِط في يدي لا أفهم ما يجري في حلقتي أنا صاحبها وامرأة غريبة من سلّطها عليّ تتدخل في حكيي وتفسد عليّ رزقي، تنجح، نجحت في تحريض الجمهور فانضمّ إليها يحتج ضدي صارخاً:

- عمي سلام، لا، لا، هذا حرام؛ هذا حرام!

وإذ عن يمينٍ وشمالٍ تهافت ناسٌ كثير، صبيةٌ ونساءً، شبابٌ عاطل يحوم كالذباب انضموا إلى احتجاج نونة وهم يهتفون:

- يا سلام هذا حرام، لحكاية حرام، الرواية حرام!

- 44 -

ما هذا حلم، هذا كابوس. والحمد لله، انتهى، أوشك على الانتهاء.

تنهّدت للاً نونة وهي تسمع المنادي يعلن اسمها في المساء الموالي لبدئها العصيان، وتهديدها بالعودة من حيث جاءت. لم يذعنوا لها خوفاً من تهديدها، ولكن لأنّ ترتيباً سابقاً هو قيد الإعداد في البلدة الأطلسية، حركة تجري فيها على قدمٍ وساق. نادى مَنْ يسمى رجل التكليف:

- حانت ساعةُ سعدِكَ غداً ستذهبن إلى العصامية، وتنايلن شرف الكبار، فأعدّي نفسك بكلّ ما يليق بهذا الإكبار.

في بلدة نونة كان المعلم لمباركي قد غطى أعمال حفر النفق، وبدا قد أكملَ مهمته في هذا الورش، وإن ظلَّ الصراخ يُسمع من الداخل وتحت التراب. كان لمباركي قد أكملَ أيضاً، وهذه مهمته الثانية الأساس، بناءً جدارية عالية في الشارع الكبير ملتقى طرق البلدة، ووضع عليها قماشاً أبيض ناصعاً فظهرت مثل شاشة خالصة لعرض الأفلام. كان أهل البلدة قد عرفوا شيئاً من هذا في سنوات خلّت، حين كانت تطوف بالأطلس قافلة من متطوعي الأندية السينمائية، مهمّتهم توعية السكان وتسليتهم ببعض الأفلام وترقية أذواقهم بما سمّوه جماليات الفن السابع، ولم يكن السكان قد عرفوا ما هي الفنون الأخرى قبل رقم سبعة، إلّا قائد المنطقة منع القافلة من العرض وهدّد أعضاءها بالحبس، لأنّ عروضهم لا تُستهلّ بالعوذلة والبسملة والدعاء للمحاكم العام، وها القائد الآن جاءته التعليمات حمّلها ساعي البريد ليسلمها يدّاً بيد، تحثّه على جمع الساكنة في وقت معلوم، لا يبقى أحدٌ في بيته، والضواحي والمدامر المحيطة تُخطّرها، والويل لمن لم يحضر، حتى القبور لو وسّعك تفتحها ليحضر الموتى إن لم يكفّ عديد الأحياء؛ المهم، جميعاً، السابعة مساء، يجلسون القرفصاء قبالة الشاشة، تستهلّ الحفلة بآيات من الذكر الحكيم، وعلى أصحاب المقاهي أن يتبرّعوا بتقديم الشاي وغريبة في انتظار النقل المباشر. نقل ماذا؟ لا أحد يعلم على وجه التحديد، إلّا القائد ويطانته، وهنية التي تموت

غَيْظاً لِّمَا سَمِعَتْ، وعلوط وبضعة مخبرين اعتادوا التَّجَمُّع في مقهاها. لمراقبة الداخل والخارج من وإلى البلدة.

في السادسة والنصف كانت لِّلَا نونة تنزل من سيارة من نوع رونو س5، أمام باب الرياح، ودعاها رجل التكليف لتتبعه، فاجتازا بوابةً بقوس كبير وسارا في طريق تحيط به أشجار الكلبسو من الجانبين، وسمعت من أغصانه الطيور تغرّد مرة، ومرة باسم الحاكم الأعظم تشدو. كانت الشمس في شهر منتصف يونيو هذا تميل إلى الغروب، ورجالٌ بجلايب بيضاء وطواقٍ حمراء يركضون نحو الجامع، على يمين ساحة الإشارة سمعوا أذان المغرب. فالتحقا بالمصلين، هو في جهة الرجال وهي في ركن النساء، وطلب منها البقاء هنا إلى أن يأتي مَنْ سينقلها إلى المكان المرصود، لا تقلقي هو مَنْ سيتعرّف عليك. وكذلك بعد الصلاة اقتربت منها سيدة سمّت نفسها لِّلَا قوت القلوب، امرأة فوق الكهولة، وإن قوة البنيان، دهما، ترتدي قفطاناً مزركشاً ويتدلّى من أذنيها قرطان ذهبيان مستديران، دعتها لمرافقتها، وسارا خارج المسجد تَحُفّ بهما كوكبة جُند بعمامات منفوخة وبنادق على الكتف، تمشي مشية عسكرية، إلى أن انتهيا عند مدخل باب مقوّس، اجتازاه يفضي إلى سرداب.

كلما مشيا فيه أضاء بعناقيد مصابيح بألوان، وعلى جدرانها تصاويرُ كلها لرجال بجلايب ولحى بيضاء، إلّا واحدٌ بلباس عصري، يرتدي سترّة حمراء وينطلقوناً أصفر ويضع على رأسه طربوشاً من قشّ. قالت لها لِّلَا قوت القلوب إنّ هذه هي السلالة

المعصومية وعليها أن تنحني أمام كل واحد، ففعلت، وانتهيا أخيراً إلى غرفة تقف بمدخلها عجوز شمطاء يرتديها قفطان فضفاض، ويقف على رأسها حجلٌ بريش مزركش، هي بدورها أشارت إلى أربعة نسوة خرجن من الزوايا فاستلمن للاً نونة لم تبد اعتراضاً كأنها معتادة على هذا المنوال، وقُدُنّها إلى غرفة كثيفة البخار بمثابة حمام، فركُنّها وصوَّبْنِها ودهننّها، ثم عطرْنِها من قوارير شتى، وبعد ذلك قُدُنّها، قد ألَبَسْنِها فاخر الثياب وخُفّاً من ريش، وسلَّمْنِها للرجل المكلف، شرع ينبّهها كيف تمشي، وأن لا تقترب من الحاكم الأعظم إن هو اقترب، وأن لا تنبس ببنت شفة إلّا إذا أمرت، ولا يزيد الجواب عن كلمة إن هي سُئلت، وأن تُفرغ كلّ ما في رأسها هنا، ومدّ لها صندوقاً مجلدّاً به آلة تسجيل، قال أفرغي فيه كلّ الكلم والوصايا التي نويت نقلها لمولى هذه الدار، سواء منك أو حمّلك إياها سكّان بلدتك، واعلمي أننا وهو خصوصاً أعلم بذات الصدور، يصل معنى كلامك إليه قبل أن تنطقي به، موهبة من الله لا يتمّع بها مخلوق سواه، ولا نضمن لك ما يحدث إن خالفت أو غالطت، معيبٌ أصلاً في حضرة مولانا الهمام، لا أحتاج أن أوصيك بغضّ البصر، فهو لا يُرى إلّا أن يشاء، له في ذلك تدبيرٌ يخصّه في الحين، يعلم كلّ شيء علم اليقين، أمّا كم يستغرق اللقاء، فذا علمه عند ربّ العالمين، قد يتراوح بين دقائق، لا تعجبي، أو رمشة عين، أمّا إن حلوت في هذه العين، يا لسعدك، إنك، إذاً، في أعلى عليين.

وهو ما كان ساكنة البلدة يتطلّعون إليه. يتوقّعون أن تنزل سيدة بلدهم منزلةً عظيمةً عند الحاكم الأعظم، بلَغْهم أنه هو ذاته أرسل

لها وفداً لا رجلاً فرداً، وليس كما ادّعى ساعي البريد رسالة، لكي تشرفه في العاصمة، وأن لقاءهما سيمهّد لمقّدمه بنفسه إلى ديارهم ليقف على أحوالهم ويلبي مطالبهم جميعها، والقايد يطوف بينهم الآن، ويؤكد أقوالهم، ويزيد بأنه تشريف لم ينله أحد من قبل، ودليل على أن الحاكمية العظمى نسيت أو تناسّت الفتنة التي وقعت في ديارهم سنة 1973 تسبّب فيها العصاة من أعداء الله والإيالة العظمى. وفيما العيون مشدودةً إلى الشاشة البيضاء في الجدارية المنصوبة، كان المعلم لمباركي ينسحب هو وشاحناته أفرغت حملتها وهو يحثّ السّواق على تجنّب التسبّب في أيّ ضجيج أو احتجاج، سيأخذون وجهة مراكش من حيث أتوا، وهناك سيدفع لهم باقي الحساب والمكافأة. وفي الوقت، الساعة كما قرأتها هنية في معصمها التاسعة، رأت غريمتها تدخل القاعة الكبرى في قصر الحاكم الأعظم، فدقّ قلبها كأنه سيخرج من صدرها، وبصرها خفيض، لا نائمةً غير حفيف ثوبها وهي تمشي لتقف أخيراً على مبعدة خطوتين من دائرة ضوء.

صار الضوء ينتقل بهدوء، وشيئاً بخفة، وشيئاً يعود يتناقل، يراه ساكنة البلدة في الشاشة المنصوبة وسط ساحتهم يتخذ ظلّ رجل عالي القامة كالنخلة، وضخم الجسد كالجبل، وشيئاً قويّ الصوت كهزيم الرعد، وتارة يتجلى بُراقاً، منفلتاً كشهاب، وهم يصخبون من فرط الإعجاب وينتظرون، ونونة أيضاً تنتظر وتتوقّع، لكن لا ترى، في جوفها سيلٌ من الكلام، رغم أنّ المكلف سحب أغلبه في آلة التسجيل عند المدخل، واستصدر منها وعداً بالصمت المطلق، إلّا أنها، جوفها يكاد ينفجر، وحنجرتها تزدحم فيها

الكلمات معجونة، والحروف مفككة، والمطالب التي حملها إياها أهل البلدة ملحّة ومبعثرة، بل صارخة تدمدم داخل صدرها، تدقّ كقرع الطبول، أصوات ساكنة بلدتها ترتجّ اهتزازاً بداخلها، هيا، ماذا تنتظرين، قللي له، هيا، أبلغيه مطالبنا وشكاوانا، هيا، كلّ عجرفتك وتعاليك في الجبل وها أنت الآن أمامه كالنملة، مثل لا أحد، وأعوامٌ وأنت تخذعيننا، تدعين أنك سليله سيدي مولاي ادريس، أنك تحملين البركات، وأنت كالأنبياء من أصابعك ينبع الماء بالمعجزات، و، و؛

.. ودائرة الضوء ما تنفك تتراقص في القاعة الكبرى، وأحياناً تصعد الجدران وتتلألأ في نتوءات الفسيفساء وانسياب قطع الرخام وحرير الستائر وهي لا تبصر منها إلّا نهاياتها، تهيب أن ترفع بصرها، لا أضمن لك مصيراً حذرنا المكلف، هيا قللي له، نحن من سنين ننتظر في الذلّ والمسكنة صابرين، أنكرنا أهلنا الذين اختفوا في سنة 1973 ووعدنا القاييد وآخر قبله سبقه بأن ساعة الفرج آتية، سأقول له، لكن ماذا أقول، مطالبهم أم ما أريد، تساءلت نونة بحرقه وإلحاح، قللي له أين ذهبت جثت موتانا؟ إنها تُنادينا كلّ ليلة تريد لحمها لتتغذى من البرد؛ قللي له أين أرضنا، نهبها كلّ قيادك ومفوضيك؟ قللي له أين شبابنا، أخذته كلّهُ هو وبناتنا؟ أين ثروة أرضنا؟

تمللم الجالسون قبالة الشاشة البيضاء عيونهم لا تصدق أن موفدة بلدتهم، من زعمت أو زعموا حامية حماها، وقبلة أنظارهم

في جبلها العالي، يرونها جامدة قطعةً ثلج لا تنبس ببنت شفة، فحرّضتهم هنية لما أطلقت صرخةً تسأل قولي له أين أخي الذي اختطفه أو قتله رجالك في درب البلدية بالدار البيضاء في ذلك العام المشؤوم الذي لن ننساه؟ قولي له إننا تعبنا من وعودك، ضجرنا من غطرستك، أفّ من نزقك... من... وأحسّت أن هناك مَنْ يكتمّ فيها ويسحبها بعيداً عن الساحة سحباً، بل إن يداً كانت تفعل، وأخرى سواها تفعل، وأيد تنهش من هنا وهنا، والواقع مستمرّ لا يرتفع، والخيال يغذّيه، مرةً أكبر منه، مرّات أصغر وذاك يبقى أهول، أو كلاهما ضئيل، ناقصٌ بإزاء ما حدث ويحدث، وسيحدث؛ فماذا ينسّى إن لم يكن لا الواقع ولا الخيال؟ هذه هي الحكاية التي كان الجالسون قبالة الشاشة يتمنون لو سمعوها، أو يأتي مَنْ ينسج خيوطها أمامهم وحين تكتمل يجلسون حوله في حلقة ليستمعوا إليها، فإن كانت واقعاً سلّموا لها، وإنّ خيالاً سافروا فيها يحلمون، ويقفون جالسين وسائرين يحلمون... بينما لآلة نوتة ما زال الصراع يعتمل في نفسها بين أن تقول ما يدعوها إليه الجمهور والمريدون أو لا، ولما حسمت أمرها بين لا ونعم، شرعت تهمهم كأنها تدمدم، استيقظ فيها جنّ يسكنها، وها هو يفضح صرعاها للمرة الأولى أمام الأنظار:

سأقول له، سأقول له، س، س، س،

صارت في قلب دائرة الضوء اتسعت، رأت فرقة كناوة كثيرة الأفراد تدخلها، تعلو إيقاعات الهجهوج والقراقب والرّشّ في حلقة تتصاعد وهي وسطها تجذب وتترنّج، والجذبة تصعد، الساكنة في الساحة هجرت عيونهم الشاشة وانخرطوا في الجذبة وهم يردّدون لازمة الجذبة التقليدية وإليها يضيفون:

«سأقول له/ يا أسيادي
سأقول له/ يا ولادي
التسليم لرجال الله ،
التسليم ليكم / التسليم ،
التسليم / أسيدي
التسليم / أموالي
سأقول له/
له/
ل/
»

تمت في باريس في 15 أبريل 2017

صدر للمؤلف

الروايات :

- زمن بين الولادة والحلم، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1976.
- وردة للوقت المغربي، دار الكلمة، بيروت، 1983، (ط. 1) و 1985 (ط. 2). (ط. 3) دار النشر المغربية.
- الجنازة، دار قرطبة، الدار البيضاء، 1987، (ط. 2) المعارف الجديدة، الرباط، 2004.
- وقد صدرت مترجمة إلى الإسبانية بعنوان: *Funerales, Al Quibla narrativa, Libertarias/Prodhufo, Madrid, 1995.*
- حكاية وهم، دار الآداب، بيروت. وفي طبعة ثانية بعنوان حكاية وهم مغربية، دار النشر المغربية، 1995.
- طريق السحاب، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1994.
- مدينة براقش، منشورات الرابطة، الدار البيضاء، 1998.
- العجب العجيب، منشورات رابطة أدباء المغرب، الرباط، 1999.
- الهباء المثور، دار نشر المعرفة، الرباط، 2001.
- فاس، لو عادت إليه، المعارف الجديدة، الرباط، 2003.

- المخدوعون، منشورات أحمد المديني، الرباط، (2005) ودار
متدى المعارف، بيروت، 2012.
- رجال ظهر المهرارز، منشورات أحمد المديني، الرباط، 2007.
- هموم بطة، منشورات فكر، الرباط، 2009.
- ممر الصفصاف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت،
2014، ط. 2، 2015.
- ظل الغريب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت،
2017.

المجاميع القصصية:

- العنف في الدماغ، منشورات الأطلنط، الدار البيضاء، 1971.
- سفر الإنشاء والتدمير، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1978.
- الطريق إلى المنافي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،
1985 (ط. 1). دار النشر المغربية، 1988 (ط. 2).
- المظاهرة، دار النشر المغربية، 1986.
- الليمون (قصص صينية، مترجمة عن الفرنسية)، دار الشؤون
الثقافية، بغداد، 1981.
- احتمالات البلد الأزرق، دار الكلام، الرباط، 1990.
- رؤيا السيد سين، دار النشر المغربية، 1996.
- حروف الزين، المعارف الجديدة، الرباط، 2002.
- هيا تلعب، منشورات أحمد المديني، الرباط، 2004.
- امرأة العصافير، منشورات أحمد المديني، 2006.
- خريف، منشورات أحمد المديني، 2008.

- عند بوطاقيّة، منشورات أحمد المديني، 2010.
- طعم الكرز، دار تويقال للنشر، الدار البيضاء، 2012.
- مجموعة قصصية بالإسبانية، مشتركة مع القاص الإسباني خوسي ماريا ميرينو، Ediciones Alfar-Ixbilia, no 7, Sevilla, 2009.
- طرز الغرزة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 2009.

كتابات رحلية:

- أيام برازيلية، وأخرى من يباب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 2009.
- الرحلة إلى بلاد الله، منشورات فكر، الرباط، 2010.
- الرحلة المغربية إلى بلاد الأرجنتين وتشيلي البهية، كتاب مجلة دبي، دبي، 2014.
- الرحلة إلى بلاد الله، يليها الرحلة إلى رام الله، دار الأمان، الرباط، 2015.

نصوص أدبية سيرية:

- كتاب الضفاف، نصوص الغربية، نصوص الولع، المعارف الجديدة، الرباط، 2002.
- كتاب الذات، يليه كتاب الصفات، المعارف الجديدة، الرباط، 2004.
- جمر بارد، أوراق وقتنا الضائع، منشورات فكر، الرباط، 2008.
- كتاب النهايات، نصوص المحبة والزوال، منشورات فكر، الرباط، 2010.

- نصيبي من باريس، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2014.
- نصيبي من الشرق، دار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2015.
- خرائط تمشي في رأسي - جراب المسافر، دار الأمان، 2016.

شعر:

- برد المسافات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982.
- أندلس الرغبة، دار قرطبة، الدار البيضاء.
- بقايا غياب، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003.

دراسات جامعية وأبحاث نقدية:

- فن القصة القصيرة في المغرب، في النشأة والتطور والاتجاهات، دار العودة، بيروت، 1980.
- الأدب المغربي المعاصر، دار الرشيد، بغداد، 1983 (ط. 1).
- دار النشر المغربية (ط. 2).
- أسئلة الإبداع في الأدب العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، 1985.
- في أصول الخطاب النقدي الجديد (دراسات مترجمة من النقد الجديد في فرنسا)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987 (ط. 1)، و 1989 (ط. 2) و 1990 (ط. 3) عن منشورات عيون المقالات، الدار البيضاء.
- قصص من المغرب العربي (أنطولوجية بالفرنسية)، دار هاشيت، كتاب الجيب، باريس، 1994.
- الكتابة السردية في الأدب المغربي الحديث، الرؤية والتكوين، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2000.

- رسائل إلى شاعر ناشئ/ رسائل إلى روائي ناشئ (ريلكه، ويوسا)
(دراسات مترجمة)، منشورات الزمن، الرباط، 2002. و(ط. 2)
دار أزمنة، عمّان، 2002.
- تحت شمس النص، دراسات في السرد العربي الحديث، دار
الثقافة، الدار البيضاء، 2005.
- رؤية السرد، فكرة النقد، دار الثقافة، الدار البيضاء، 2005.
- عمل الكاتب، الكاتب وهو يعمل، دار أزمنة، عمّان، 2007.
- راهن الرواية الغربية: مفاهيم ورؤى، تقديم وترجمة، دار أزمنة،
عمّان، 2009.
- البير كامو، خطاب السويد، تقديم وترجمة، دار أزمنة، عمّان،
2010.
- وهج الأسئلة، حوار شامل مع هاشم عودة، دار أزمنة، عمّان،
2010.
- النحلة العاملة، أو صناعة الكاتب العربي، دار أزمنة، عمّان،
2011.
- تحولات النوع في الرواية العربية، بين مغرب ومشرق، دار
الأمان، الرباط، 2012، وصدرت الطبعة المشرقية عن دار منتدى
المعارف، بيروت، 2013.
- كتابة أخرى، سرد عربي مختلف، دار الأمان، الرباط، 2015.
- عديد الدراسات والمساهمات في كتب مشتركة، وفي دوريات
متخصصة، بالمغرب وخارجه، بالعربية وبلغات أجنبية.
- صدرت له الأعمال الكاملة عن وزارة الثقافة بالمغرب، (الأعمال
الروائية في خمسة أجزاء، يليها الأعمال القصصية في أربعة
أجزاء) الرباط، 2015.

جوائز وطنية:

- جائزة المغرب الكبرى للكتاب، وزارة الثقافة، الرباط، في فرع النقد والدراسات الأدبية، 2006.
- جائزة المغرب الكبرى للكتاب، وزارة الثقافة، الرباط، 2009، في فرع السرديات (الرواية والقصة القصيرة).

التأهيل العلمي:

- دكتوراه الدولة من جامعة السوربون في الآداب والعلوم الإنسانية، باريس (1990). أستاذ التعليم العالي.

البريد الإلكتروني: aelmadini@yahoo.fr

في بلاد نون

«كنتَ في الجبل، إذًا؟! ما شأنك وهذا الجبل - انتبهت هنية إلى القدمين -؛ هكذا إذًا رموك حافياً. منذ وصلت إلى بلدتنا، واخترتَ الجلوس في خلوتك، وعينك على الجهة الشرقية حيث الجبل لم تفارقها ولا فهمنا لِمَ بصرك منجذب إلى تلك الجهة، وأي سحر دُبِّر لك يا مسكين، وكم بخّرتُ مكانك في غيابك فما نفع، ففهمتُ أن السّحر مرصود هناك حيث تنظر، ولا حيلة لي في الوصول إليه، أو أصير جماداً كما حذّرني فقيه استشرته في الأمر. مثلك كنتُ فضولية ثم فهمت من الفقيه الروداني، ومن جبراني، أيضاً، أن هناك بالتجربة أماكن لا يجوز الاقتراب منها، الجبل أحدها، لا بله حتى النظر إليها، فهو خاص وحصر على يوم الزيارة، وما أدراك ما يوم الزيارة!».

ISBN 978-9953-68-873-2



المركز الثقافي العربي



الدار البيضاء: ص.ب. 4006 (سيدنا)

بيروت: ص.ب. 113/5158

mar.z.casablanca@gmail.com

cas_casa_bey@yahoo.com